

الدكتور

محمود البستاني مفكرا اسلاميا

اضاءات نقدية

في ضوء مشروع أسامة

العلوم الانسانية

الشيخ محمد الساعدي



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان الحب طائلب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح الإيمان .
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

الدكتور محمود البستاني

مفكراً إسلامياً

اضاءات نقدية حول مشروع أسلمة
المعرفة ونشاطاته الفكرية الأخرى

تأليف

الشيخ محمد الساعدي

هويّة الكتاب

اسم الكتاب : الدكتور محمود البستاني مفكراً اسلامياً

تأليف : الشيخ محمد الساعدي

المصحّح والمرتبّ : الشيخ محمد الساعدي

الناشر : المؤلّف

المطبعة : أمير

الطبعة : الأولى / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

الدكتور البستاني
مفكراً إسلامياً



تَقْدِيرٌ

عندما أخبرني فضيلة الشيخ محمد الساعدي حفظه الله أنه قد أعدَّ دراسة عن حياة الأخ الجليل والمفكر الإسلامي الدكتور محمود البستاني حفظه الله سرّني الأمر وأكبرْتُ فيه هذه الروح ، فإنَّ الله تعالى يحبُّ الوفاء لعباده ، بعضهم لبعض.

والأخ الدكتور البستاني بما قدَّم من أياٍ جميلة للفكر والثقافة الإسلامية المعاصرة يستحقُّ مثل هذا الوفاء والتقدير.

فقد عرفت هذا العبد الصالح منذ أربعين سنة ، وكانت بداية تعارفنا في الأوساط الفكرية والثقافية للنجف الأشرف ، وكان حفظه الله يومئذٍ شاباً طموحاً متطلعاً نشطاً في هذه الأوساط.

وقد تحوّل ذلك الطموح خلال أربعين سنة من عمره المبارك إلى أعمال فكرية وثقافية إسلامية وقرآنية قيّمة وجليلة في أسلمة المعرفة الإنسانية في حقول النفس والاجتماع والفنّ...

وقد وفّقهُ الله تعالى خلال هذه الفترة من عمره المبارك لخدمات علمية جليلة في حقول عديدة من المعرفة الإسلامية ، ولا سيّما في حقول البيان والنقد والدراسات الأدبية.

أسأل الله تعالى أن يمدّ في عمره ، وينعم علينا بالمزيد من علمه وفكره الخصب. وجزى الله خيراً مؤلّف هذه الدراسة الشيخ محمد الساعدي لهذا الوفاء الجميل ، والجميل لا يصدر إلّا من الجميل ، وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل باكورة طيّبة وبداية مباركة لأعمال علمية كثيرة إن شاء الله في حقل الثقافة والمعرفة الإسلامية.

المُفَرِّدَةُ

تشدد الحاجة في المرحلة الراهنة الى الدخول المباشر مع (رموزنا) الفكرية في حوار جاد ، يتيح لنا قراءة خصوصياتهم [التجريبية] بصورها النهائية مع التوفر المكثف على اضاءة مكنونات كل منهم ، بدءً من فهم الخطوات الأولى ، وانتهاءً في اسهام ارهاصات الذات وما أفرزته عبر معاناتها الشاقة في ميدان الخلق والإبداع ...

ذلك من أجل ادامة التواصل الحيّ مع روافد (الحضور) فيما قدمته من اسهامات ومعالجات على ساحة المعرفة المعاصرة ، لكي يكون الانطلاق الحضاري مشحوناً بزخمٍ فاعل من عناصر القوة والامتداد .

والواقع ، ان جملةً من الولادات - على طريق الحوار ذاته - قد تبينت خيوطها العامة في غضون فتراتنا الحاضرة ، إلا أنها لازالت محبوسة في اطار رؤيوي قاصر ، حيث يغلب على أكثرية المحاولات بصمات الانحياز والميولات ألالا موضوعية مع نمط من الشخصيات التي اكتسبت بعد ذلك سمة الامتياز والعالمية ، في حين أن أدنى ملامسة جدية لواقعها الفعلي يسفر على نفي أية مؤهلات تدلّ على ذلك .

ولم تقف المسألة عند هذه الحدود فحسب ، بل ان بعض المحاولات كانت تهدف الى اقضاء نخبة من رجال الفكر الاسلامي بالرغم من مشاركتها الضخمة ودورها الملحوظ في إثراء حقول الفكر والمعرفة بنمطيتها الموروث والمعاصر .

من هنا تجي هذه المحاولة - ومن خلفها أكثر من مسوغ يحفزها على المبادرة والاسهام في دراسة جمع من المفكرين الذين تمتاز أعمالهم بمفردتي الاصالة والمعاصرة ، الى جانب هدفية السلوك ورسالية التحرك اللذين يشكلان أشدّ ملامحهم نصوعاً .

ان الوقوف على طبيعة نتاجاتهم وما رافقها من ملابسات يمثل ضرورة نهضوية ملحة فيما لو حاولنا أن نكوّن رؤية تحليلية محكمة عن آليات التغير الفكري التي طرأت في

النصف الأخير من القرن الحالي .

فنحن ازاء تحول واسع ومسؤوليات ضخمة تتطلب في كل مفصل منها بذل الجهد وملاحقة الأعمال التي تتسم بالعمق والتأصيل ومقاربة قضايا العصر في سبيل تجاوز أسوار التحدي القائم بنجاح يؤكد فاعلية الفكر الاسلامي في رسم مختلف المضمونات التي تتكفل بصياغة المجتمع وفق أرفع المستويات .

ولا نبتعد كثيراً ، وقد وقع اختبارنا في مشروعا هذا على شخصية يصعب الحديث عنها ، حيث تتسم بخصوصيات معرفية ضخمة ، مما تجعل من الباحث متلكأ في محاولة الوقوف على ما أفرزته من نتائج شملت أكثر من حقل معرفي أمثال : النفس ، الاجتماع ، الفن ، الآداب ... الخ .

لذا تجدني أميل الى ضرورة عقد مؤتمر يتناسب مع حجم الشخصية ذاتها ، فيما تكون هناك ورقة عمل تحدد فيها الموضوعات التي تقترح على نخبة من الباحثين والمعنيين بقضايا الفكر والمعرفة . فالمسألة - كما أسلفنا - أوسع من اعداد دراسة أو بحث ، وليست هي من قبيل الاحياء أو التكريم الذي تغلب عليه الخطابات المكرورة ...

أن شخصية الدكتور البستاني : تعد رافداً اسلامياً معاصراً مما يحتم على النقاد بذل المزيد من الاهتمام لمقاربة أعماله عبر الاضاءات النقدية الواعية ، فهناك الكثير من المكتنزات والكشوفات التي توصل إليها البستاني - من خلال تجربته الخاصة - لم تتضح بعد لدى عامة المتلقين .

فلقد توفر على مشروع فكري ذي طابع تأصيلي موفق بحيث أكد به على حضورية الفكر الاسلامي وقابليته الفاعلة في أخذ زمام الحضارة المعاصرة الى حياة تشيع فيها نسائم الخير والمساواة و... الخ . فيما استبدل بمشروعه عينه مناهج ونظريات كانت ولا تزال مصدراً مرجعياً يعكس تصورات الطرف الآخر بكل أبعادها المتصلة بالموقف الفلسفي من الكون والانسان والحياة .

والواقع ، إن إسهامات البستاني حافلة بكل ما هو جاد وأصيل ، فالملاحظ انها تنطلق من منظومة تتسم بالعمق والموسوعية الجادة ... بحيث يقف المتلقي أو الدارس أمام طاقة تعبيرية وزخم هائل من الرؤى المبدعة الى جانب الأدوات الأخرى التي يعتمدها البستاني في بلورة أفكاره ونظرياته .

ومما ينبغي التأكيد عليه ، ان هناك سمة أعطت نتاجاته مزيداً من الانشدادية والذيع عند قُرَّائه والمتابعين لأعماله .

والسمة المشار إليها هي احدئ مصاديق تواصله الروحي وارتباطه الحيّ مع عالم السماء - وهذا ما لم يغيب عن تلامذته والمقربين اليه .
فلقد بذل من الجهد في مجال (السير والسلوك) جانباً بات يغبطه عليه كل من عرفه أو اتصل به .

ان في كتابات البستاني لمسات عباديّة متمردة على قيودات البحوث الاكاديمية الجافة ، فهي تسعى الى تحرير الكتابة من النمط المألوف والصعود بها الى مجالات تنفتح على وعي عبادي مكثف .

على أية حال : فقد قمنا بهذا العمل وكلّنا أمل بان نكون قد أدّينا جزءً من الهمّ أو الطموح الذي نحمله ، كما نأمل ان نكون قد أوقدنا شرارة البحث والاهتمام في نفوس الاخوة الباحثين .

وينبغي الإشارة إلى أنني كَرّست محاولتي الدراسية هذه حول تجلية الخطوط العامّة التي اعتمدها الباحث في منهجيّته المتميّزة بأدوات وآليات لها خصوصياتها المعرفيّة ، لذلك تجدني غير متطرّقٍ إلى جملة من المباحث التي تمّ الوقوف عليها من خلال حشد مقولات الباحثين الإسلاميين والغير الإسلاميين إلّا في مواقع يفرضها السياق ؛ لأنّ الدخول في منحنيات تلك الدوائر البحثيّة يتطلّب حجماً واسعاً لا يتناسب مع طبيعة الدراسة التي هدفت كما ألمحت سلفاً إلى إضاءة مشروع البستاني الفكري بصورة عامّة من خلال الإشارات التي تحوم على إفاداته مباشرة ، لذا أرفع عذري إلى الباحثين جميعاً على عدم تغطية تلك المساحات التي تمّ إغفالها عن غير قصد .

ولا ننسى ذكر ما واجهناه في دراستنا هذه من عناء ، حيث كان التعامل مع الدكتور البستاني - بخصوص الدراسة ذاتها - يحتاج الى طرائق تتطلب جانباً عريضاً من المشقة فهو ممن زهد بالاضواء والاصوات الاعلامية التي تحاول أن تتحدث عنه فكان يتهرب منها أيّما تهرب ، لذا فقد امتنع عن الإدلاء بالكثير من الحقائق المتعلقة به لظنّه إنها تحمل رائحة الرياء أو ربّما يفسرها الآخرون بحبّ الظهور وما شابه ذلك ... كما كان في عملية الحصول على بعض المصادر المتعلقة بالدكتور البستاني نوعاً آخر من التعب والعناء

حيث توزعت بين دوريات ومطبوعات غير متيسرة في أيدينا لاعتبارات عديدة ...
وبالرغم من التتبع والاستقصاء فقد غابت عنا جملة من المصادر المهمة .
ونسأله تعالى أن يكون عملنا مقبولاً عنده * .

محمد الساعدي

١٧ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ

٢٠٠٠ / ٥ / ٢٠

* كتبت هذه الدراسة قبل أربع سنوات من تاريخ طبعها .

البدء

تبدو روائع المخاطرة واضحة ، حينما نحاول ان نفتح ملف الحديث عن خطوط النشاط المعرفي الاسلامي في الفاصلة المعاصرة . وبوجه الدقة حينما نقوم بعملية تقويم أو رصد التطور الفكري لدى الاسلاميين ، بغية الولوج الى عالم (الدكتور محمود البستاني) في ما قدمه من أعمال معرفية واسعة المجالات ، لاسيما وان محاولتنا هذه تستهدف ابراز المعالم التي تصعد بتجربة (البستاني) الى مصاف التفرد والامتياز . وأتصور أن السياق الذي نحن بصددده ، لا يسعفنا في اعطاء الموضوع حقه من البسط والاستيعاب ، بيد أن ايماءات سريعة حول بعض مفاصل الموضوع - وان كانت على نحو المقاربات الاولى - قد تسهم في تحقيق جانب مما نطمح اليه .

الملاحظ ان بدايات النشاط الفكري أو ما يصطلح عليه عادة بـ (حركة الاحياء الاسلامي) التي تفجرت على يد (الأفغاني) وامتدت عبر مدرسة تلميذه الكبير (عبده) قد حاولت جاهدة على تحريك الوعي وبعث مفاعيل الابداع التي كانت قد افرزتها الامة الاسلامية في غابرها المشرق ، فلقد سلطت جهودها صوب اجتثاث عوامل الغياب الفكري من خلال وقوف العقل المسلم على مكتنزات المنظومة الاسلامية بما تحتويه من أبعاد شمولية ضخمة تغطي كافة مجالات الحياة .

والحق ، ان البدايات ذاتها قدمت من الجهود ما يستحق وصفه : بـ [تحديد الاطار العام لنهضوية الفكر الاسلامي المعاصر مع رسم بعض الاساسيات الايدلوجية من قبيل : حاكمية الاسلام وحيوية اصوله وتشريعاته الى غير ذلك ...] لكن يلاحظ على بعض تلك البدايات - مع فائق التثمين والتقدير - أنها تظل موسومة في كونها مجرد بدايات لم تبلغ من العمق والنضج المستوى المفروض - وهذا ما يطبع غالباً كل البدايات - فلذا لم يؤثر عن الرّواد الأوائل مشروع ناجز يضارع المشروعات التي تمخضت عنها الفلسفات الغربية

وقتنئذ... وكيف ما يكون فلقد أنعكست تلك البدايات على الاجيال التي تلتها حيث ألفت بظلالها الكثيفة على معظم النتاجات المتأخرة عليها ، حتى ليتمكن القول : ان الكتابات التي صدرت في أربعينيات هذا القرن وخمسينياته خاصة ، قد وجدت في الاعمال المتقدمة متكأً ضخماً اعتمدت عليه في نشاطها الفكري ، بل أنطلقت من صميمه وعبر نسيجه العام مكملة خطوات (الاحياء) التي توثبت بقوة وفاعلية جادة مؤكدة أصالة الاسلام وديمومية مبادئه التي شمع بها امام عامة المدارس والفلسفات الوضعية .

والواقع ان الفترة المتحدث عنها - الاربعينيات والخمسينيات - تشكل منعطفاً بارزاً في صراع الفكر الاسلامي الحديث حيث وقفت بوجه التيارات الوافدة يومئذ كما شاركت في توعية شرائح واسعة من الكوادر الاسلامية. ولا زالت الكثير من المؤسسات تعتمدها كمادة مهمة في برنامج التنقيف الاسلامي وبخاصة أعمال (قطب ، محمد مبارك ، مالك ابن نبي ، المودودي ...) بيد أنه من المؤسف أن الفترة المذكورة لم يتأزر كتابها فيما بينهم لكي يتوفروا على صيغة مبرمجة يتم خلالها التوفر على طرح الاسلام كمشروع حضاري متكامل ، تنبذ فيه فاعلية وشمولية مبادئه الانسانية والروحية العظيمة . كما ويلاحظ عليها أيضاً ، أنها قد أفرزت كتاباً ذوي نمط توفيقى ملحوظ حاولوا أن يصوغوا الاسلام وفق متبنيات الطرف الآخر وتصوراته بحيث لم يراعوا أصالة الفكر الاسلامي أو خطورة وضعه موضع الثانوي في آلية التفعيل المعرفي ... ولقد وصل الأمر ببعضهم أن يكتب على سبيل المثال لا الحصر - كتاباً تحت العنوان الآتي : (الاشتراكية في الاسلام) كما حاول الآخر أن يحلل بعض منحنيات التاريخ الاسلامي وفق الرؤية الماركسية للصراع المادي ... الأمر الذي أدى بالمفكر الاسلامي المعروف (مرتضى المطهري) أن يبذل من الرصد والمتابعات النقدية مبلغاً يمتد على رقعة واسعة من نشاطاته الفكرية ، موضحاً سلبية مثل هذا التوجّه الذي يسعى إلى خلط الأوراق وممارسة عملية التحدّث عن الإسلام تحت غطاء التحديث والتواصل. وذلك أن المنهج التوفيقى قد قدم للإسلام أساءة لا تغفر من حيث يشعر اصحابها أو لا يشعرون ، وهذا ما أكد عليه أكثر من باحث اسلامي كان (المطهري) المذكور آنفاً أحد أكبر المعبرين عن ذلك ، حتى ان أحد الباحثين كتب دراسة كاملة عن آراء المطهري في خصوص هذا المحور بالذات .

وحين نواكب مسارات النشاط الفكري فيما بعد الخمسينات نكتشف - وهذه من النقاط الواضحة لدى عامة المثقفين والمتابعين - ان قفزات ملحوظة قد حصلت بحركة الفكر الاسلامي حيث نشط أصحابها ليدشنوا مجالات حيّة مما أتاح لهم فرصة المشاركة عبر أعمالهم التي سجلوا بها حضوراً جاداً على ساحة العلوم الانسانية المعاصرة ، الى جانب نجاحهم الملحوظ في استيعاب الاشكاليات المتعلقة بـ (الاصاله والمعاصرة أو التراث والحداثة) وتخطي كل افرازاتهما دون أي تكلّف .

والواقع ان مشارف السبعينيات هي من أخصب الفترات الفكرية حيث اتصفت نتاجاتها بالعمق والجدة ومزاوت القضايا الفاعلة والملحة في حياتنا الراهنة ، ولقد لاحت في أفق الفترة عينها مؤشرات (الصحوة الاسلامية) التي شكلت فيما بعد ظاهرة بعثوية ضخمة في نطاقات المعرفة المعاصرة حيث بدأت معالم الخصوصية العقيدية والفكرية تلامس مضمونات المعرفة بكافة حقولها وبخاصة ان معالجات جادة قد بذلها المعنيون في اطار المنهج وترسيم مفرداتها ... والمهم ، ان الاعمال المتحدث عنها قد رفعت لافتة [الاسلمة] التي نحن بصدد الوقوف على بعض منحنياتها ، لنحدد بعض ما لها وبعض ما عليها . ومما لا شك فيه ، أن جهوداً واسعة قد كرّسها المعنيون في مشروع الاسلمة وبخاصة في تحديد موضوعاتها وما يتصل بالجدليات التي تعيق من تحرك الاسلاميين . يُضاف الى ذلك ، ان اسهامات تطبيقية واسعة قد أخذت طريقها بالبروز لتمنح المشروع جانباً فاعلاً من التأسيس الذي تعدّى ممرات التنظير وفرض الاولويات المحورية لتتأكد على سطح الواقع كنماذج وعيّنات ذات مستوى عميق . من قبيل : (المعهد العالمي للفكر الاسلامي في أمريكا) والاصدار المعروف برصانته سلسلة إسلامية المعرفة التي كتب بها رموز من العيار الثقيل... والدورية التخصصية المسماة بـ [مجلة المسلم المعاصر] وغير ذلك من المؤسسات والاصدارات .

بيد أن ثمة بعض الملاحظات التي تُسجل على مشروع الاسلمة نختار منها ما هو أكثر وضوحاً وأشدّ خطورةً ، مثل : موضوعة (الادلة الشرعية) التي تكاد أن تكون أُلصق الموضوعات جدلاً .

فالملاحظ أن المعنيين في أسلمة الحقول الانسانية قد جوبهوا بمحدودية النص الشرعي في عملية البحث عن معادل اسلامي صريح [نص] حيث اعتمدوا على النصوص

القرآنية والنصوص النبوية وهي محدودة جداً فيما لو نظرنا إليها من الزاوية الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية... الخ .

لذا فقد التجأوا في الكثير من دراساتهم الى مصطلحات من أمثال : روح التشريع الاسلامي ، الخط العام للشريعة وغير ذلك بغية التدليل بها على موقف الاسلام من جانب وإكساب بحوثهم الصبغة الاسلامية من جانب آخر ، وبالرغم من أن الباحثين قد بذلوا جهوداً مكثفة في اطار تطويع البحوث وفق نسقية المنهج الاسلامي وشمولية أبعاده المركزة ، إلا أن خطوط المفارقة قد بدت واضحة بخاصة في ممارسة تقويل النص الشرعي أو تحميله آراءً ونتائج يتأبأها النص نفسه ، حيث إن رقعة واسعة من النصوص الشرعية التي اعتمدها الباحثون لا تحمل دلالات مؤكدة يمكن لها أن تقوم مقام المعطيات العلمية لنظريات المدارس الوضعية.



على هامش هذه الاشارات السريعة يمكن القول : أن خصوصية الاعمال التي أنجزها البستاني تتحدد في نطاق الاسلامة - بكونها تجاوزت مناخات الجدلية المذكورة باعتمادها مضافاً إلى القرآن والسنة النبوية نصوص مدرسة أهل البيت (عليه السلام) ذات الخصوصية المتميزة من حيث الفاعلية والمزامنة والاستشراف... ولا شك ان المدرسة عينها قد أتاحت بما توفرت عليه من ثروة نصوصية هائلة فرصاً واسعة في المشاركة والاسهام في مجالات المعرفة المعاصرة...

ونعود لنقول : ان أعمال البستاني تهدف الى ابراز عالمية المفهوم الاسلامي عبر توظيف النص الاسلامي مع حقول المعرفة الانسانية وفتح آفاق الثقافت المشروط بلحاظات الاصاله والالتزام . كما تعمل على دفع عناصر الخلق والابداع في سبيل مواصلة الحضور الفاعل أمام افرازات الطرف الآخر .

وكذلك أيضاً إن ما يميّز مشروعه الفكري ونشاطاته البحثية ، تجاوزه المناخ الجدلي الذي يمسك بزمامه عدد ضخم من الباحثين ويفرضونه كواقع تنميطي لا مناص من مزاولته والانشغال في مفاداته الموهلة في الترف التصوري لإشكاليات تجالب الحاجات الأساسية لثقافة المسلم المعاصر كما يتجلّى ذلك في كتابات جملة من الباحثين التي يخبرها كلّ من يشتغل في هذه الحقول.

ولا نغفل أن هناك أعمالاً رائدة أنطلقت هي الأخرى من منظومة أهل البيت المعرفية فسجلت بما أنجزته اسهامات جادة في حقل الاسلامة وقد كانت بداياتها مبكرة جداً أي منذ الخمسينات وأوائل الستينات نذكر منها أعمال العلامة القرشي والشيخ شمس الدين والمفكر الشهيد محمد باقر الصدر وغير هؤلاء الاعلام ممن كانت كتاباتهم في نطاق تأطير الحقول المعرفية برؤى برؤية الموقف الاسلامي وبخاصة مجموعة كتاب مجلة [الأضواء] الرائدة .

الفصل الأول الجدور الأولى

الجدور الأولى

فتح البستاني عينيه في وسط أسريّ ، له مكانته وامتداداته الاجتماعية المتميزة .
كما يمتاز بسمات تقوائية لائقة .

والعجيب ان الحاج (عبد الحسين أبو الريحة) - كما شاء النجفيون أن يطلقوا عليه هذه التسمية - لم يحتل وفق المعايير الدنيوية ما يجعلنا ان نعزو أسباب شهرته ذات النطاق الواسع الى ذلك . بحيث ان رموز الطائفة الشيعية وأقطابها - كما ينقل ذلك معاصروه وعارفوه - وقتئذٍ كان يربطها وإياه علاقات وثيقة من قبيل المرجع الديني الكبير (أبو الحسن الاصفهاني والشيخ النائيني والسيد محمود الشاهودي ... وغيرهم) .

ففي
حتى ان مجلسه الأسبوعي كان يزخر بالوجوه العلمائية الوافدة اليه بما اذلك
أصحاب الوجاهة الاجتماعية من التجار واضرابهم .

والجدير بالذكر: أن بعض العلماء المشار اليهم ، قد عهد اليه وظيفة توزيع الحقوق الشرعية الى الطلبة والمستحقين من الفقراء وذوي الحوائج .

وفي ذلك كله : ما يثير الدهشة والاستغراب إذ كل ما كان يشغله [الحاج عبد الحسين البستاني] حانوتاً صغيراً يبيع من خلاله [العطور] . والواقع ان الأمر لا يكمن عند هذه الحدود فحسب بل يتعلق بحقائق هامة أبرزها (خصوصية السلوك) . وهنا ينبغي الإشارة الى ان النجف الأشرف ، قد أفرزت عبر مسيرتها التاريخية الطويلة

نمطاً خاصاً يُعرف بسلوكيته المنفردة ، وبكلمة ثانية شخصيات تقوائية تمثل الدرجة القصوى في الوعي العبادي ونماذج واقعية في تجسيد مبادئ السماء بحيث لا يكاد يجتاز المارّ مجلسهم ، إلّا وتجذبهم أشعاعاتهم الروحية . ويحسّ المرء حينما يجالسهم بشفافية ندية وبقدسية مضمخة بأنفاس الطهر والايمان ... إنهم عبر نمطهم السلوكي الخاص يشكلون لوناً من ألوان النجف المشرقة بالاصالة والنفوذ .

والحاج عبد الحسين البستاني عنصر بارز من عناصر النمط المذكور بل اشراقة من اشراقات النجف الروحية ، شخصية تستولي عليك باخلاقها وتنتزع منك الاجلال والتقدير حيث لا يضع فوارق بين شخص وآخر ، فالكلُّ لديه يحظى بالتقدير والاحترام حتى من لم يبلغ العاشرة من العمر كان يتعامل معه بمثل تعامله مع الشخصيات المعروفة ... ان عملية تصديره للحبّ ، لا تعرف امتيازتنا المألوفة . كما قد كان ؛ مصدرّاً من مصادر تلبية حوائج الناس والتوسط بشخصيته عند أصحاب المكانة ...

وبكلمة جامعة : فلقد كان على جانب كبير من التقوى والنزاهة والمواظبة على تمحيض جميع سلوكه وتحركاته وفق مبادئ الله ...

يُضاف الى ذلك : فقد كان شديد التعلق والولاء لأهل البيت (عليه السلام) خصوصاً بالامام الحسين بحيث كان يقتسم ربحه اليوميّ من حانوته الصغير مع الامام الحسين ، وينقل بعض من شاهده بانه كان لا يملك نفسه حينما يسمع اسم الحسين (عليه السلام) ، فتتحدّر دموعه الساخنة من دون شعور ...

على أية حال : من الطبيعي ، ان من يولد في مثل هذه الأجواء الخصبة ان يأخذ طريقه مسرعاً بالنمو والاستواء المشبعين بكل عناصر القوة والنجاح .

ومن الواضح جداً : ان تنعكس ملامح الاب الكريم على شخصية الابن الذي حاول منذ بداياته محاكاة والده وتمثل مواقفه التي ظلّ مبهوراً بها حتى يومنا هذا .

ومن أجل اعطاء صورة حيّة عن مدى تأثيره بوالده يكفي ما نلاحظه عليه ، حينما يسمع شخصاً يتحدث عن أبيه أو يستشهد به ، فالاطراق المصحوب بالخشوع والتغير المفاجئ والتنهّدات التي يبعثها من أعماقه ، شواهد ملموسة وتعبير صادق عن تفاعله العميق مع شخصية الأب التي وجد نفسه تحت ظلالها فترة من الزمن متغذياً بارفع مستويات الخلق الروحي التي دأب والده على إعمالها في سلوكه وتجميدها لنفسه .



وأما من جهة الأم : فلاننسى أنها قد تركت أصداء عميقة في أغوار ضميره حيث مازالت ذاكرته تحتفظ بقسطٍ وافر من ذكرياته معها . والمهم فلقد أفاد البستاني منها شيئاً بالغاً في تعديل سلوكه وشحن ثقته بنفسه ، وعلى قول إحدى الشخصيات النجفية (ان احد أسرار موفقية البستاني يعود الى فاعلية أمه في التربية والسلوك) .

والجدير بالملاحظة : ان والدته من أسرة هاشمية تعرف بـ (آل السرابي) شغلت رجالها - مدةً من الزمن - مواقع هامة في ميدان الدرس الحوزوي حيث برز أكثر من شخص على المستوى العلمي الفائق منهم والدها (السيد حسين السرابي) وأخوها السيد علي ، وابنه (السيد محمد كاظم) فان كلاً من المشار اليهم ، يعد - في السجل الحوزوي - واحداً ممن أسهموا في مسار النشاط الفقهي والدرسي في جامعة النجف الامامي بالنجف الأشرف .

وسطه الاجتماعي :

تشكّل مدينة النجف الأشرف - بيئة البستاني - مركزاً مهماً من مراكز الاشعاع الفكري الضخمة في العالم الاسلامي قاطبة . كما تمثل - في الوقت نفسه - مختبراً جباراً وظيفته صنع النماذج الانسانية وفق أرفع مستوياتها وخلق الشخصيات الناضجة اسلامياً كيما تقوم بتأدية وظائفها الالهية في عملية تفعيل الفكر الاسلامي

وتصعيد الجانب الروحي من خلال توجيه الكائنات الآدمية نحو الأهداف التي رسمتها السماء لهم .

وهذا كله - فيما اعتقد - ليس بجديد ، فلقد كتب عن النجف الأشرف وعن أبعاد ووظائف مؤسساتها الدينية ما هو أعمق دلالة وأشمل مضموناً حتى بلغ رصيدها التقييمي من الكلمات والمؤلفات التي فصلت الحديث عن محتواها ما يمكننا وصفه - [المكتبة النجفية] .

بيد ثمة ما يقتادنا نحو هذه الزاوية من الحديث بالذات .

فالملاحظ ان هناك اسراراً ضخمة تغلف هذه البقعة المباركة وتميزها عن سائر المدن الحضارية الأخرى .

فامتدادها الزمني الحافل وخصوصيتها المكانية المقدسة مضافاً الى هويتها الثقافية الفاتكة ، عناصر تفرض اهميتها على الباحث وتمنحه فرصة التأمل العميق . فهي بالنتيجة - المفروغ منها سلفاً - ابعاد تلمح بوجود أصابع غيبية (نثرت خيرها على هذه الأرض المطهرة) فجعلتها مسرحاً لحركات الأنبياء ﷺ ومثوى للأرواح الخيرة لاسيما روح مولانا أمير المؤمنين عليه السلام الذي اكتسبت شهرتها ومكانتها فيما بعد منه سلام الله عليه .

من هنا بالذات نكتشف بسهولة أسباب الهجرة الهائلة من طلاب العلم عبر تلك القرون الممتدة الى هذه المدينة النائية . إذ ان الوافد الى النجف الأشرف - بمجرد وصوله - ينبثق في داخله شعور مدهش يث في روحه الأمن والهدوء بحيث يجعله متناسباً هو اجس الغربية وظروف الحياة الشاقة المحيطة بتلك المدينة ، فينطلق الوافد على سطح النجف وهو مشبع بالقدسية التي تنثال عليه من السماء ببركة مجاورته لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام . ليبدأ بحياة جديدة تتفجر فيها مواهبه وتتصاعد بها طاقاته الى مستوى يكاد لا يصدق من حيث التفاعل بين البعد المعرفي والبعد

الروحي اللذين يغلفان أسوار تلك المدينة المذكورة... وذلك قمة ما تتطلع اليه أعماق من تشدهم مع السماء روابط أو وشائج، يخبرها من عابش أجواء التجربة المشار اليها.

على أية حال: فإن الحياة بالنجف الأشرف كدح وكفاح وحركة دؤوبة باستمرارية مذهلة، فهي ملأى بالمؤسسات والنشاطات الثقافية التي يتنافس كوادرها فيما بينهم بغية ان تتقدم بالعطاء نحو المجتمع الانساني بعامة والمجتمع الاسلامي بصورة خاصة.

بديهياً: ان من ينمو في أحضان هذه الحاضرة الزاخرة بالمعرفة: الشخصيات العلمائية العملاقة ينشأ وكل امنيته في الحياة ان يكون واحداً من أولئك الافذاذ ممن تخلع مدينته عليهم أكاليل التقدير والاحترام، وطبيعياً أيضاً ان نلاحظ أثار تلك الحاضرة منعكسة بكل تفاصيلها على شخصيات أبنائها بقدر ما تحمل تلك الشخصيات من وعي وموهبة ذاتية.

في ضوء ما تقدم: فالبستاني وان تعددت وتنوعت مصادر ثقافته بحيث تجاوزت اطارها البيئي والاقليمي يبقى - حسب تصورنا - احدى افرازات النجف الكبرى بحيث لا يمكننا عزل أو تجاهل المناخ النجفي في بلورة وصياغة شخصيته بمستواها الحالي. خصوصاً جانبها العبادي الذي تعمق في ظلال تلك الاجواء الحافلة بالشخصيات التقوائية التي أسهمت في اثراء بيئة النجف عبر سلوكها العبادي المكمل بالدهشة والاثارة...

بكلمة عامة: فلقد كفانا البستاني مشقة الخوض في اثبات تأثره ببيئته من خلال كتاباته بالخصوص ذاته حيث أن نصوصاً قصيرة وعنوانات كثيرة من قبيل: [جامعة النجف الاسلامية، الدرس الفقهي في النجف...] (١)... وغير ذلك من المقدمات

التي صدر بها أجزاء موسوعة النجف الأشرف ، ما يتكفل بالافصاح عن حجم ونوعية فهمه لبيئته التي تحتفظ بتاريخ حاشد بالمعطيات .

وعيه وتفاعله الثقافي :

المُلاحظ ان عربة الفكر - عبر مسارها التاريخي الطويل - تشكّل حالة استثنائية في عملية تفاعلها الحضاري وانسجامها مع آليات المعرفة فهي تعيش من خلال مدلول انساني خاص ، تمخض - هو الآخر - عن نمطٍ له نكهته المتميزة .

والاستثنائية المشار اليها ، لا تقتصر على هاتين الاشارتين (التفاعل والانسجام) فحسب ، بل تعداهما لتصل الى محطات أبعد غوراً ، بحيث تتجسّد في كل مفردة من مفردات الحياة ...

ان استجابتها للاشياء ، تختلف مع نوعية استجابتنا عامة . ومن المؤكد ان انفتاحها مع القنوات المعرفيّة ، يتم عبر خصوصيات ذاتية حادة ، تعمل على استكنائه أو امتصاص (المعطى الحضاري) بنحوٍ يجعلها تقف على قمة التفرد من حيث التواصل والامتداد مع ما افرزته الحقول الانسانية من نظرات واسهامات خالدة .

على أية حال : ان التعامل مع ما يترشح به العقل المبدع من رؤى وإشارات ذات طبيعة ملحوظة على حركة وفلسفة وافراقات الانسان ... الى غير ذلك من الظواهر الوجودية الاخرى ، تمنح الفرد قابليات فائقة من النضج والابداع ، شريطة ان يتم له التفاعل الكامل مع ما يفتح عليه ، ولطالما اسفرت عمليات الانفتاح بنتائج ايجابية واضحة ، حيث اسهمت العلميات المذكورة بتشجيع المفاعيل المعرفية وانماء تجاربها الخاصة .

يعيننا مما تقدم : ان البستاني قد استظلّ بسقفٍ ضخمٍ من الثقافة والمعرفة الإنسانية والإسلامية ، حيث تفتح وعي القراءة عنده بنحو مكثف جداً ذلك بسبب

العامل الزمني وما صحبته من تحديات وتطلعات ثقافية ازدهمت بها خمسينيات القرن المنصرم وستينياته مما ضاعف من مسؤولية وهموم المسلم المثقف آنذاك ...

كما توفر على أسلوب من التعاطي الخاص مع منحنيات القراءة ... لذا تجدنا نعتقد - عبر قرائتنا العامة لنتاجاته المتنوعة - : أنه قد تمكن من التكيف الفاعل مع الاستثنائية المذكورة سلفاً ، وانفرد بمقعد مستقل في العربة المشار إليها . ومن جهة أخرى تجدنا نؤكد أيضاً على عملية انفتاحه العميق مع الثقافات الانسانية بشتى مستوياتها ومختلف تخومها سواء في ذلك الجانب الموروثي منها أو ما يصطلح عليه - (الحداثة) أو (الوافد) . بحيث لم يعش حالة الانكفاء مع الذات ، كما لم يكتف بالنتاجات الاقليمية في إشباع نهمته الفكرية الملحة ، بل امتد الى نتاجات الطرف الآخر عبر لغته مباشرة . وفي كتاباته ما يتكفل بتدعيم ما أشرنا اليه .

خذ على سبيل المثال : كتابه المعروف [في النظرية النقدية] إذ حاول فيه - ولا نودّ التبسط نظراً لأننا سوف نتطرق اليه عند حقله الخاص - ان يخطط لنظرية كاملة في مجالات النقد الأدبي من خلال مدارس واتجاهاته الحديثة ، وفيه يلاحظ ان هوامش الكتاب أو المصادر التي اعتمدها الباحث في دراسته قد كانت جميعها من اللغة الانجليزية بنحو قد رصد فيه لمجموعة من الكتاب الغربيين دون ان يتوكأ على ترجمتها للغته الاساسية [الأم] ويؤيد ذلك ان النقاد الذين تناولوا الكتاب المذكور ، قد أشادوا بثقافة واحاطة الباحث ، فضلاً عن اشادتهم بالنتائج التي انتهى اليها .

واما في حقل النفس والتربية والاجتماع والأدب ... الخ . ما يجعلك معترفاً بموسوعيته بنحو لا تجد للشك فيه من مجال ...

والواقع أنه مستكمل لجميع أدوات المعرفة ، موروثها وحديثها وهذا ما لم يتم إلا لأنفار معدودين ، خبرهم النخبة المثقفة في كل تفاصيل مكوناتهم وجزئيات تميزهم الملحوظ .

الفصل الثاني

مشروع أسلمة

العلوم الإنسانية

مشروع أسلمة العلوم الإنسانية

تعود فاعلية البحوث الإنسانية - بالنسبة الى الإسلاميين - الى جوانب متعددة الأهمية ، أبرزها : (مستلزمات المرحلة الملحة) ، الى جانب (تسجيل الحضور) كأصحاب هوية محددة أمام أفراسات المؤسسات العلمانية التي تحتفظ بوجهات فكرية - على صعيد المعرفة الانسانية - تتساق مع نسيجها الايدلوجي العام .

والملاحظ ان بلدان العالم الغربي أو ما يصطلح عليه بالعالم الأول ، قد اشتغلت بأسس ومبادئ العلوم الانسانية منذ فترة ليست بالقريبة ، إذ [نقطة البداية لا بد أن تكون عصر التنوير وفلاسفته الذين مهدوا بأفكارهم وآرائهم ونظراتهم الناقدة للحياة والمجتمع الأوروبي ، لقيام حركات التمرد الفكري والسياسي التي سادت القرن التاسع عشر]^(١) .

وهذا كله يشير : الى صدارة الطرف الآخر في الحقل المذكور ذلك لضخامة التجربة التي أسهم بها ، من خلال وفرة الانتاج وتنوعه المتمثل بجهود الباحثين الذين أحدثوا برفدهم التجريبي والتنظيري قفزات واسعة .

ويلاحظ أيضاً ، ان ثمة انكماشاً أو بالأحرى فراغاً حاداً يژشر بخواء معرفي واضح في القطاع أو الصف الاسلامي ، لا يتناسب البتة مع ما يتوفر عليه الاسلام من منظومة معرفية مشحونة بثروة هائلة من الفكر والابداع .

(١) عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ١٤٣ ، السنة ١٩٧١م ، عنوان البحث : (العلوم الإنسانية والصراع الأيدلوجي) للباحث أحمد أبو زيد .

حيث جاءت اهتمامات الإسلاميين عامة ، متأخرة بعض الشيء في مجالات التخطيط ورسم الاستراتيجيات البحثية في ميادين العلوم الإنسانية ، ومن الممكن أن نحدّد عقد الثمانينيات بأنه بداية العمل المركزي في هذه الميادين حيث انعقدت مؤتمرات عامة حضرتها كفاءات علمية في مختلف حقول المعرفة تقدّمت بصياغة مشروعات وإعداد برامج عمل مشتركة ومناقشة اشكاليات واسعة النطاق من خلال فتح ملفات هذا المشروع على أيادٍ تضطلع بممارسة هذه العلوم في مراكز أكاديمية مشهورة في العالم الغربي والإسلامي إلى جانب رموز إسلامية ضخمة ممّا أسهم في تعاضد الدراسات من الناحيتين الإنسانية والفقهية ومحاولة تكييف النتائج بصورتها النهائية مع تصوّر أو الحل الإسلامي أمام النظريات الوضعية المتعدّدة.

ومن أهمّ المؤتمرات التي تداعت لهذا الشأن : المؤتمر الذي عقد في إسلام آباد عام ١٩٨٢ وفي كوالالمبور عام ١٩٨٤ وفي الخرطوم عام ١٩٨٧ إلى جانب الكثير من الندوات التي عقدت لبحث أمور تفصيلية في الكثير من البلدان الإسلامية والغربية ، حيث نشطت العديد من المراكز المختصة في هذا الميدان أهمّها : المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة وفروعه في القاهرة ولندن وغيرهما ، والجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد ، والجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور ، ومعهد البحوث الإسلامية في ليستر في بريطانيا ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في كوالالمبور أيضاً ، والمؤسسات الثقافية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي (في جدّة واسطنبول).

من أجل ذلك : فإن العنوان أعلاه - مشروع أسلمة العلوم الانسانية - يقف بنا على محطة هامة ، لجهود باحث إسلامي ، حاول خلال مشروعه المعرفي ان يخطط لنظرية اسلامية مستقلة ، تستهدف التأسيس لرؤى صميمية حيال العلوم المشار إليها ، علم النفس ، اجتماع ، آداب ، ... الخ ؛ إذ اضطلع بدراستها والوقوف على اسسها ومنطلقاتها بمنهجية مبتكرة ، لعلّ البعض من الباحثين حاول أن يسجّل عليه

من خلال المنهجية ذاتها شيئاً من الخروج عن الأطر المألوفة في ميدان المناهج العلمية للمواد عامة حيث صدر الباحث عن ثوابت عقيدية خاصة قد لا تمثل بالضرورة مسوغات الوسط العام .

بيد انها خطوات موفقة إذ لم نعر على من يثير الغبار على نتائجها التي توصلت اليها بحيث رافقت طرائق البحث جميعاً دقته المتناهية في مناقشة الاتجاهات واستيعاب توجهاتها الرئيسية .

وحيادياً نقول : ان البستاني قد أثبت من خلال عملية استيحاء التراث وتمثله على قدرات الاسلام في معاشة الزمن وتلبية حاجة الانسان بشكل عام والمسلم المعاصر خاصة ، بالنحو الصائب والسوي وليس بما هو مؤقت في تشخيص المتطلبات .

والجدير بالتلميح : ان المجال الذي كتب به - كما هو معلوم لدى المتخصصين - مجال تصطدم به الآراء والنظريات ذات الاساليب الشائكة والحلول المطبوعة بالتشويش الناجم عن تفاوت الرؤى واضطرابها في تشخيص الحقائق التي لا تتيح الارساء على مرفأ يطمئن اليه . وذلك بسبب عزلتها العنيفة عن عالم السماء واتكائها على وحي الذات فحسب .

ومن الواضح ان التخطيط لنظرية على ضوء التصور الاسلامي ورصد نقاط الالتقاء مع الفكر العلماني الصائب في بعض الأحيان ، أو التأسيس لرؤى مبتكرة لم ينجح جملة من الباحثين الإسلاميين بالوصول الى مكتنزاتها وبمستوى فائق علمياً واسلامياً - يظل - في تذوقنا الشخصي - تجربة رائدة وخليفة بالبحث والاهتمام . خصوصاً أننا نعلم سلفاً بان المحاولة بكر في جميع منحياتها . إذ لم يتح لها ان تطلع على كتابات اسلامية مماثلة ترفدها بشيء من التجربة في مواصلة المسار بحيث تكون مستنداً لها . فالمؤسف ان معظم الكتابات الانسانية الصادرة في بلداننا الاسلامية تمثل اصداءً للاتجاهات - العلمانية عدا نماذج لم يتح لها ان تخطط لنظرية

متكاملة ، نظراً لعدم وقوفها على (نصوص شرعية) كافية . . . مما أدى بها أن تنحى منحىً توفيقياً يحاول أن يخضع بعض النظريات الإنسانية مع ما يتلائم والتوجه الإسلامي العام ولكن بشكل متعسف تتضح في ثناياها لمسات الطابع التكلّفي الواضح. وقد حاولت أكثر من معالجة إسلامية أن تؤسس لخطوات منهجية يعتمدها الباحثون الإسلاميون في حقول العلوم الإنسانية ، كيما يتاح لهم أن يتجاوزوا تلك المطبّات الملمح إليها سلفاً ، كما في الدراسة التي قدّمها عماد الدين الخليل والتي جاءت تحت عنوان: «مدخل إلى إسلامية المعرفة» ودراسة محمد عمارة الموسومة في «معالم المنهج الإسلامي» ودراسة محمد أمزيان التي جاءت تحت عنوان «منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعياريّة» ودراسة إسماعيل الفاروقي المعنونة «صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية» وإلى غير ذلك من الدراسات. والواقع ان الكتاب الإسلاميين ، أو أصحاب الرؤوس الثقافية الملزمة لم يتوفروا على رفد مسارات الفكر الانساني عبر نقد البنى والمرتكزات الأرضية ، بمادة علمية تتعلّق بمشروع الأسلمة ، كما لم يسهموا بوضوح في التشديد لاتجاه اسلامي مستقل حيال الحقول المعرفية ، إلّا في الفترة القريبة كما أسلفنا ، يُستثنى من هذه العمومية شخصيات معينة^(١). فان حالة الاستلاب والشعور بعظمة الرجل الآخر يشكّلان الصبغة الطاغية على أعمال النخبة المنتجة للثقافة والفكر. وكثيراً ما يرفع البعض منهم اشكاليات جوفاء لا تتساق مع الحقائق العلمية بشيء ذلك من قبيل رفض أو انكار أن تكون هناك علوم ذات عنوان اسلامي أي عدم تقبلهم لعنوان يحمل الصيغة

(١) كالشهيد المفكر محمد باقر الصدر بكتابه (فلسفتنا واقتصادنا) والعلامة باقر شريف القرشي في كتبه (نظام العمل في الاسلام ، نظام التربية في الاسلام ، النظام السياسي في الاسلام ، والادارة ونظام الحكم في الاسلام ، والشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه نظام الحكم والادارة في الاسلام) . والدكتور زهير الأعرجي في بحوثه الاجتماعية المتعددة ، أمثال : مباني النظرية الاجتماعية في الاسلام . . . إلى جانب كتاب الطليعة الإسلامية في هذا المجالات من الاخوة الباحثين في مصر التي انطلقت منها صرخات هذا المشروع. ولكن بالإشارات التي لاحظناها على منهجيتهم في التعامل مع حقول هذا المشروع.

الآتية مثلاً: [علم النفس الاسلامي ، الاجتماع الاسلامي ، التربية الاسلامية ... الخ] بدعوى ان الاسلامي يتوكل على غيره ؛ إذ ان المبادرة أو الامتياز ترجع للطرف الآخر أو بدعوى ان الاسلام لم يصنع نظرية علمية في هذه الميادين ، ... الخ .

ولا شك أنّ محاولة رصد مساجلات الناقدين (الناقضيين) تنصدم بأكداس هائلة من الأوراق البحثية التي توجّهت لدحض الباحثين الإسلاميين في حقول العلوم الإنسانية ، فمن غير الممكن أن نعرض لآرائهم جميعاً ، لذا سنكتفي بواحد من أهم الناقدين الذي تابع مسألة الأسلمة من خلال ورقة تقدّم بها إلى كتاب قضايا فكرية تحت عنوان (أسلمة المعرفة وجموح اللا عقلانية السياسية) كنموذج على الكتابات العلمانية علماً أنّ هناك انتقادات توجّهت إلى هذا المشروع حتّى من داخل دائرة الإسلاميين أنفسهم.

على أية حال يذهب الدكتور عزيز العظمة كاتب هذه الورقة إلى إلغاء أي دور فعلي يمكن أن يتوفّر في النتائج التي تهدف إلى أسلمة المعرفة متّهماً إياها بمحاولة نقل عناوين بعينها لا أكثر أو ممارسة لإرهاب سلطوي على ميادين المعرفة أو كما يفصح (... الشهوة الشاملة للسلطة على المعرفة وعلى المعارف انتاجاً ومحتوى وتداولاً ومؤسّسات)^(١).

ويتابع عملية نقده : (... يتبيّن ممّا سلف أنّ فكرة أسلمة المعرفة - أي إطلاق الصفة الإسلامية على معرفة الدنيا وجعل تأويلها شأنًا يستثني الخطاب العلماني والعقلاني وابتلاعها في جوف خطاب الإسلاميين - مشروع هيمنة تحمله قوى عربية محلية إضافة إلى قوى عالمية^(٢)).

وإذا استثنينا إشارة التطرّف والارهاب الفكري... وغير ذلك من التوصيفات التي

(١) الكتاب الثالث والرابع عشر - أكتوبر ١٩٩٣ قضايا فكرية ، ص ٤٠٧ - الصادرة في القاهرة.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٨.

يجيد استخدامها، فالعملية في تصوّره رجوع إلى الوراء وإلى أصول عمّرت مئات السنين فهي تعني عملية نكوص مزينة بمصطلح الصحوة التي يرفع شعارها الإسلاميون، يقول: «ولذا فإنّ واقع النكوص الأيديولوجي والاجتماعي إلى ماضٍ موهوم أو مؤوّل يوتوبيا في أحسن أحواله، هذا الواقع الذي يجمّد في لحظات نكوص محض تفضي إلى ارهاب المجتمع والدولة. إنّ واقع النكوص هذا ينظر إليه على أنّه «صحوة» لجوهر فار هو الإسلام الثابت والمتخيّل^(١).

وحيثما يقترب من دوائر منهجية الإسلاميين في مشروع الأسلمة، تتغيّر بعض الشيء لهجته التحليلية فيخلع على المجتمع الإسلامي لبوس الفهم الخلاصي للمعرفة الإسلامية وعلى البعدين الأستمولوجي والحضاري، الذي يعتمد التفسير النقائضي، ممّا يسهّل الطريق أمامه في عملية مهاجمته ودحضه من خلال مقدّمات تنزع إلى إجراءات تجريدية صرفة، «ومن نافل القول إنّ الفكر النقائضي ليس فكراً مفهوماً منضبطاً متسلسلاً، بل عملية عقلية تصنيفيّة هي الصورة البدائية لكلّ معرفة»^(٢).

واصلاً ذلك كلّ في جوهر المادة التي عقد بحثه من أجلها حيث يقول: «على ذلك تنصبّ مهمّة أسلمة المعرفة على خطابين نقائضيين: خطاب سجال، وخطاب إيجاب، يختصّ الأوّل بنقض المناهج العلمية العالمية لدراسة المجتمع والسياسة تحت عنوان الخصوصية ويقوم الثاني بفسر وقائع التاريخ والمجتمع في بوتقة تصوّر إسلامي سرى لاحقاً أنّ مآله الأجير لا يتعدّى إضافة التسمية الإسلامية على هذه الوقائع حتى تكون قادرة على مجانسة ما فيها...»^(٣).

من أجل ذلك كله: فإن الوقوف على ما قدمه [البستاني] عبر ممارسته المعرفية

(١) المصدر السابق: ٤٠٧.

(٢) و (٣) الكتاب الثالث والرابع عشر - أكتوبر ١٩٩٣ قضايا فكرية، ص ٤٠٩ - الصادرة في القاهرة.

في حقول التجربة الإنسانية يمثل مصدراً من مصادر البحث الاسلامي المعاصر فيما يعني ان لا غنى للباحثين الاسلاميين عنه ، فلقد قطع شوطاً طويلاً في ميدان (الاسلمة المعرفية) متحملاً قدراً كبيراً من أعباء التجربة ، حيث ترجع بدايات عمله الى ما يتجاوز العقد من الزمن وبوجه التحديد منذ بداية الثمانينيات (لا يفصح الدكتور البستاني - كما يقول أحد الكتاب - في مقدمات كتبه عما يكفي للكشف عن بدايات اهتمامه بموضوع « أسلمة المعرفة ») بيد أن متابعة بحوثه تكشف عن ان البداية ترافقت مع عمله في مشروع مجلة الفجر التي صدر منها في مدينة قم بضعة أعداد ثم توقفت. فقبل منتصف الثمانينات كتب بحوثه التي أرسى من خلالها ما أسماه بنظرية الالتزام في الأدب الاسلامي وعلم النفس الاسلامي فترة وجيزة ... صدر له (١٤٠٤هـ) كتاب بعنوان (دراسات في علم النفس الاسلامي ...) وقد ترافق اصدار هذا الكتاب مع اصدار كتاب اكتسب عنوان (الاسلام والفن) ثم جاء كتابه الأخير (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي)^(١).

وللمرة الثانية نقول : ان الممارسة المذكورة قد انطوت على نقاط حساسة جداً لسنا بصدد الإشارة إليها - فلها أماكنها الخاصة من هذه الدراسة - بقدر ما ينبغي أن نلمح على ما تحوم عليه . فالملاحظ ان الباحث قد سلط اضاءته المكثفة في الحقل النفسي من خلال كتابه المذكور [دراسات في علم النفس الاسلامي] كما تطرق الى معظم التيارات المعاصرة لعلم الاجتماع عبر كتابه الموسوم [الاسلام وعلم الاجتماع] واضعاً في قبال الآراء والنتائج الأرضية نصوصاً مستفادة من الشريعة الاسلامية تحمل الدلالات ذاتها ، كما ألمح الى اشارات مبتكرة تفردت بصوغها نصوص التشريع الاسلامي. ولم يكتف بذلك فحسب بل استشراف آفاقاً جديدة هي

(١) كيهان العربي مقالة (مراجعة) بعنوان (لبنة جديدة في مشروع الموسوعة الاسلامية) . ومما تجدر الإشارة إليه أن كتاب (الإسلام وعلم الاجتماع) وكتاب (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) قد صدرا بعد المقالة المذكورة.

في الواقع عناصر تعمل على تحريك الباحث عامة نحو مبادئ الشرع المقدس . وسوف نتطرق في موضوعات هذه الدراسة الى بعض النماذج من مقارناته واستنتاجاته بغية التدليل على ما ذكرناه .

وهنا يجدر بنا قبل التطرق الى حقول المعرفة التي تمَّ أسلمتها من قبل الباحث أن نقف قليلاً مع بدايات توجهه في كتاباته المذكورة ، نظراً لما ينطوي الحديث على جوانب ذات أهمّية تاريخية تتّصل بفهم الجانب الجوهري من مشروع الأسلمة نفسه .

علماً بأن معرفة ذلك قد جاء ضمن سؤالٍ طرحناه على الباحث مفاده :-
أسلمة العلوم الانسانية . مشروع يحتوي على عدة ضروب من المعرفة . كيف كانت البدايات ومتى تبلورت لديكم ؟

■ عندما اتجهت الى الكتابة الاسلامية وجدت ان الزمن الذي نعيش فيه يتطلب ان نواكبه من جانب وان نحقق به هويتنا الاسلامية من جانب آخر ، وتجيء العلوم الانسانية في مقدمة ضروب المعرفة التي يحتاج اليها الاسلام لتوصيل مبادئه الى الآخرين ومن هذه العلوم علم النفس والتربية والاجتماع .

طبيعياً : ثمة تساؤل يُثار : ان الاسلام لم يقدم نظرية علمية لأحد ضروب المعرفة ؟ فكيف يُنتخبُ عنوان علمي لهذه المعارف ؟

■ وجواباً على هذا السؤال ، أقول : إنّ الاسلام هو مجموعة توصيات متناثرة ، تُقال في سياق خاص . فالقرآن الكريم على سبيل المثال ، يطرح مئات الظواهر إلا ان كل ظاهرة أو أكثر يطرحها في سياق خاص ، قد يتطلبها الظرف الذي أُلقي به الوحي ، وقد يتطلبها الوضع الاسلامي بشكل عام وكذلك احاديث المعصومين عليه السلام فثمة حوار يتم بين المعصوم عليه السلام وأحد الرواة وثمة سؤال يطرح وثمة مناسبة تستدعي ان يُلقى الامام عليه السلام كلمة أو حديثاً الى الآخرين . ووظيفتنا نحن الاسلاميين

ان نلتقط هذه الاحاديث وان نبرمجها وان نصنفها ونبويبها ونرتبها بالترتيب الخاص على نحو ما نجده في الفقه مثلاً. فهذه الأبواب الفقهية التي نلقاها في الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والخمس والحج... الخ، لم تُطرح اسلامياً بهذه الصياغة بل طرحت بشكل أحاديث متناثرة فجاء الفقهاء ورتبوها وبرمجوها ومنهجوها بالشكل الذي نجده الآن. وهكذا بالنسبة إلى العلوم الإنسانية، فالاسلام لم يقدم نظرية خاصة في علم النفس أو نظرية خاصة في علم الاجتماع أو في التربية وانما هي مجموعة أحاديث كما قلّت ولذلك فان وظيفتنا - نحن الاسلاميين - ان نلتقط هذه الأحاديث ونحلّلها ونفسرها ثم نبرمجها على نحو ما نجده في العلوم الحديثة التي تخضع لمنهج خاص ولتبويب خاص ولحقول خاصة وهكذا.

من هنا وجدت ان الحاجة ملحة لهذا النوع من المعرفة لأن الفقه وأصوله وما يتصل بالدروس الحوزوية - والله الحمد - قد توفر عليها الآلاف من فقهاءنا إلا ان البحث الاجتماعي والنفسي لم يتح لكتابنا الاسلاميين ان يتوفروا عليه إلا بالسنوات الأخيرة ووجدت ان الحاجة - بالواقع - بخاصة الى علم النفس والاجتماع ملحة جداً لأسلمتها لأن المادة النفسية هي أساس للسلوك البشري على شتى مستوياته، وكذلك علم الاجتماع هو أساس السلوك الاجتماعي للبشر. وهذان النمطان من المعرفة يتخللان عصب الحياة جميعاً، لذلك فان التأكيد عليهما يظل من أهم العلوم الإنسانية التي ينبغي ان (تؤسلم) وهذا ما دفعني ان أكتب عن هذين العلمين بالشكل الذي رأيتموه^(١).

والمؤاخذة التي لا بدّ من تسجيلها على الباحث هي انعدامية وجود تعريف خاص لمشروع الأسلمة عند الباحث على عكس الباحثين الإسلاميين الآخرين. والواقع إنّ عملية تثبيت تعريف خاص لمشروع أسلمة المعرفة يبقى في تصوّري

(١) حوار خاص أجريته مع الدكتور البستاني - بتاريخ ١٤١٦ هـ.

مركزاً محفوظاً بعدة تحفظات ، فبالرغم من التقاء المعرفين في أهم أركان التعاريف التي تركز تأكيداً الجانب الديني - التوحيدي - في انتاجية هذه العلوم ، نجد أن نوعاً من عدم الوضوح يغلب على مقولات «المعرفين» في محاولة التوفيق بين الوضعي والديني ، حيث يُختزل المنجز الوضعي المشترك في تأسيس بناء المفهومية مدارس متشعبة الأصول والتوجهات ، بمقولات تكاد تفتح باباً واسعاً من الايرادات النقدية ، فإن عامة المعرفين الإسلاميين يرتكبون خطأً منهجياً فاضحاً حينما يضعون - عند عمدٍ أو غير عمد - مدارس العلوم الإنسانية كلها في خانة واحدة وينظرون إلى المسألة ككلٍ مشترك لا تمايز جوهري فيه مادام منطلقاً من دائرة الفلسفة اللاإلهية. ويمكن مراجعة أهم تلك التعاريف والوقوف على مفاداتها بنحوٍ مستوعب من خلال قراءة الدراسة المختصرة التي قدّمها الأستاذ الرفاعي المعنونة بـ «إسلامية المعرفة... مفهومها - مسارها»^١ فكأنما أدرك الباحث خطورة هذا الجانب فتملّص من الدخول في مضاعفات لينجو ببحوثه من منزلقات فكرية كثيرة لا تستوعب هذه الدراسة من الإشارة إليها.



الحقل النفسي

يمكن القول : بأنّ دراسات (البستاني) النفسية قد لاقت رواجاً يتناسب بعض الشيء مع ضخامة محتواها . فبمجرد ظهورها على مسرح الفكر وانتشارها بين أيدي المثقفين والمعنيين بالحقل النفسي خاصة أخذ الجميع يشعر بأهميتها ونوعية المعطى الذي تكتنزه . بحيث لم يتمّ على صدورهما إلاّ أيام قلائل حتى بادر أكثر من باحث بالتعليق والاشادة بكشوفاتها ونقاط الجدة التي قدمها صاحب البحث .

وبذلك أحس البستاني بالتجاوب والتأييد فازدادت سعرات تحفزه نحو أسهامات أخرى . وبالفعل تضاعفت نشاطاته بنحو ملموس حيث كانت بحوثه النفسية منحصرة بأحدى الدوريات الثقافية (مجلة الفجر) في باب خاص بها . وإذا بها تطل على القراء من خلال كتاب ضخّم تحت عنوان (دراسات في علم النفس الاسلامي) وفي بروز الكتاب المذكور حاز على سمة الحضور أو الامتياز إذ أخذ المعنيون بالحقل النفسي يتعاملون معه كصاحب اتجاه جديد ، نذكر من ذلك ما أشار اليه أحد الباحثين في أبرز دورية اسلامية تُعنى بأسلمة العلوم يقول الباحث المذكور : (ومن المحاولات التي بُذلت في الاتجاه الأخير تلك التي قام بها محمود البستاني « ١٩٨٨م » وفيها يحاول بناء علم نفس اسلامي على أساس شيعي)^(١) .

(١) مجلة المسلم المعاصر ، بحث للدكتور فؤاد أبو حطب ، ص ١٤٣ ، ٦٣٤ . سنة ١٤١٢هـ . وهو محاضرة أقيمت في ندوة علم النفس بالقاهرة ، ونشرت في المجلة المذكورة .

وأشدت شعوره بنجاح محاولته أكثرَ حينما أخذت أكثر من مؤسسة ثقافية - جامعية وحوزوية - بتطبيق مقترحات الكتاب على برنامجها الدراسي .

والحق ان ما قدمته الأبحاث المشار إليها ، يعدّ فتحاً جديداً ، فيما لو حاولنا مقارنتها مع كتابات الحقل النفسي الحديثة إذ يتضح ان شيئاً متميزاً يغلف المحاولة الأخيرة ، مما يجعل القارئ يتذوق نكهةً جديدة في المجال ذاته ، ربّما لا يتحسّس وجودها في الكتابات السابقة عليها . والسبب في ذلك ، يعود الى مصادر أستسقاء الباحث ، وبكلمة ثانية : القنوات التي شحن نفسه برؤاها ، وهي بطبيعة الحال نصوص التشريع الاسلامي بنمطها - الكتاب وأحاديث المعصومين عليه السلام بحيث جعل خطوط البحث تتسم بالوضوح والشمولية ، الى جانب اليقين العلمي الذي تفتقر اليه أغلبية الأبحاث النفسية .

يُضاف الى ذلك : ان الباحث ، لم يكتفِ بممارسته ، ان يثبت للآخرين ، بكون المنظومة الاسلامية ؛ تنطوي على جميع المؤشرات الايجابية المتوصل اليها في الحقل المذكور ، بل تجاوز ذلك ليدلّل على كنوزات الاسلام المعرفية في الحقل النفسي ، بحيث أسّس في محاولاته الناجحة لرؤى جديدة ، تعتمد في نتائجها على ما توفرت عليه النصوص الشرعية من دلالات صريحة في الحقل عينه . كما لم يعثر الباحث مهزماً في تجربته المشار اليها ، من خلال تطويع النصوص الشرعية وأخضاعها لاشياء ونظرات تتجافى مع واقعيتها بغية التدليل على عمليّة التوافق مع الطرف الآخر ، بل رفض ما لم يتماشى مع الواقع وما لم يجد له مسوغاً شرعياً ، وهذا ما أوضحه أحد مترجمي كتابه الى اللغة الفارسيّة (وهو عضو الهيئة العلمية في كلية الطب بالأهواز) حيث قال : (طرح في ميدان علم النفس مفهومات ومعاني ذات قيمة من جملتها : مفهوم الشهوة والعقل ، حيث شرح فيها الآلية [ميكانيزم] التي يصدر البشر من خلالها . وقد أوضح المؤلف في الفصل الثاني من الكتاب ، وجهة نظر الاسلام في ميدان مراحل النمو ، عند الأطفال حيث قدم من خلال أحاديث

الفقه الشيعي - بشجاعة تعبر عن التزامية الشخصية المسلمة - آراءً ونظريات تتميز عن نظريات علم النفس ، حيث يندر وجود قائلٍ بها ، مثل تقليده من أهمية مرحلة الطفولة في انعكاسها على مستقبل الشخصية ... الخ مما ينبغي ان يُدرس بدقة ، وفي الفصل الثالث ، قدم نظريات في حقل الأمراض النفسية ومعالجتها ، حيث تعدّ مطالعتها ضرورية لكل معالج نفسي . بخاصة التعريف الجديد الذي قدمه في هذا الميدان إذ لم يحصر الأمراض بما هو نفسي وجسمي فحسب ، بل جعل الانحراف العقائدي داخلاً في تعريف المرض^(١) .

منهجهُ في البحث النفسي :

ترتكز منهجيته الخاصة - في تناوله للمادة النفسية - على عناصر متعددة تتوافق مع عناصر البحث النفسي المؤلف حيناً وتختلف أحياناً أخرى ، مما أتاح لها فرصة البروز والذيق في وسطنا الثقافي . فعلى صعيد التوافق : يلاحظ ان الباحث يصدر في ممارسته من خلال الأدوات المؤلف وبنحوها العام مما لا يحد ضرورة في اجراء التحفظ في عملية [الأخذ أو الاقتفاء] في بعض الخطوط المنهجية للأرضيين - حسب تعبيره - بطبيعة الحال ثمة سياقات تفرض عليه بالتصريح أو المطالبة بضرورة التحفظ كما لو أصدمت بعض الأدوات مع المبادئ التشريعية .

كيف ما يكون : ان العنصر المهم الذي توفرت عليه - منهجيته في ضوء التقويم الاسلامي . هو ما يصطلح عليه بـ [التكيف الفقهي] بمعنى ان نتلمس انسجامية النتائج مع خطوط التشريع . وبكلمة أكثر دقة تكيف المعرفة فقهيّاً بسبب تلاحم الآراء أو الرؤى التي يتوصل اليها مع العنصر الفقهي بحيث يحصل التزاوج الطبيعي بينهما . وهذا ما يمنح الأعمال - أيّاً كانت حقولها - بُعداً قيّمياً فائقاً . لذا ان تقويمنا لأعمال (البستاني) يظلّ حائماً حول هذه الميزة بالذات . والسُرُّ في ذلك أننا ننطلق من زاوية

(١) اسلام وروان شناسي مقدمة المترجم (محمود هويشم) ، ص ١٧ .

إسلامية خالصة في جميع نشاطاتنا الحياتية ، مما يعني بالضرورة ان نتساوق مع (مبادئ السماء) ون تأطر بوجهة نظرها الخاصة .

لذلك فان العنصر المشار اليه يشكّل سمةً أو خصيصةً بارزة في تصنيف ومعرفة أكثرها تعبيراً عن الهوية الإسلامية. ولا نبالغ بالقول : فلقد نجح الباحث في عملية التأكيد على جميع الاشارات المذكورة . بحيث تمّ له الانصهار والتفاعل مع جميع مفردات السمة المتقدمة الذكر وبدرجة قصوى .

وسيتاح لنا التحدّث عن ذلك في عنوان آخر في تضاعيف هذه الدراسة .

ولا يأخذنا الاسترسال بعيداً : فان منهجيته مضافاً على تميزها بالعنصر المذكور تتحدد من خلال الومضات الآتية - وان كانت بصورة مقتضبة : [لا نجد أنفسنا ملزمين باصطناع طرائق البحث الأرضي في تناول (المادة النفسية) أو الوقوف عند الدائرة التي يحصر موضوعاته فيها بل يمكننا ان نتجاوز ذلك الى تخوم علم الاجتماع والفلسفة مثلاً أو نخترل بعض موضوعاته حيناً آخر والسّر في عدم التزامنا بمناهج البحث الأرضي هو ان البحث الأرضي منفصل عن السماء في تفسيره للعمليات النفسية وتنظيمها ، أنه يتسلّم الكائن الآدمي (بما انه موجود فعلاً) لا بما أنه كائن ابدعه السماء ... بحيث تكيف العمليات النفسية وفقاً للمهمة المذكورة^(١) .

الى جانب الومضات المتقدمة نجد ثمة تذوقاً بارزاً توفر عليه الباحث في معالجة المفاصل المتعارضة والمتضاربة أثناء مصادفته لبعض المحطات المعقدة . حيث ينشط التذوق المذكور في ردم الفجوات وتنظيم المسار البحثي ببراعة ممّا يفصح عن حسّ خبروي ضخم لا يُتاح إلا للقلّة من النخبة المتمرسّة في الحقل النفسي وميادينه البحثية .

أمّا من حيث منهجية الدراسات أو الكتاب بعامة ، فقد توزع على اربعة أبواب .

(١) الاسلام وعلم النفس ، الدكتور محمود البستاني ، ص ٨ ، طبعة مشهد ، ايران .

تناول في الباب الأول منه (الأصول النفسية للسلوك) وقد انشطر الى فصلين :

فصل حمل العنوان التالي (الأصول المحركة للسلوك) وفيه أبطل النظرية التي تدعى (بالنظرية الغريزية) حيث تذهب النظرية المشار اليها بـ (ان الكائن الآدمي يصدر عن مجموعة من [الغرائز] تدفعه الى الحركة والنشاط من نحو غريزة (البحث عن الطعام) (غريزة الاجتماع) (غريزة القتال) ... الخ ، هذه الغرائز قد تكون ذات أصل حيوي مثل البحث عن الطعام وقد تكون ذات أصل نفسي مثل (القتال) وفي الحالتين فان هذه (الغرائز) تشكل ارثاً فطرياً يحمل الآدميين على التحرك من خلالها ^(١).

بينما يرى الباحث ان البحث عن الأصول المحركة للسلوك [ينبغي في ضوء التصور الاسلامي] ألا تطرح من خلال (نظرية الغرائز) أو ما يضادها ، بل من خلال البحث عن أصل (عام) يسبق البحث عن الغرائز أو تصنيفها الى ما هو حيوي أو نفسي وهو ما نستهدف معالجته في هذا الحقل ... يقول الامام علي عليه السلام (ان الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة ، وركب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركب في بني آدم كليهما . فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم) .

ان هذا النص الاسلامي يحدّد لنا الأصل المحرك للسلوك من خلال سمة رئيسة تطبع (الأصل) المذكور وهي سمة الثنائية في هذا الأصل بمعنى ان هناك طرفين يتجاذبان الكائن الآدمي في بحثه عن اللذة واجتنابه عن الألم هما : (العقل والشهوة) أو الخير والشر أو الموضوعية والذاتية ^(٢).

كما يلمح الباحث بوجود أرث فطري يرثه الانسان يطلق عليه تسمية (الوعي أو

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي ، ص ١٠ ، الدكتور محمود البستاني .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(الادراك) يقول : [هذا الميراث القطري (من حيث البعد النفسي) يواكب ميراث قطري آخر من حيث البعد الادراكي] هو : (الوعي) بمبادئ الشهوة والعقل تقول الآية الكريمة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . ان إلهام الفجور والتقوى ، يعني : الادراك لمبادئ الشهوة والعقل .

واذن : كل من العنصر (الادراكي) و (الوجداني) من الشخصية قد صيغا وفق تركيب ثنائي قائم على وجود طرفين يتجاذبان الكائن الآدمي في بحثه عن اللذة والاجتناب عن الألم ^(١) .

طبيعياً ثمة ملاحظات طويلة يوردها الباحث على نظرية الغرائز والنظرية المضادة لها أيضاً لا مجال لذكرها .

هذا أهم ما يمكن تسجيله بالنسبة إلى الفصل الأول .

وأما الفصل الثاني : فقد تطرق الى « الأصول النفسية » بين الوراثة والبيئة حيث تناول أولاً (الأصول الذهنية) وبعدها (الأصول النفسية) ناقش في ذلك أهم المدارس الأرضية التي اضطلعت بالموضوع ، مثل : (الاتجاه الشرطي اتباع مدرسة بافلوف والاتجاه النفسي في الاتحاد المنهزم) حتى خلص الى هذه النتيجة : (بعامه فان التصور الاسلامي لعنصري (الوراثة) و (المحيط) يتمثل في : ان النوع الانساني يرث (اصلاً نفسياً) عاماً على مستوى الوراثة النقية لا يتميز من خلالها فرد عن آخر سواء أكان ذلك متصلاً بالمهارات الذهنية أو العمليات النفسية بعامه .

بيد ان هناك - والكلام للمؤلف - (وراثة طارئة) تُدرج ضمن شروط خاصة تتصل بالافراد أو الرهوط ، فيما تشكل (استثناءً) للقاعدة العامة . وخارجاً عن ذلك ، فان (التنشئة) تتكفل بتحديد النمط الذي تختطه الشخصية في ضوء (الأصل النفسي) الذي ترثه بـ (القوة) ، ونعني به قدرتها على (التميز) و (اختيار) النمط الملائم من السلوك) .

اما التصور الأرضي للظاهرة ، فقد توزعته شتى الاتجاهات بدءاً من الاتجاه النافي للبيئة ، مروراً بالاتجاه النافي للوراثة ، وأنتهاءً بالاتجاه المزاج بينهما حتى انتهى الى نسبة تقريبه هي ٦٢٪ تكاد تتمحض للوراثة قبالة ٣٨٪ للمحيط حسب بعض الدراسات المعاصرة^(١).

دخل بعد ذلك في (الباب الثاني) حيث تناول (الأصول النفسية ومراحل النمو) فكان الفصل الأول منه يبحث عن (المرحلة التمهيديّة) التي تُعالج مسألة (التحسين الوراثي والبيئي) فأعطى صورة دقيقة حدد من خلالها مراحل التحسين المذكور أولاً فكانت حسب تصنيف الباحث المستمد رؤيته من النصوص التشريعية ، خمس مراحل :

١ - مرحلة الانتقاء الزوجي .

٢ - مرحلة انعقاد النطفة .

٣ - مرحلة الحمل .

٤ - مرحلة النفاس .

٥ - مرحلة الرضاعة .

اتجه بعد ذلك الى (الفصل الثاني حيث حفل هذا الفصل بموضوعات هامة مثل : (مرحلة الطفولة المبكرة) و (مرحلة الطفولة المتأخرة) والمهم في هذين الحقلين ان الباحث بعد ان صرح بتوافق التصور الاسلامي مع بعض الخطوط الأرضية في تصوراتها للمراحل المذكورة وجزئيات كلّ منهما ، وجدناه يؤكد بوجهة نظر خاصة للتصور الاسلامي تميزه تماماً عن كل التصورات الأرضية مدعماً رأيه بأدلة مفصلة لا مجال لذكرها الآن ، وهي التأكيد على الطفولة المتأخرة من حيث انعكاساتها على الشخصية .

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي ، ص ٣٦ ، الدكتور محمود البستاني .

أضاف الباحث للفصلين المتقدمين فصلاً ثالثاً تناول به (المرحلة الراشدة) والمتمثلة بحقل مهم جداً ألا وهو (مرحلة المراهقة) .

يلاحظ ان الباحث قد أولى المرحلة المذكورة مزيداً من الأهتمام أيضاً ، حيث استغرق في بحثها وتحديد ملامحها منطلقاً في ذلك من خطورة الآثار المترتبة عليها في حالة عدم نجاح المرحلة الثانية من الطفولة ، الى جانب التشديدات الصادرة من قبل التشريع الاسلامي بخصوصها . كما قدم في نهاية الفصل توصيات حساسة الى المشتغلين في حقل التربية والتعليم . مضافاً الى توجيه أولياء الأمور - الأبوين - على بعض النقاط التي يفترض ان تراعى .

الى هنا نصل الى أعتاب (الباب الثالث) حيث تواجهنا فصول ثلاثة الأول منها تحدث فيه عن (التصنيفات المتنوعة للسلوك) من خلال عرضه للتصنيف الأرضي والتصنيف الاسلامي كعاداته في طرح المسائل ، مبيناً المفارقات العلمية التي سقط فيها البحث الأرضي . في حين يشمخ الجانب الاسلامي بتصوراته الصائبة . فيما تناول في (الفصل الثاني) سمات الشخصية ، مثل :

١ - السمات الذهنية .

٢ - السمات الداخلية أو المزاجية .

٣ - السمات الاجتماعية .

٤ - السمات الفكرية .

في حين تطرق في (الفصل الثالث) الى « الأصول النفسية والأمراض » . والشيء المهم في هذا الفصل هو اشارة الباحث الى ان ثمة مرضاً لم يتوصل علماء النفس الى كنهه فيما يشكل - باعتقاده - درجة عالية من الخطورة ذلك هو (المرض الفكري أو العقيدي) ويلاحظ من خلال المرض المذكور أن البحث قد أخضع التقسيم (المرضي) الى نوع جديد فصل الحديث عن وعما ينسجم منه .

كما أشار الى (ان التصور الاسلامي للمرض نشأة وعلاجاً ، يظل في - واحد من أنماطه - وهو (التفسير الوضعي) للمرض متوافقاً مع التفسير الذي أهتدى الأرضيون اليه مؤخراً مع افتراقه عن التفسير الأرضي في تصديه لظواهر لا زالت غائبة عن البحث الأرضي مثل العلاج بالنوم في أوقات خاصة على سبيل المثال ... بيد ان الاسلام لا يقف عند تخوم التفسير الوضعي للمرض (طالما يظل هذا التفسير منحصرأ في أسباب دنيوية صرفة) . بل يتجاوزه الى (التفسير العبادي) بصفته تفسيراً للحقيقة المطلقة لوجود الانسان على هذه الأرض)^(١).

بصورة عامة يظل الباب المذكور - بفصليه - نمطاً ملحوظاً في امكانية الباحث على استخلاص النتائج واستنطاق النصوص الاسلامية. فلا يخفى أن الباحث قدم أكثر من قائمة ينطوي تحتها تصانيف هامة يندرج في كل واحدة منها سمات السلوك السوي في قبالة السلوك المرضي أو الشاذ .

وأخيراً نصل الى (الباب الأخير) من الكتاب حيث تضمن الباب المشار اليه - بفصليه الضخمين - مجموعة من النظريات الأرضية ، في حين جهد بتأسيس نظريات جديدة تقف مع النظريات الاخرى موقف المجابهة والرفض مثل : (نظرية الانتماء الاجتماعي) حيث وضع قبالها (الانتماء الى الله) وكذلك أيضاً (التقدير الاجتماعي) وضع أمامها (التقدير الالهي) ويلاحظ ان الباحث في محاولة (التأسيس) المشار اليها لم ينكر فاعلية النظريات الأرضية في حدودها الطبيعية بل أكد على ان الشريعة المقدسة أعربت عن موقفها حيال الاهتمامات البارزة في مجال (التقدير أو الانتماء الاجتماعي) .

(بيد ان الفارق بين التصورين الأرضي والاسلامي لمفهوم الانتماء الاجتماعي)
يبدأ من تحديد نمط وحجم (الانتماء) أو (الحماية) التي توفرها الجماعة البشرية .

ان التوصيات الاسلامية تؤكد بان (السماء) هي المصدر الوحيد لـ (حماية) الكائن الآدمي ، وتؤكد بان الانسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً وتؤكد بأنه « اذا أراد أحدكم ان لا يسأل ربّه شيئاً إلّا اعطاه : فليأْس من الناس كلّهم ولا يكون له رجاء إلّا عند الله » .

ان اليأس عمّا عند الناس والرجاء حيال الله فحسب : يعني (الغاء) لمفهوم (الانتماء الاجتماعي) من حيث كونه مصدراً لتوفير (الحماية) النفسية والامنية . لكن ان الغاء مفهوم (الانتماء الاجتماعي) هنا لا يعني الغاء لمظهره الخارجي بل الغاء للفاعلية البشرية واستبدال ذلك بفاعلية (الانتماء الى الله تعالى)^(١) .

بقي ان نشير الى ان هناك مجموعة كبيرة من الموضوعات التي تطرق اليها في الباب نفسه ، والتي تمثل تفرداً بارزاً من حيث الطرح مثل : الحاجة الى التملك والحاجة الجمالية والحاجات الامنية والدوافع الحيوية وطرائق تنظيمها ... والاحلام وتقسيماتها ، وغير ذلك من المفردات التي لا غنى عن الوقوف على محتوياتها.

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .



الحقل الاجتماعي

كانت الخطوة الثالثة في مسار (موسوعة الفكر الاسلامي) التي نشط البستاني في تقديم أجزائها السابقة ، بغية التعريف بفكرنا المعاصر وابرار رؤاه الخاصة ، بحقول المعرفة الانسانية الحديثة ، هو كتابه الموسوم : [الاسلام وعلم الاجتماع] .

والكتاب - كسائر كُتبه - حافل بالجدة والرصد والتأطير بما يوافق وجهتنا الايدلوجيَّة ، حيث شحن فصوله الأربع بأهم تصورات المذاهب الاجتماعية الحديثة مع ترديف النظرات المطروحة بموقف الفكر الاسلامي ، من حيث التحفظ أو القبول أو التأسيس الذي ينفرد بجوانبه الحقل الاسلامي خاصة . ودون ان يلتجأ لتحميل النص الشرعي ما لا يستسيغه كما حدث لبعض الباحثين في مجال أسلمة المعرفة عامة بسبب عدم اطلاعهم على نصوص قادة التشريع الاسلامي ، المتمثلة في شخصيات الأئمة المعصومين عليهم السلام حيث توفرت نصوصهم الشريفة على قواعد ونظرات معرفية يمكن من خلالها أن يؤسس الباحث الاسلامي مذهباً أو اتجاهاً مستقلاً ، في كل فرع من فروع المعرفة الانسانية . فهناك زخماً هائلاً من النصوص المنطوية على أبعاد شمولية ، طرحها المعصوم عليه السلام بشكل يحتفظ بحيويتها ومواصلة الافادة من مكنناتها عبر تقدم الزمن وتفتح الوعي على مجالات المعرفة الحديثة .

على أية حال : فان معلومات سريعة تحدد مسارات علم الاجتماع بنمطيه الموروث والمعاصر ، من قبيل اليمين التقليدي واليسار التقليدي وما تفرع عنهما من تيارات نقدية برزت من أجواء الاتجاهين المذكورين ، فيما أطلق عليه الباحث

بـ (اليمين الجديد) متمثلاً بـ (الوجودية) و (الظاهراتية) و (العنثية) و (الرمزية) وكذلك ما أسماه بـ (اليسار الجديد) الذي تبلور بوضوح في أواخر الستينات مع ظهور ما يسمى بـ (ثورة الطلاب) التي واکبها علماء الاجتماع اليساريون . (هذا فضلاً عما نتوقعه من بلورة اتجاهات جديدة شهدها العقد الأخير (١٩٧٩ - ١٩٩٠) مع بروز (التغير الاجتماعي) الذي فرضته (الصحة الإسلامية) في أوائل العقد ومع بروز التغير الاجتماعي الذي فرضته (البيرسترويكا) في اخريات هذا العقد فيما استتبع التغير الأول (الصحة الإسلامية) بروز (الاسلام) بصفته موقفاً فلسفياً من الكون والمجتمع والانسان فارضاً فاعليته على المجتمعات الدولية ، وفيما استتبع التغير الآخر (البيرسترويكا) إعادة النظر أساساً في الاسس الماركسية في شتى تغيراتها التي شهدتها العقود الماضية ...)^(١) .

أقول ان ذلك كله تجده تحت عنوان : (خارطة علم الاجتماع المعاصر) الذي ينتظم تحت لائحة الفصل الأول (علم الاجتماع) وقضاياه .

فيما تجد في الفصل نفسه موضوعات أساسية في الحقل الاجتماعي مثل : علم الاجتماع والالتزام ، وماهية علم الاجتماع حيث انتهى الباحث بتعريف جديد بالرغم من صعوبة تحديد تعريف معين نظراً لتفاوت البنى الفكرية بين باحث وآخر . (يمكن أن نعرف علم الاجتماع بأنه : « دراسة الحياة المشتركة بين الناس ») .

وكذلك تجده قد تناول في نفس الفصل موضوعين هامين هما : عنصري الظواهر والعلاقات حيث تطرق لموضوعات كل منهما موضعاً أساليب المعالجة وفق التصورين البشري والإسلامي ...

دخل بعد ذلك في موضوعات الفصل الثاني الذي رفع لافته (علم الاجتماع والحياة المشتركة) مثل : مبدأ التعايش ، مبادئ التوازن الاجتماعي ، المسؤولية

(١) الإسلام وعلم الاجتماع ، ص ٨ ، الدكتور محمود البستاني .

الاجتماعية ، المسؤولية والضبط الاجتماعي ، التكيف الجزائي للمجتمعات . انتهى بعد ذلك الى تقديم وجهة نظر اسلامية حيال المبادئ المشار اليها . فيما تناول بعد ذلك ابرز الفصول الأربع من حيث غزارة الموضوعات وعمقها اطلاقاً . وهو الفصل الثالث الذي تصدرت لائحته بـ [الأفعال المشتركة] يقول الباحث في معرض التمهيد لمنطلقات تحركه في الفصل المشار اليه : (القيم أو المبادئ الاجتماعية التي عرضنا لها : - المقصود هو المفهومات التي تناولها الباحث ضمن لائحة الفصل الثاني - إسلامياً وأرضياً ، تجسّد - كما رأينا - عنصراً له فاعليته الرئيسة في تحديد حجم (التوازن الاجتماعي) ، .. بيد أن التوازن الاجتماعي لا يصبح (ممكناً) إلا بقدر خضوعه لأفعال أو عمليات اجتماعية يتفاعل الناس من خلالها في آليات خاصة من السلوك ، وفي مقدمتها : عملية (التعاون) فيما بينهم ، أو عملية (الصراع) مع القيم المنحرفة ، أو (التنافس) المفضي الى أهداف مشتركة أو (التكيف) مع بيئات تتطلب تنازلاً عن الذات ، أو تمثيلاً وتوحداً مع بيئة جديدة ، أو (الانسحاب) أساساً من ميدان التفاعل : حفاظاً على قيمة ايجابية ... الخ) .

هذه العمليات الايجابية تقابلها - بطبيعة الحال - عمليات سلبية تفرضها نزغات الشيطان أو الجهل تبعاً لذاتية البشر وعدوانيتهم من جانب وقصورهم المعرفي من جانب آخر ، فيما يستتبع مثل هذا السلوك تفاعلات مفضية الى التفكك الاجتماعي ، ... وفي الحالين ، فإن عمليات وأفعالاً من نحو : التعاون ، التنافس ، الصراع ، التكيف ، الانسحاب : بمستواها الايجابي والسلبي تظل فارضة فاعليتها في الحياة المشتركة بين الناس ، مما يتعين على الباحث الاجتماعي طرحها في ميدان الدراسة ، والانتهاء من ذلك الى تحديد القيم الايجابية المفضية الى تحقيق التوازن : وتحديد القيم السلبية المفضية الى التفكك الاجتماعي ، ذلك من خلال المقارنة بين التصورين الأرضي والاسلامي ^(١) .

(١) الاسلام وعلم الاجتماع ، ص ١٢٥ ، الدكتور محمود البستاني .

ينتهي الباحث بعد ذلك الى موضوعات الفصل الرابع وهو آخر فصول الكتاب .
يحمل الفصل المذكور عنوان : (تنظيم الحياة المشتركة) وفيه يتوفر الباحث على تقديم نظرات متنوعة بالنسبة الى كل ما يدخل ضمن هيكلية الحياة ، وطرائق تنظيم مؤسساتها عامة ، من قبيل : (العلاقات الخاصة) التي يندرج ضمنها مجموعة من الروابط مثل : الأسرة ، الأصدقاء ... الخ .

فيما يتطرق في الفصل عينه ، الى (العلاقات الثقافية) والتي تتضمن أيضاً اشكالات اجتماعية متعددة مثل : (جماعة المجلس - الدرس - الذكر) العلاقات الشعائرية ، العلاقات النفعية ...

يتناول بعدها موضوعات حساسة جداً أمثال : (المؤسسة الاقتصادية) و (المؤسسة السياسية (الدولة) من حيث التنظيم ، من حيث الوظائف ، العلاقات المتبادلة بين الدولة ورعاياها ، العلاقات الخارجية ، العلاقات مع الاقليات ...) .
يقول الباحث بعد تقديم وجهات نظر العلماء الاجتماعيين في ظاهرة الدولة ومشروعيتها قيامها ...

(إسلامياً : لا ترديد في أن مهمة الانبياء ﷺ منذ أول تجربة في الأرض ، متمثلة في آدم عليه السلام وخلفائه وانتهاءً بنبوته محمد ﷺ واستمراريتها ، ... هذه المهمة قد اقترنت بقضايا (التنظيم) لمختلف السلوك البشري بشكل أو بآخر ... ، ولا ادل على ذلك من ملاحظة (حكومة النبي ﷺ حيث جسدت مفهوم (الدولة) و (وظائفها) بجلاء في شتى الميادين : سياسياً ، وإدارياً ، وعسكرياً ، واقتصادياً ... الخ ، كما ان التوصيات تؤكد قيام (الدولة) بشكل أو بآخر تحقيقاً للأهداف التي تمت الاشارة اليها ... كل ما في الأمر ان التصور الاسلامي لـ (الدولة) يتميز عن التصور الأرضي لها ، بكونه ينطلق من مبادئ عبادية لا بد من مراعاتها : انسجاماً مع سائر المؤسسات الاجتماعية التي تنظمها المبادئ المشار اليها ...)^(١) .

(١) الاسلام وعلم الاجتماع ، ص ٢٢٠ ، الدكتور محمود البستاني .

والجدير بالذكر: ان الباحث قد تناول في حديثه عن الدولة الاسلامية ... موضوعاً أو جانباً مهماً بالنسبة لـ (مشروعية الدولة) حيث تفاوتت وجهات نظر الاسلاميين في تحديد الاشكالية ذاتها . يقول الباحث :

(أما اسلامياً ، فان التشريع يظل منحصرأ في مبادئ الله تعالى أي لا وجود لنخبة (مشرعة) بل لنخبة تقوم بعملية (توصيل) لمبادئ الله تعالى ، متمثلة في المعصوم عليه السلام وهذه الولاية أو النيابة تنحصر مهمتها في توضيح المبادئ من خلال اجتهاداتهم المنتقاة من النصوص الاسلامية وهي نصوص أو تشريعات أو مبادئ (ثابتة) من قبل الله تعالى ، مع ملاحظة أنها تنطوي على (حيوية) بحيث تتناول ما هو مستحدث من الظواهر التي تفرضها عمليات (التغيير الاجتماعي) ... لذلك)^(١) .

لكن : يلاحظ على الباحث ، ان كثيراً من المفهومات التي تحدث عنها ، قد تناولها بصورة مختزلة جداً بحيث لا تعطي تصوراً كافياً للمتلقي في عملية فهم الاشكاليات واستيعاب منحنياتها .

فعلى سبيل المثال : توجد الكثير من الجدليات التي تطرق اليها بخاصة جدلية [الفقيه] وحدود صلاحية [سلطنته التشريعية] وغير ذلك من الأمور بالنحو الذي لا ينطوي الموقف الاختزالي على أي مؤشر إيجابي .

كما ان الباحث لم يقف مع الباحثين الاسلاميين - ممن أسهموا في الحقل الاجتماعي - موقف الاشادة أو التثمين أو على أقل التقادير موقف الإشارة الى أعمالهم - بدءاً من [ابن خلدون] وحتى المعاصرين ... وهذا - باعتقادي - نوع من الافشاء .



الحقل الأدبي

النظرية الأدبية :

ليس ثمة من شك في ما تشهده الخارطة الأدبية المعاصرة من زخم تنظيري ووفرة انتاجية كبيرة أثر تطورات نوعية قد تمت بسرعة قصوى ، مما استتلى الوضع ذاته ايقاد صراعات واسعة بين الأطراف المتوزع فيما بينهم بطاقات الحضور .

تغذي الأطراف جميعاً (ايدولوجيات) تتقاطع بعضها مع البعض الآخر في طبيعة الأهداف والمرتكزات ، الأمر الذي أدى إلى تأرجح الرؤى وتفشي حالات فكرية غامضة مصحوبة بارهاقات عصبية حادة بالنسبة للمعنيين بقضايا الأدب ومداخلاته .

فما أن تبرز على السطح مدرسة أدبية جديدة وتبدئ للجميع معالم التوبة والجدة فيها ... لتفاجئ الوسط العام بما هو أحدث وأعرق منها معلنة عن موت السابقة ومجتذبة الانظار نحو مكامن الاثارة والابتكار التي تستبطنها معطياتها الحديثة باطراد مستمر. ومثالاً على الواقع المعاش فان (البنيوية) التي وقفت لمدة طويلة في العشرين الأخيرين كماردٍ جبارٍ على الساحة الفكرية والأدبية معاً جاءها (ديريدا) على حين فجأة معلناً عن موتها ومشيداً في الوقت نفسه (اتجاه ما بعد البنيوية) أو ما يصطلح عليه بـ (التفكيكية).

ان الفكر الاسلامي الذي تطرحه قطاعات ومؤسسات اجتماعية ودولية متعددة

بدلاً عن الافرازات المقابلة لم يولِ الحقل الأدبي ما يستحقه من الاهتمامات التي تتناسب وخطورة فاعليته إذ يلاحظ ان غياباً واضحاً لجناح لا تستقيم بدونه الحركات الفكرية في عمليات التغير الواعية . بل ان نوعاً من القحط الثقافي يمتد بكاهله على رقعة واسعة من نشاطات الاسلاميين في الصعيد المذكور .

ويخرج من العمومية السالفة ولادات معاصرة لبعض الأعمال ذات الطابع الاسلامي ، لكن في اطار جزئي ومحدود دون أن تمتد الى نطاقات التنظير والتخطيط الذي يماثل الصراع الموجود .

من هنا ينبغي الاشادة بما قدمته شخصيتنا المتحدث عنها في الحقل المشار اليه ، كما تبرز قيمة ونوعية أعمالها في المضمار نفسه .

ولا نذهب بعيداً : فان اضاءة سريعة نحو أعماله ذاتها تكشف عن مديات رصده وتعمقه في متغيرات المدارس الحديثة الى جانب نوعية أبحاثه التي صرف لها جهداً كبيراً .

والواقع ان نشاطاته في أسلمة النظرية الأدبية تنشط الى قسمين :

الأول : نظري تخطيطي وذلك ما اضطلع به كتابه الموسوم (الاسلام والفن) وبه يحاول أن يرسم الخطوط العامة للأدب والفن وبالرغم من أن الكتاب قد جاء مختزلاً في موضوعاته إلا أنه ينطوي على مضمونات ومفاهيم أساسية في عملية التأسيس في مجالات النظرية الأدبية حسب التصور الاسلامي لها .

وعلى سبيل المثال : فانه قد تناول مفهوم الالتزام الذي سوف نعرض له بعد قليل كما تحدث عن عناصر الفن أو العمل الأدبي مثل : العاطفة ، التخيل ، الصورة ، الايقاع ، البناء . مثل ما تناول الاشكال الفنية من قبيل :

الشعر والقصة والمسرحية ... وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالجانب نفسه . وبما أننا سوف نتطرق لهذه التفاصيل في حديثنا عن الجانب التطبيقي الذي توفر

عليه الباحث . نكتفي هنا بذكر بعض العناصر من قبيل :

العاطفة : فلقد ذكر من خصوصيات العنصر العاطفي أموراً ملفتة للغاية ومواقف التصعيد العاطفي سواء الإيجابي والسلبي كما بين مواطن تحفظ الوجهة الإسلامية لبعض أنواع التفعيل العاطفي منطلقاً في تأييد الرؤية الشرعية حيال العاطفة من خلال الزاوية النفسية ونتائجها التي لا تقبل التشكيك^(١).

بعد ذلك انتقل بالحديث عن وظيفة العنصر العاطفي في الاعمال الأدبية ومقدار ما ينبغي استخدامه فيه ، يقول :

(بيد ان ثمة فرقاً بين مطلق التعبير العاطفي - كما قلنا - وبين المبالغة فيه ، فالعاطفة مادامت تشكل أحد وجهي الاستجابة (الفكر والعاطفة) حينئذٍ لا بد أن تأخذ نصيبها من العمل الفني أيضاً ، مع ملاحظة أن أدواته من (تخيل) و (إيقاع) ونحوهما تساهم في التصعيد العاطفي : إلا أنه في نطاق محدد ... ، وبكلمة جديدة : إذا كان المشرع الإسلامي يسمح - على سبيل المثال - بالتصعيد العاطفي في مواقف خاصة مثل عاطفة الأم حيال طفلها الصغير أو عاطفة الجندي في ساحة المعركة أو عاطفة الشخص حيال قريبه ، فإن (العمل الفني) يعدّ واحداً من هذه المواقف التي يتصاعد من خلاله العنصر العاطفي لاحتوائه إثارة خاصة عند المتلقي ... فنقل الفنان لأحد مشاهد الطبيعة الجميلة ، أو لاحدى المعارك العسكرية أو التثمين لأحدى شخصيات المعصومين عليه السلام مثلاً ، عندما يقترن بالتصعيد العاطفي لها ، حينئذٍ يكتسب صفة المشروعية دون أدنى شك لأن التصعيد المذكور يجعل التواصل مع الله تعالى من خلال مشاهد الطبيعة أو المعارك الإسلامية أو شخصيات المعصومين عليه السلام أشد حجماً من الاستجابة العادية ... وثمة فرق بين التصعيد العاطفي وبين المبالغة أو التورم ، فالأول تفرضه حقائق الواقع

(١) حيث يلقي الباحث بان سمة المبالغة تظل مطبوعة - في اللغة النفسية - سمة المرض والشذوذ .

والآخر يتسبب عن شذوذ أو مرض ، كما قلنا ^(١) .

وأما الثاني : فهو تطبيقي عملي وقد تكفل بموضوعاته كتابه المعنون بـ (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي) .

لا يخفى - وان كان في القول شيء من التكرار - ان الباحث يمتلك رصيذاً خبروياً عالياً في المجال ذاته وهو حصيلة ما يزيد على ثلاثة عقود من البحث والتدريس والتفرغ المشهود به عند ذوي الاختصاص كما سوف يتبين لاحقاً .

وهذه إحدى النقاط التي تؤخذ بنظر الاعتبار في عملية التقويم دون أدنى شك . وكيف ما يكون : الكتاب الذي بصدد قرائته أو التعريف به يطفح بظواهر ايجابية متعددة وكلها تستحق الدارس بالوقوف ازاءها . بيد من الممكن أن نختزل الظواهر جميعاً ضمن فرزها على ملمحين مهمين ، بحيث تغطي بذلك غالبية السمات التي يكتنزها الكتاب .

الأول : الملمع الفكري : وهو محاولة لتطبيق (نظرية الالتزام) بكافة مستوياتها على تخوم العمل الأدبي الذي تتقاذفه تيارات غير خاضعة البتة لأهداف المنظومات القيمية والأخلاقية التي تمثل الممارسة الأدبية - حسب التطور الأخلاقي - إحدى وظائفها المؤثرة .

ومفهوم الالتزام عند البستاني يتوسع بدلالاته واغراضه ليضم أبعاداً عبادية عميقة ... فيلاحظ أن المفهوم الذي يسعى الباحث الى تطبيقه يعيش تضخماً نوعياً لم نألفه عند الآخرين ممن سعوا كذلك الى تطبيق مفهوم الالتزام إذ أننا نجد أن ما يعنيه الغالب ، يتسم بنظرة أحادية الجانب بحيث تتحدد برؤى تحوم على موضوعات جزئية من قبيل : حرية الذات المنتجة وحجم الانفتاح على الطرف

الآخر... الخ . دون أن تففز بالممارسات الأدبية نحو معطياتها العبادية من حيث تجسّد عملية التلاحم بين العناصر الروحية والذوات المبدعة عبر ومضات سحرية تتجلّى بها جاذبية المبادئ الموشاة بجمالية الفنّ الالهي الأصيل .

ان الباحث في خطوط منهجه العام يحاول جهد الامكان ابراز النماذج الايجابية من تراثيات الأدب العربي فيما يحاول من جانب آخر نقد النماذج المنحرفة وتحليل سلبياتها الفكرية من وجهة نظر اسلامية وانسانية مبتعداً عن الانماط المألوفة التي تخضع النصوص الأدبية حسب المنهج السياسي المتبع حيث يدرس مؤرخو الأدب التراث الأدبي من خلال تدرج المؤسسات السلطوية المنحرفة فتضيع نتيجة ذلك اسماء عظيمة بسبب معارضتها للمؤسسات المذكورة ... وكما حدث بالفعل لشعراء عرفوا بانتمائهم لأهل البيت (عليه السلام) .

والأهم من ذلك كله : ان عناية كبيرة يبذلها الباحث في اعطاء الأدب التشريعي مكانته اللائقة به كتاباً وسنة حيث تطالعنا عنوانات لعصور أدبية جديدة تحقّب التاريخ الأدبي وفق تسلسل الشخصيات المعصومة خلافاً لما هو موجود من قبيل (أدب القرآن ... الأدب النبوي ... أدب المعصومين (عليه السلام)) وكما أشرنا حسب التسلسل الزمني الى جانب التلميح بالأدب البشري الذي يصطلح عليه المؤلف بـ (الأدب العام) مع دراسة أدب ما قبل الاسلام بنحو موضوعي يكاد أن ينفرد بتحليلاته التي قدمها عن العصر المشار اليه وبالأخص الزاوية التي حاول أن يربط من خلالها بين (أغراض الشعر الجاهلي أو موضوعاته) وبين طبيعة الحياة المنحرفة وقتئذ .

ويتابع الباحث عصور ما بعد الأئمة (عليه السلام) الذين تتوزع فصول الكتاب عليهم ليصل بنا الى العصور المصطلح عليها بـ (العصور المظلمة) موضحاً لعوامل انحطاط الحياة الأدبية التي لم يلحظ فيها أي عمليات ابداع وجدة ومعللاً لبروز الظواهر التي عُرفت بها العصور نفسها من صناعات لفظية ممجوجة وغير مستساغة .

فيما ينتهي بعد ذلك بعصر (النهضة الحديثة) راصداً جميع التطورات الاجتماعية والأحداث السياسية التي انعكست على الأدب بصورة عامة .

ولا ننسى ان الباحث من زاوية مفهومه الالتزامي أو الأخلاقي يشجب بعض الانواع الأدبية التي تزدهم بها المصنفات المختصة بذلك من قبيل : الغزل ، الهجاء ، الفخر الذاتي ... الخ .

حيث يقول : (انه من المؤسف جداً أن نلاحظ أن أدب الجنس والخمر والغناء واللهو بعامه ، مضافاً الى الأدب الزائف (مدح الملوك والوزراء ... الخ) والأدب العدواني (الهجاء الذاتي ... وليس الموضوعي) والأدب الذاتي (الفخر ...) هذه الانماط من الأدب السلبي تغطي خارطة النتاج المكتوب باللغة العربية (وغالبية الآداب الأجنبية أيضاً) في مطلق العصور ... أمثلة هذا الأدب هي جزء من الانحراف الاجتماعي الذي لا يزال علماء الاجتماع والنفس والتربية الأرضيون أنفسهم يجهدون في تشخيصه وعلاجه لتحقيق التوازن الفردي والاجتماعي ... ومع ذلك نجد : أن المعنيين بشؤون الأدب يؤرّخون لأمثلة هذا النتاج المنحرف بحجة « الموضوعية في البحث » وبحجة أنه (فن) يحقق الاشباع للحاجات (الجمالية) لدى البشر : علماً بأن أبسط مبادئ المعرفة تُقرر بأن الحاجات البشرية ينبغي أن تحقق من خلال الطرائق السوية للاشباع وليس من خلال الاشباع المنحرف ... الخ ، لقد حاولت دراستنا السريعة لتاريخ الأدب أن تتجنب هذه المزالق التي وقع فيها مؤرخو الأدب واضعين بنظر الاعتبار أن التاريخ أو التراث ينبغي أن نفيده منه في « الحاضر » مستهدين - في ذلك - بخطى القرآن الكريم الذي يُورّخ للماضين وقصصهم باعتبار ذلك (عبرة وعظة) (لقد كان في قصصهم عبرة ...) وليس لمجرد الامتاع والتسلية واللهو ^(١) .

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، الدكتور محمود البستاني ، ص ٦٠ .

ويعجبني هنا أن أستشهد بأحد النصوص التقويمية عن الكتاب نفسه ، لأزيد من اضاءة الجانب المتطرق اليه ؛ يقول أحد الباحثين في تناوله لكتابه المذكور : (يحاول الدكتور محمود البستاني في كتابه تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي تقديم رؤية أخلاقية دينية تنصف النماذج الأدبية التي لحقها حيف من قبل الدارسين الآخرين ... وإذا كان مؤرخو الأدب العربي قد وزعوه الى حقب بحسب قيام الدول وتعاقب الحكام فإن التجديد الذي يقدمه المؤلف هو في توزيع ذلك وفق منظور ديني ومذهبي يبدأ من حياة النبي ﷺ وينتهي في حياة آخر الأئمة في اعتقاد الشيعة الاثنا عشرية ويلاحظ صلتهم بعصرهم خصوصاً على الصعيد السياسي وتأثير أدبهم في رجالات العصر من شعراء وكتاب) . ويساعد هذا التحقيب المبتدع على تتبع مظاهر الاستمرارية في حركة الأدب رغم تبدل الدول ... ويضيف الناقد الذي حاول قراءة الكتاب : (إذا كان هناك أدب سلطاني محله مجالس الأمراء ومجاله المديح وتنطق فقراته بالبشائر والتهاني فإن هنا استبدالاً له بأدب إيماني موضوعه العقيدة والأخلاق الاسلامية والتزام القدوة الحسنة والمأثور من كلام النبوة والعترة الطاهرة ... كما أنه يلتزم مفهوماً تطهيرياً صارماً .

وبحوث الكتاب ينتظمها نفس إيماني تشيع فيه معاني الحكمة الراقية والاشواق الالهية والتعليمات السامية) (١) .



الثاني : تظل الاداة الفنية أشد أدوات الباحث تألقاً في ممارساته قاطبة . حيث تنبدي من خلالها مهارته التي ترتفع به لتجعله في قائمة الاسماء المحدودة على صعيد الحقل الأدبي المعاصر .

ان مجموعة (رؤاه) الفنية قد تكفل بطرح نقاطها الأساسية كتابه المتقدم

(الاسلام والفن) حيث ألمح هناك عن طبيعة الطرائق المعتمد عليها في عملية الصياغة الفنية وكيفية تحقيق (عنصر الاثارة في القارئ) كما أوضح للدارس أنماط الاستجابة عند المتلقي (من حيث بناؤه النفسي) وما ينطوي عليه من دقائق حساسة والأمر الذي نطمح بالإشارة اليه هو الجانب التطبيقي للبعد الفني وذلك ما توفر عليه كتابه الموسوم (تاريخ الأدب العربي) علماً بأن ثمة كتاباً للباحث بعنوان (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي) هو الآخر قد حفل بموضوعات فنية نقدية يأتي الحديث عنه فيما بعد ...

والحق ان هناك قابلية مدهشة في نفاذ الباحث الى مجاهيل النصوص التي يتناولها ، تكاد ان تبلغ بنا حداً لا نجد كيفية التعبير عنها . أو تصويرها بالنحو الذي هي عليه .

المهم ان العناصر الفنية التي تحرك الباحث على ضوئها تتمثل في أربعة عناصر بارزة حسب وجهة نظرنا الخاصة علماً بأن هناك عناصر اخرى يطرحها الباحث في أكثر من مكان ، والعناصر هي كما يلي :

- ١- البنائي . ٢- القصصي . ٣- الصوري . ٤- الايقاعي .

وكل عنصر من العناصر المشار اليها يتخذ أشكالاً متعددة لعل في بعض أشكالها نوعاً من الجودة أو الاضافة التي لم يخبرها الآخرون خصوصاً من الوجهة النفسية التي يتناول بها الموضوعات عامة ...

١- العنصر البنائي :

أشرنا سابقاً في حقل التفسير عن منحنيات العنصر المذكور بشيء أكثر تفصيلاً ، فلا حاجة للتعرض اليه مكرراً . بيد ، الجدير بالملاحظة أن العنصر البنائي في كتابه الذي نحن بصددده ، يتناول موضوعات جديدة لم نلمح اليها في الحقل التفسيري وذلك من قبيل ابراز بنائية النصوص الشرعية غير الكتاب مثل أحاديث المعصومين

وخطبهم وادعيتهم ووصاياهم مضافاً الى توضيح بنائية النص الشعري والقصصي في تناوله للأدب البشري أو الأدب العام .

والواقع ان كثافة اهتماماته بتجانس العناصر الفنية من خلال بنائها العام أمرٌ من الواضح بدرجة حيث نبه أكثر من باحث عليها نشير الى أحد النصوص الذي جاء عفويّاً مسترسلاً وفي سياق تحديد خطوط النظرية الاسلامية للأدب : [والفكرة التي يقوم عليها هذا البحث والتي لها صلة بالأبعاد الفنية لنظرية الأدب الاسلامي هي فكرة التجانس بين أجزاء العمل الأدبي وهي فكرة ليست جديدة بل أشار اليها الدكتور محمود البستاني في بحثه الموسوم بـ (نظرية الالتزام في الأدب الاسلامي)]^(١).

ننتخب من الأشكال التي تحدث عن بنائيتها نموذجاً واحداً لتتعرف على طبيعة تناوله والنموذج المنتخب هو (الخطبة) حيث جاء في تحليله لأحدى خطب الامام الحسين عليه السلام من الزاوية البنائية : (هذه الخطبة تعدّ نموذجاً للنص الذي تتوفر فيه عناصر الفن بارتفاع مستوياته ، فمن حيث الموضوع تحوم الخطبة على « فكرة » واحدة هي (قضاء حاجة الآخرين) ... ومن حيث الهيكل الفني للموضوع نجد أن تلاحم أجزائه وتناميها العضوي يجسّد أرفع مستويات الإحكام الفني

فالخطبة تبدأ بالحديث عن المنافسة والمصارعة في عمل الخير مما تفصح هذه المقدمة عن أن التركيز فيها سيكون على ما هو خطير ، ... ثم تربط الخطبة مباشرة بين ذلك وبين قولها ... الخ .

إذن : وصل النص الآن الى صميم الفكرة التي يستهدفها وهي (قضاء حوائج الناس) بعد ذلك تنمي الخطبة عضويّاً هذه الأفكار على قضاء الحوائج ...

إذن : جاءت هذه الخطبة محكمة كل الإحكام متلاحمة عضويّاً ، بحيث يرتبط

(١) التوحيد (مجلة) ع ٨٣ ، ص ١٦٧ ، ١٩٩٦م ، بحث للدكتور شلتاغ عبود بعنوان : التجانس بين عناصر العمل الأدبي في نظرية الأدب الاسلامي .

كل جزء بالآخر ويتنامى كل جزء الى فكرة متطورة عن الجزء السابق ... مضافاً الى التوكؤ على عنصر الايقاع والصورة من استعارة وفرضية واستدلال مما يجعل الخطبة نصاً فنياً له جماليته الفائقة وصياغته المحكمة الممتعة ^(١).

٢ - العنصر القصصي :

بالرغم من أن الباحث يتناول القصة كموضوع مستقل له خصائصه وضروبه المتنوعة وذلك ما تضمنه كتابه التنظيري المتقدم (الاسلام والفن) وحتى كتابه الذي نحن بصدده فقد تحدث عن القصة كعنصر بارز في سياق تناوله للأدب القرآني : (الملاحظ أن النص القرآني قد استخدم العنصر القصصي بنحو ملحوظ ... ان القصة القرآنية قد استخدمت عنصراً موظفاً لآثار السورة الكريمة عدا بعض السور التي تمحضت للقصة مثل سورة (يوسف ، نوح ، المسد ، القبل ...) إلا أنها في الواقع لم تتجاوز الوظيفة الفكرية التي توفرت عليها في سائر السور ...) .
ويأخذنا الباحث بجولة طويلة في عالم القصة من حيث الشكل والاعراض وغيرها وبالإمكان أن نلخص جولته المشار إليها بما يلي :

من حيث العرض سلكت القصة القرآنية كلاً من الاشكال الآتية في عرضها للأحداث والشخصيات والمواقف :

ونكتفي هنا بالإشارة إليها :

١ - السرد الخالص .

٢ - السرد والحوار .

٣ - الحوار الخالص .

٤ - الحوار الداخلي .

٥ - الحوار الخارجي .

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، الدكتور محمود البستاني ، ص ٣١١ .

٦- الحوار السماوي .

٧- الحوار الملائكي .

مع عرض واف للمسوغات التي تشكل الانماط الآتفة . وضيق المجال لا يسع
لذكر الشواهد .

٣- العنصر الصوري :

لا شك أن العنصر الصوري أو التخيلي ، يعدُّ ركناً أساسياً في الممارسة الأدبية
عامة ، بل ان ما يميّز الأعمال الأدبية عن غيرها ، بحيث تخلع عليها سمة الفنّ أو
الأدب هو : العنصر المذكور وهذا وفق المقولة الشائعة : من تأكيد البديهيّات .

بيد النقطة التي تستحق التسجيل في الموضوع ذاته : أن الباحث ، يسهم في
اكتشاف أشكال صورية جديدة ، لم تتوفر البلاغة القديمة عليها ، أنها تحصر
موضوعات الصورة في اشكال محددة يرثها جيل بعد جيل دون أن تشهد تطور أو
إبداعاً : (البلاغة الموروثة تحصر الصور في رقم محدّد هو : التشبيه ، الاستعارة ،
الكناية ... الخ . إلا أن ما نجده من تنوع الصور من جانب والفوارق الدقيقة فيما بينها
من جانب آخر وطبيعة التصور الجمالي لوظيفتها من جانب ثالث يقتادنا الى تصنيفها
وفق مالي :

١- التشبيه . ٢- الاستعارة . ٣- التقريب . ٤- التمثيل . ٥- الرمز .

٦- الاستدلال . ٧- التضمين . ٨- الفرضية . ٩- المبالغة . ١٠- الاحالة

طبيعياً ، ان النص المستشهد به أنفأ ، يظل مندرجاً ضمن مجالات الحقل
التنظيري للنقد والبلاغة حيث تحتشد المجالات التنظيرية بدقائق وشموليات
وتأسيسات تحتاج الى حقل خاص بها إذا لم نقل دراسة مستقلة .

لذا تجدنا في الوقت الحاضر مكتفين بتناول بعض نماذجها على الصعيد
التطبيقي الذي أردنا توضيح بعض خطوطه العامة .

وننتخب من جملة ما أرسدناه من تطبيقات العنصر الصوري ، وفقات الباحث مع أدب الامام علي عليه السلام حيث جاء تحت عنوان (العنصر الصوري) ما يلي :

(تظل العناية بالعنصر الصوري لدى الامام عليه السلام أمراً ملحوظاً في غالبية النتائج المأثور عنه ، حتى ان بعض النصوص تتحول الى غاية كثيفة من الصور المتتابعة والمتواصلة بشكل لافت للنظر)^(١).

ويتابع الباحث حديثه عن العنصر المشار اليه ، حيث يتوغل في أعماق النصوص ومن زوايا متعددة ابرزها : الجمالية ، النفسية ...

الى أن يصل بنا الى محطة ، يعمل خلالها بعرض واسع وممتع لاشكال الصورة في النصوص المأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام واليك بعض المقتطفات حسب الاشكال المصنفة :

١ - التشبيه : (مادوا كما يمد الشجر يوم الريح العاصف) ، (يقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم) .

٢ - الاستعارة : (فقات عين الفتنة) ، (قدّم للوثبة يداً وآخر للنكوص رجلاً) .

٣ - التمثيل : (الحلم عشيرة) ، (- كان ليلهم - في دنياهم - نهراً : تخشعاً واستغفاراً وكان نهارهم توحشاً وانقطاعاً) .

٤ - الاستدلال : (من وثق بماء لم نظماً) ، (الشجرة البرية أصلب عوداً) .

٥ - الرمز : (آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، وبُعد السفر) ، (صبرتُ وفي العين قذئ ، وفي الحلق شجا) .

٦ - الفرضية : (لو أحبني جبل لتهافت) ، (لو كنت شخصاً مرئياً ، وقالباً حسياً لأقمْتُ عليك حدود الله . قوله مخاطباً الدنيا) .

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، ص ٢٤٧ .

٧- التضمين: (ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بامر أخرج منها ملكاً) ، (لستم ممن يتبوا الدار والايمان) .

٨- التورية: (كنتم جند المرأة واتباع البهيمة ... وعا فأجبتكم وعقر فهربتم) .
ان هذه النماذج الصورية جزء من تراث ضخم هائل لم نعرض لها إلا لكونها مؤشراً الى أنه ﷺ قد توفر على جميع الاشكال الصورية التي تستخدم في ميدان الصياغة الأدبية^(١) .



٤- العنصر الایقاعي :

فيما تقدم أشرنا الى ثلاثة من العناصر الفنية التي تربعت على مساحة واسعة من أعمال الباحث في ميدان التخطيط النظري والميدان التطبيقي . وهنا تجيء بالعنصر الرابع الذي يشكل سمة بارزة في أعماله المذكورة . والملفت ان الباحث في ميدان التطبيق ، يكشف عن حضور العنصر الایقاعي وبأنماط متعددة في ثنايا النصوص التشريعية مثل : الایقاع الخارجي .

- الایقاعي الداخلي .

وما يتصل بالبعد الثاني من عناصر الایقاع وهو التجانس .

كل ذلك نجد له شواهد واقعية تجسده بنحو لا يحتاج الى تأويل أو التماس الأدلة المتكلفة فان النص القرآني والحديث النبوي وتراث أهل البيت ﷺ نماذج ناطقة بما يذهب اليه الباحث ، ولا أعتقد أن ذكر النماذج في هذا السياق ، يعود بفائدة علمية ، خصوصاً أن كتابه الذي يقع في (٧٥٠) صفحة حافل بذلك .

ملاحظات حول كتاب تاريخ الأدب العربي

جاء في تعريف أحدي (المراجعات النقدية) التي قدمها أحد الباحثين ، ما يلي (وصلتنا هذه المراجعة لكتاب الدكتور محمود البستاني الجديد القيم « تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي » من الدكتور عبد المجيد زراقات الذي ثمن الكتاب والجهد المبذول فيه وابدئ بعض الملاحظات النقدية والمجلة تنشر كما وردتها آملة أن يكون ذلك حافزاً للحوار حول الملاحظات التي أبدأها وذلك من أجل بلورة نظرية أدبية اسلامية وهو ما أكد عليه الدكتور زراقات نفسه)^(١).

لا أحسب أن المراجع قد وقف على خيوطها المتناثرة كما ينبغي عليه الوقوف . على أية حال : ان أهم ما لاحظته المراجع على الكتاب هو أن الباحث - أي البستاني - قد وقع في مفارقة حينما وضع عنوان الكتاب (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي) في حين قد سجّل الباحث في كتابه (للأدب السوي فقط) فكان ينبغي عليه أن يعرض للأدب قاطبة كيما ينطبق العنوان على ما تضمنته فصول الكتاب ، وإلا فالأجدر أن يختار عنواناً آخر أكثر دقة في دلالاته .

والواقع أن هذه النقطة بالذات لا تستحق الوقوف مطلقاً ، طالما أن الباحث قد وضع بين أيدينا مسوغات عمله هذا بوجه لا يتسرب اليه التشكيك ، أشار البستاني في تصدير كتابه وكما مرّ ذكر هذه الكلمات (لقد حاولت دراستنا السريعة لتاريخ

الأدب أن تتجنب هذه المزالق التي وقع فيها مؤرخو الأدب ، واضعين بنظر الاعتبار أن التاريخ ، أو التراث ينبغي أن نفيده منه في « الحاضر » مستهدين - في ذلك - بخطى القرآن الكريم الذي يؤرخ للماضين وقصصهم باعتبار ذلك (عبرة وعظة) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ... ﴾ وليست لمجرد الامتاع والتسلية واللهو ^(١) .

فهو في صدد تقديم النموذج الذي يتوافق مع رؤيته الايديولوجية الخاصة ، لذا تجده مبتعداً عن كل ما يفسد ذوق (الدارس) من النماذج المنحرفة ، إذ الهدف الأساس هو : تفعيل المبادئ الاسلامية عبر التحليل والكشف والاشارة الى النصوص الملتزمة بفكرتها الاصلية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ مع أن الباحث لا ينسج صمتاً حيال النصوص التي توفر عليها الأدب العربي بشكلها العام فلقد عرض لنماذج كثيرة من منطلق النقد والردّ مساهماً بذلك في توعية القارئ .

واما النقطة الثانية التي أثارها المراجع فهي : (منهجية الكتاب) والمقصود هو تقسيم الباحث للعصور الأدبية وفق رؤيته الجديدة .

يقول المراجع : (وتتمثل المسألة الثانية في تصنيف الأدب الى مراحل تاريخية وفق أي معايير يتم ذلك والمعروف ان ما يميز مرحلة عن اخرى هو التحول النوعي الناتج عن جملة العوامل التاريخية ، دينية وسياسية ، واجتماعية واقتصادية ... الخ والتصنيف ينبغي أن يرتبط بمثل هذا التحول وأسبابه ..) ^(٢) .

وجواباً على هذه المسألة نعرض لوجهة نظر البستاني بشيء من التفصيل والتبسيط : (ان المسوغ لتقسيم العصور الأدبية الى هذا العصر أو ذاك ينبغي أن ينحصر في السمات الفنية التي تميز جيلاً عن آخر ، وهذا ما توقّرت عليه دراسات متنوعة ... ، لكن بما أن المؤسسة السياسية « الدولة » تجسد الهرم الاجتماعي الذي

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، ص ٦ .

(٢) نور الاسلام (مجلة) ص ٩٤ .

تلتقي عنده جميع الخطوط الاجتماعية حينئذٍ درج الكثير من الكتاب على تقسيم الأدب وغيره الى العصور السياسية، كما أن الوقائع التاريخية التي تسحب اثرها على مصائر الدول « كالحروب الدولية والاقليمية والمحلية » تفرض فاعليتها على التقسيم التاريخي نظراً لأهميتها المشار اليها ...

كما نلاحظ بان الانجاهات الايدلوجية تفرض فاعليتها أيضاً في بعض التقسيمات نظراً لابتناء المؤسسات الاجتماعية عليها ... وهناك تقسيمات تخضع لاشكال أخرى من الحركة الاجتماعية التي تتميز باهمية خاصة في نظر هذا المجتمع أو ذاك ... وهذا جميعاً يعني أن ما هو مهم في تصوّر المجتمعات « وهو بطبيعة الحال أمر نسبي » هو الذي حدد نمط الدافع الى هذا التقسيم أو ذاك ... بيد أن ما هو مهم ينحصر - في الواقع - في ظاهرتين هما: الاتجاه الايدلوجي والاتجاه الفني .

أما الاتجاه الايدلوجي فبصفته هو الجهاز القيمي الذي تبتني عليه المجتمعات سواء كانت ذات كيان سياسي « كالدول » أو كيان عام « كالأمّة » حينئذٍ يشكل مسوغاً له مشروعيتّه التي لا تضارعها أية تقسيمات اخرى مادامت جميع المؤسسات والنظم الاجتماعية تخضع للبعد الايدلوجي الذي يحدّد هويّتها ...

واما « التقسيم الفني » فيفرض مشروعيتّه أساساً مادام التغير الذي يطرأ عليه يسحب أثره على الفن - سواء كان الفنّ أدباً أم غيره من الاشكال الثقافية ... لكنّ الفنّ - سواء كان الفنّ أدباً أم غيره من الاشكال الثقافية ... لكنّ الفنّ ذاته لا يمكن أن تتحدد سماته إلّا من خلال الزمن، والزمن مادام يخضع - كما قلنا - للبعد الايدلوجي، حينئذٍ فان تحديده بهذا العصر الايدلوجي أو ذاك يظل حقيقة لا مفر منها ...، وهذا يعني - في نهاية المطاف - ان التقسيم الايدلوجي لعصور الأدب وغيره هو المعيار الأشدّ مشروعية من غيره ...

وفي ضوء هذه الحقائق، فان الايدلوجيا الاسلامية مادامت هي جهازنا القيمي الذي تبتني عليه مجتمعاتنا، ومادامت المجتمعات لا تنحصر في كيان سياسي

« الدولة » بل تتجاوزه الى « الأمة » ومادام الواقع السياسي أو العسكري يجسّد بالضرورة تعبيراً صادقاً عن الجهاز القيمي للمجتمعات ، حينئذٍ فإن ما يلتئم مع الواقع ، يظلّ هو الذي يفرض مشروعيّته لهذا التقسيم أو ذاك ... ولا شك ان هناك « أمة » مقتنعة بان مجيء الاسلام يتواكب مع فترتين : فترة تشريعية تمتد من زمن النبي ﷺ الى سنة « ٢٥٦هـ » وفترة تبدأ مع غياب المشرع ^(١) . الى أجل غير مسمى ، حينئذٍ فإنّ الجهاز القيمي يفرض على المؤرخ ان يقسم تاريخ الفن الى هاتين الفترتين بصورة عامة ، وان يقسّم الفترات الخاصة وفقاً للشخصيات المشرّعة للجهاز القيمي المذكور أو لسمات زمنيته « كالقرون » مثلاً إلا أن أحدهما لا ينفصل عن الآخر كما ذكرناه ، فعصر الازدهار الثقافي أو الانحطاط الثقافي أو التوقّف الثقافي ... لا ينفصل عن الزمن الموضوعي « حساب السنين حسب القرن أو العقد » ^(٢) .

وختاماً هناك بعض الملاحظات من قبيل : الغزل ... الخ يجد القارئ ما يقابلها مفصلاً في العدد المشار اليه من مجلة (رسالة الثقلين) .

(١) لا شك ان المشرع بالأصل هو الله تعالى ، وانما يقصد بالتشريع هنا ما هو أعم من تبليغ التشريع ، والتشريع فيما حوّل من ملئ الخلاء والفراغ وليس التشريع بالأصل والاستقلال . « المجلة »

(٢) رسالة الثقلين (مجلة) العدد الأول ، السنة الأولى ، ص ٢٠٥ .

النقد الأدبي

ليس بإمكان محاولة بسيطة كهذه ، ان تفتح جانباً خطيراً ، كان البستاني قد دخله ، فأثبت من خلاله ، ريادته المتفردة وقدرته الفائقة ، خصوصاً أننا نعلم سلفاً بان مجموعة من النقاد تصفه : [بالناقد المنظر لنظرية النقد ...] وبصاحب مدرسة متكاملة في المجال النقدي الحديث .

لكن : هذا لا يعني ان ننسج حيال الجانب المذكور صمتاً فائاً وبحسب ما نتوكل عليه من ثقافة نقدية متواضعة ، نستطيع أن نقول : بنبرات واثقة - أن البستاني قد قفز بالدرس النقدي المعاصر قفزات عملاقة ، أكدّ بها على عمقه المعرفي واصلته الفذة ، كما قد ساهم في ارساء وثبيت معالم النقد الاسلامي المستقل من خلال أعماله المتنوعة بهذا الصدد .

من هنا ، فان تسليط الضوء على بداياته النقدية ورصد نتاجاته التأسيسية وما غلفها من إعلام ودوافع ذاتية أدّت الى نجاحها . يعطي للباحثين في فكره النقدي اشارات أساسية ، تمنحهم القدرة على دراستها وكشف الحقائق المرتبطة بذلك بغية رفد وإثراء التجربة النقدية لديهم . والواقع ، حينما نتجه نحو خطواته الأولى في عالم النقد . نجد ان النقد عنده شيء فطري!!! أو بعبارة أدق : ملكة كسائر الملكات الأخرى عنده .

فلقد ولد البستاني وهو يحمل النقد في أعماقه ، حساً وذوقاً ودرساً ، حيث تدب في مسارب وجدانه وبواطن كينونته ، ومضات من الكشوفات النقدية ، يتملّى

توهجاتها المتألقة ، بقوة صفائه العميق وحدة نظراته الثاقبة ...
 مما يجعل من النصوص الابداعية ، تتعري عن أغلفتها المكثفة لتفسح الطرق
 امام ، أصابعه الباحثة ...
 هكذا هو النقد عنده صرخات محبوسة ، تبحث عن المنفذ لتعبر عن الجمال
 والابداع .



بعد ان أكمل دراسته في [كلية الفقه] بالنجف الأشرف . قرّر الذهاب الى [مصر]
 بغية الالتحاق بالدراسات العليا ، وقد تحقق هدفه الذي سعى من أجله .
 فدخل جامعة القاهرة [كلية دارالعلوم] ، وقدم على رسالة [الماجستير] التي حملت
 العنوان التالي :

[النقد الأدبي في العراق في القرن العشرين] بحيث استتلت الرسالة المذكورة
 منه ، ان يرصد لجميع نتاجات النقد الأدبي في العراق منذ القرن التاسع وحتى القرن
 الحالي : وبعدها حَضَر رسالة [الدكتوراه] التي كان عنوانها : [المناهج النقدية في نقد
 المعاصرين] وهي إحدى المحاولات الضخمة في مجال النقد المعاصر حيث حاول
 ان يعرض لجميع التيارات الحديثة في عالم النقد وان يتوفر على دراستها ونقدها
 ايضاً ...

ولا يأخذنا الاسترسال في متابعة أعماله النقدية ، عن فهم رؤية البستاني حول
 انخراطه في المجال المشار اليه .

بعبارة أوضح : ثمة دوافع وتوجهات خاصة تجعل من المرء ان يميل لهذا المجال
 دون الآخر . فكيف كان ينظر البستاني في بداية الأمر الى تلك الميول الذاتية حيال
 النقد . وهذا بالضبط ما حاولنا معرفته منه بصورة مباشرة فأجابنا على ذلك : [الواقع
 أن اختياري للنقد الأدبي كان بصدد ان النقد فرع حديث ، والانسان عندما يريد أن

يوصل أفكاره الى الآخرين عليه أن يتوسّل بلغة العصر وثقافته ، فاخترت النقد الأدبي ، بصفته يتيح المجال لأن يثبت الانسان أفكاره خلال عملية النقد ومن جانب آخر تفتقر عملية النقد بضروب متنوعة من المعرفة الإنسانية كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ... الخ . من هنا اتجهت الى النقد الأدبي وقلتُ استثمر هذا الجانب لكي أوصل الافكار الى الآخرين واساهم في امكانية تعديل سلوكهم من خلال نقد النصوص الأدبية^(١).

واعتقد ان هذه الكلمات المختزلة ، تكفي في اعطاء تصور واضح عن أسباب توجهه أو اختياره للنقد الأدبي دون غيره من فروع المعرفة الإنسانية .
وحيث أتيت لنا معرفة هذا الجانب بالذات ، حينئذ نعود لمتابعة أعماله في مجال النقد والتي جعلت منه ناقداً ضخماً واستاذاً تربى على يديه جمهور واسع النطاق ونبدأ ذلك :

« في النظرية النقدية »

ان أول كتاب أفرزه البستاني للساحة الأدبية هو كتابه الموسوم أعلاه (في النظرية النقدية) الذي يعدّ باكورة نتاجاته عامة .

والملاحظ ان الكتاب المذكور ، رافقه اعلام عجيب بدرجة أن الصحف والاعلام - في العراق - جميعاً قد خصصت صفحات بارزة للحديث عنه ، كما ان النقاد الذين تناولوا الكتاب اعتبروه أفضل كتاب صدر في حينه . حتى أن نافداً معروفاً بالعالم العربي وهو : (جبرا ابراهيم جبرا) كان قد أجريت معه مقابلة في إحدى المجلات ، فأوضح هناك ما مؤداه أن الكتاب يعتبر أحد كتب أربعة صدرت في هذا العام ليس بالعالم العربي فحسب بل حتى في أوروبا . لما يمتاز بالجدة في طرح الافكار

(١) حوار خاص مع الدكتور أجريناه بتاريخ ١٤١٦هـ شعبان .

والتخطيط لنظرية في النقد الأدبي^(١).

والواقع ان محاولته المشاركة فيها ، تستحق المزيد من الاهتمامات ، ذلك للعمق والجدّة والرصد المبذول فيها ، حيث حاول أن يرصد لجميع الاتجاهات العالمية في مجالات النقد التنظيري مثل : الاتجاه السيكلوجي ، والجمالي ، والايديولوجي والوصفي ... الخ .

مع طرح الملاحظات التي حاولت أن تسجل لمفارقات الاتجاهات المذكورة ، وعلى صعيد النظرية فحسب دون أن تمتد نحو خطوط التطبيق .

[ان طرح مفهومات نحو : صلة النقد بـ (التاريخ الأدبي) و (الدراسة الادبية) وتحديد ماهيّة النقد بـ (التاريخ الأدبي) و (الدراسة الأدبية) وتحديد ماهيّة النقد عبر معالجة (استقلاله) أو (تبعيته) بالنسبة الى الفنون الابداعيّة أو توزيعه بين القيم الجماليّة والفكرية أو تراوجه بين (التاثريّة) و (الموضوعيّة) أو من ثم تحديد عناصر من نحو (المقارنة) و (النسبية) ونظائرها ، فضلاً عن صلته بضروب المعرفة غير الأدبية كـ (التاريخ) و (علم النفس) و (الاجتماع) و (الفلسفة) و (الاخلاق) وما إليها

جميعاً عبر تأزرها في استخلاص (القيمة النقدية وطرائق استخلاصها وتحديد نسبها ... ذلك ما تحاول تقديمه هذه الصفحات ...)]^(٢).

وبالفعل فهناك العديد من الاثارات والرؤى الجادة في تضاعيف دراسته الحافلة بالموضوعات المعاصرة .

حيث تجد فيها ما يغنيك عن مراجعة مجموعة من الكتب النقدية ، فهي على حدّ قول بعض النقاد : [حصيلة عشرين عاماً من البحث والمتابعة] .

(١) الكلمة (مجلة) لم يتيسر لنا في الوقت الحاضر الرجوع الى عددها ، فأثرنا ذكر شيء يسير هنا .

(٢) في النظرية النقدية ، محمود البستاني ، بغداد ١٩٧٠م .

والجدير بالذكر، ان البستاني كان قد حدثنا بخاصة عن أسباب كتابة الكتاب المذكور، وعن عوامل نجاحه، فيما نعرضها كيما تستبين الفكرة بوجه كامل. يقول البستاني:

(عندما قرّرت أن أترك [الشعر] وجدت في الواقع أن هناك - في النقد الأدبي - نصوصاً متنوعة، فهناك نصوص منحرفة وهناك نصوص سوّية، وهناك ما هو أهم من هذه النصوص، هي نصوص التشريع الاسلامي، كالقرآن وأحاديث المعصومين، لذلك رايتُ الأفضل هو: أن أتوفر على دراسة النصوص الشرعية ذات الطابع الفني، ومن خلال ذلك استطيع أن أحقق الهدف ولكن: بما أنني كنتُ معروفاً شاعراً، حينئذ قررتُ أن أولف كتاباً نقدياً محايداً، حتى أكتسب سمعة نقدية من خلال الجمهور، وبعد أن أكتسب هذه السمعة، أستطيع أن أتوفر على دراسة النصوص الشرعية واكتبها بالشكل الذي يتناسب مع مستوياتها. من هنا، بدأت وألّفت كتاباً في النظرية النقدية، واستطعت من خلال هذا الكتاب، ان أرصد الاتجاهات النقدية جميعاً وأوضحها بشكل أو بآخر، دون أن أدلي بوجهة نظر فكرية، بقدر ما كانت وجهة النظر تنصب على الدلالات الفنية فحسب.

المهم ألّفتُ هذا الكتاب بهذه النية أي أن الكتابة مقدّمة لنشاط نقدي اسلامي خالص. وصادف أن ألّفتُ الكتاب في شهر رمضان، وكان يتألف من أربعة عشر فصلاً، فكتبْتُ كل فصل في ليلة واحدة تيمناً بأربعة عشر معصوماً عليه السلام وبالفعل كتبتُهُ خلال أربعة عشر يوماً فقط وصدر الى الأسواق ونفدت نسخته خلال أيام قليلة.

والذي أعتقد أنه سبب الاهتمام بهذا الكتاب ووظيف الاعلام له، هو النية الخالصة التي كنتُ استهدفها من وراء كتابته ^(١).

القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي*

واصل البستاني كتاباته النقدية بنحو ملحوظ بحيث توفر على نتاج ضخم أسهم
برفد المكتبة أو الحقل النقدي الاسلامي بأعمال رائدة منها كتابه الموسوم بـ [القواعد
البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي] ، فمن المعروف انه ...

مع اطلالة القرن الأخير ، أو ما يطلق عليه عادةً بـ (عصر النهضة الثقافية) شهد
موروثنا الثقافي - على وجه الدقة - حملات واسعة من النقد والغربة ...

وقد وصل الأمر بالحملات النقدية الى درجة يصعب قبولها ، إذ أوعز البعض
منهم أسباب تخلف الأمة وسقوطها المشهود ، الى تمسكها بآلية الموروث والعمل
بمرتكزاته المتنافية مع متطلبات العصر .

وبعيداً عن نقد أصحاب تلك الرؤية المتطرفة أو مناقشة ما يتعلق بالموضوع
ذاته .

فثمة جانب ايجابي وريادي أصيل في حملات النقد المذكورة بخاصة عمليات
نقد المناهج الموروثة ومحاولات التأسيس لرؤى حديثة مبتكرة ، تنسجم مع التطور
الهائل في أدوات المعرفة الانسانية في العالم المعاصر .

(*) هناك مقالان تعريفيان لمنهج هذا الكتاب هما : مقالة « رسالة الثقلين » السنة الثانية العدد السادس ،
ومقالة ، « الفكر الاسلامي » العدد الثامن السنة الثانية .

وكان ممن تنبه على الصعيد البلاغي - وهو موقع استشهادنا هنا - جمعٌ من النقاد والباحثين الذين كان لهم دورٌ ملحوظ في عملية الاحياء الثقافي ... حيث وجدوا ان البلاغة الموروثة ، أصبحت غير قادرة على اشباع الحاسة أو الذوق الفني الجديد ، فلقد شهد الفن الحديث تضخماً نوعياً في أدوات الكشف الجمالي وطرائق تعميق الاستجابة لدى المتلقي .

وغير ذلك من الملاحظات والظواهر التي شكلت - فيما بعد - مصادر جدلية تمخضت عن نتائج ايجابية واضحة .

لذا فقد انبرى - كما أشرنا - أكثر من باحث كان من أبرزهم : (العقّاد ، محمد خلف الله أحمد ، عز الدين اسماعيل ... الخ)^(١) .

فطرحوا تصورات من وجهة نظر نفسية وفنية وغيرها ...

لكن : يلاحظ عليهم - بالرغم من موقفنا المثنى لما قدموه - عدم توفرهم على مشروع يمكن الارتكاز عليه ، من حيث الشمولية والاستيعاب ، خلا بعض النظرات المشار اليها ، وهي بطبيعة الحال ، لا تعطي حسمًا للموضوع ...

من هنا : - وعبر هذه الاشارات الخاطفة بالذات - تبدئ قيمة الكتاب الموسوم أعلاه (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي) فهو - حسب ما تمكنت من رصده - من المحاولات التي بذلت في اطار الالتفاف الجاد على افرازات الموروث الابداعي من خلال عملية استشفافه وفق عناصر [جمالية] جديدة ، توصل اليها الباحث بنحو يعزّز من عمق واصالة المحاولة عينها . بيد أن ما يرفع من قيمة المحاولة ويبرز جانباً من فاعليتها الواسعة ، أن محاورها الرئيسية تنصب على المادة - النصوص - الشرعية بما في ذلك الكتاب والسنة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام ، ايماناً بضرورة تشكيل خطاب بلاغي أصيل ، يعتمد في مضموناته على صيغ اسلامية

(١) أنظر كتاب (شعرنا القديم والنقد الجديد . وهب أحمد رومية) . (سلسلة عالم المعرفة) ، ص ٢٨ .

صميمة ، مضافاً الى أن النصوص الشرعية تحمل من الدلالات الاعجازية ما جعلتها تتخطى الفواصل الزمنية بتفرد وقوة بالغة (بحيث صيغت بنحو تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية ومنها « المعايير البلاغية الحديثة ») .

فيما جهد الباحث على ربط المفهومات البلاغية الموروثة - ذات الطابع الصائب - مع طرائقية الأدوات البلاغية المعاصرة ، ذلك عبر نوسله العميق بثقافة تسعفه على استيعاب ومواكبة النمطين المذكورين ، دون ان يلاحظ عليه شيئاً من الوهن أو الضمور .

فلقد حرص من خلال ما كتبه على تقديم رؤية تأسيسية شاملة لمبادئ البلاغة الحديثة ، فيما سجّل - في الوقت نفسه - مساهمة واضحة في حلقات التأسيس الاسلامي المعاصر ، وملأ فراغات المعرفة الانسانية عبر عقد العلاقات الحثيثة بين افرازات المعرفة الصائبة ، ومكتنزات الفكر الاسلامي العظيم .

وجد الباحث ان : [البلاغة القديمة تطبعها جملة من العيوب التي لا يمكن التغاضي عنها ، بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن صياغة قواعدها تمتد الى أكثر من ألف عام ، حيث حدثت تطورات فنية خلال هذا الزمن ، بنحو يجعل البلاغة الموروثة قاصرة عن عن تمثل ذلك - بطبيعة الحال .

طبيعياً ، نحن لا نملك الحق في مطالبة البلاغيين القدماء بان يتجاوزوا حدود زمنهم ، وان يصوغوا القواعد التي لا تسمح بها ثقافتهم الفنية آنذاك ، ولكننا نملك الحق في توجيه اللوم الى المعاصرين الذين جمدوا على قواعد اسلافهم ، بحيث يمكن القول بان دراساتهم للبلاغة التقليدية أفسدت أذواقهم وعطلتها بدلاً من أن تُنمّيها وتُصقلها...]^(١) .

وبعد أن يصرّح سلفاً بان هناك جملة من القواعد البلاغية القديمة ، لا يزال

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي الدكتور محمود البستاني ، ص ١٣ .

يحتفظ بفاعلية وحيويته ، إلا أن في الجانب الآخر توجد العديد بل القسم الأكبر من القواعد الموسومة بالعيوب المخلة في فهم جمالية النصوص الأدبية ... يلخصها الباحث عبر هذه النقاط الآتية :

١ - عدم شموليتها لجميع القواعد ، بمعنى أن البلاغة القديمة لم تتناول كل أشكال الفن وكل قواعده ، بل اقتصر على البعض منها دون البعض الآخر ... فالقصة - على سبيل المثال - مع أنها تحتل مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم لم تتحدث البلاغة القديمة عنها حتى بكلمة واحدة ، علماً بأن بعض البلاغيين يصرّح بأن هدفه هو : دراسة الاعجاز القرآني الكريم فكيف يهمل أهم عناصر هذا الاعجاز وهو : القصة القرآنية!

٢ - تتسم البلاغة القديمة بالتناول « الجزئي » للنص بدلاً من التناول « الكلي » له ، بمعنى أن قواعدها تتناول المفردة أو الجملة أو الفقرة فحسب ؛ حيث تحصر ذلك في نطاق المسند والمُسند اليه وقيودهما من الذكر والحذف والتقديم ... الخ ، في « حقل المعاني » وفي نطاق التشبيه والاستعارة والكناية ... الخ في « حقل البيان » وفي نطاق المحسنات اللفظية والمعنوية في « حقل البديع » ، علماً بأن النص الأدبي لا تنحصر جماليته في فقرات أو آيات مستقلة ، بل في كونه جملاً أو آيات يرتبط بعضها مع الآخر ، ويخضع لهندسة خاصة من حيث تنسيق الأفكار والمواقف .. (١).

٣ - العيب الثالث الذي يطبع البلاغة الموروثة هو : خطأ المفهومات البلاغية ذاتها ... فمثلاً نجد في حقل « التشبيه » أن البلاغيين يذكرون بأن « التشبيه البليغ » وهو ما حُذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه - أشدّ بلاغةً من التشبيه المقترن بالأداة ، وإن « تشبيه التمثيل » - وهو ما كان وجه الشبه فيه منتزِعاً من أطراف متعددة - أشدّ بلاغةً من غيره ... إنّ امثلة هذه المعايير فضلاً عن أخطائها الملحوظة التي تشتمل

(١) يراجع الكتاب نفسه ، ص ١٥ ، فهناك تفصيلات لا مجال لعرضها هنا .

على التناقض بينها ، تنطوي أيضاً على خطأ المعيار ذاته ، أما التناقض فيتمثل في ذهابهم الى أن التشبيه الذي حذف أداته ووجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ، يتناقض مع ذهابهم الى أن التشبيه الذي تعدّد أوجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ، فإذا كان حذف وجه الشبه دلالة على بلاغته ، فكيف يصبح تعدّد وجه الشبه دلالة على بلاغته أيضاً؟!

أليس هذا تناقضاً واضحاً بين المعايير؟! واما خطأ المعايير ذاتها فيتمثل في ذهابهم الى كون التشبيه الذي حذف أداته ووجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ؛ حيث يترتب على ذلك أن تكون تشبيهات القرآن الكريم مثلاً - وهي في الغالب تشتمل على ذكر الاداة ووجه الشبه - أقلّ بلاغة من التشبيهات التي يصوغها البشر وهذا هو « الكفر » بعينه ببلاغة القرآن ^(١).

وبعد ان يأخذنا بجولة طويلة يعرض خلالها عيوب وأخطاء المعايير الموروثة ينتهي الى هذه الحقائق التي تكسب الكتاب مزيداً من الأهمية والاعتبار...

(ان هذه العيوب ونظائرها - ممّا نعرض له خلال هذا الكتاب - تحملنا على اعادة النظر في البلاغة الموروثة ، ومحاولة صياغتها من جديد في ضوء النصوص الشرعيّة « الكتاب » و « السنة » حيث نحاول ان ننزع قواعدها من نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وأهل البيت عليه السلام ، وهي نصوص أعجازيّة تخطّت حدود الزمن ، بحيث صيغت بنحوٍ تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية ومنها : « المعايير البلاغية الحديثة » .

طبيعياً ، أن الاسلام لم يقدّم لنا قواعد جاهزة ، بل قدم نصوصاً تنطوي على القواعد المشار اليها ، والسّر في ذلك هو : أن المشرع الاسلامي ، سمح لكل شخص بأن يستخلص القواعد وفقاً لطبيعة الثقافة التي تغلّفه والبيئة التي ينتسب اليها ، إلّا في

نطاق محدّد من القواعد العامة التي تشكّل تراثاً مشتركاً لجميع الأزمنة .. (١).

والملاحظة التي تستحق التسجيل : ان الباحث ، قام بتقسيم القواعد البلاغية - في كتابه عينه - الى ثمانية عناصر ، فيما شكل كل عنصر من العناصر المذكورة فصلاً من فصول الكتاب ، والعناصر هي :

١ - **العنصر الفكري** : يحوم العنصر المذكور حول [فكرة] النص الأدبي بمعنى ان النص الأدبي - وان تعدد موضوعاته - يبقى مؤكداً من حيث المنطلق الأساسي على فكرة عامة .

لذا يتعين على البحث البلاغي أن يكتشف كل ما يتصل بادوات تعميق وابرار الفكرة في الاعمال الأدبية . فمن حيث المستوى يخضع العنصر الفكري لمستويات متنوعة ، أهمها :

١ - انتخاب الفكرة . ٢ - تحديدها . ٣ - وحدتها وتنوعها . ٤ - الفكرة الرئيسة والثانوية . ٥ - الفكرة المعارضة ، ومسوغات الأخيرة بالذات - الفكرة المعارضة - من قبيل البحث عن مستوياتها التي تتمثل ب :

■ **التداعي الذهني** .

■ **التداعي الفني** .

مضافاً الى أقسامها العامة ، حيث تنشطر الفكرة المعارضة الى قسمين :

١ - مباشرة . ٢ - غير مباشرة .

وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بصياغة الفكرة المعارضة واساليبها مما لا يسعنا إلا الايماء العابر ، تاركين التفصيل الى الكتاب نفسه .

٢ - **العنصر الموضوعي** : يهدف العنصر الموضوعي ، الى ما يحمله النص من

الموضوعات التي تجسّد الفكرة التي أشرنا إليها آنفاً . والعنصر المتحدث عنه ، يتربع على جملة من المباحث الهامة . مثل :

- ١- الموضوع ومادته [إن مادة الموضوع التي يتوكأ عليها تتكون من أربعة عناصر ، وهي :
- ١- الشخصيات . ٢- الحوادث . ٣- البيئات أو الأشياء .
- ٤- القيم . أو المواقف .

فيما يطرح الباحث مفهومات ضخمة تختص بالعنصر ذاته نحو :

- الموضوع وعلاقته بالمواد الأربع .
- الموضوع وعلاقته بالمادة الواحدة .
- الموضوع وفكرته ، مثل :
- ١- انتخاب الموضوع . ٢- تحديده . ٣- وحدته وتنوعه وغير ذلك ... [.
- ٣- العنصر المعنوي : يأتي الحديث عن العنصر [المعنوي] كخطوة متأخرة عن العناصر التي تقدم الحديث عنها . فهو في مجموعة العام آلية (تترتب من خلالها المعاني في ذهن المنشئ الأدبي) .

وفيه يتحدث الباحث عن موضوعات [المسند] و[المسند إليه] من حيث مفهوماتها وتقسيماتها التي لم يتفق في بعض جوانبها مع مقررات الموروث البلاغي بخاصة ما يصطلح عليه بـ [القيود] التي اعتاد البلاغيون القدامى أن يصفوا بها بعض الاسنادات (الاسناد الناقص) . بيد المهم أن الباحث يتناول من خلال العنصر نفسه موضوعات هامة مثل : (الوصفية) (المعيارية) بصفتها أحد اساليب العنصر المذكور ، في حين تناول مستوياتهما : التي جاءت ضمن العنوانات الآتية :

- ١- التعبير المجرد . ٢- التعبير الاستدلالي . وقد انقسم الأخير (الاستدلالي) من حيث المستوى أيضاً الى : الاستخلاص ، التعليل ، التفسير ، بلاغة الوصف ، الانتخاب عضوية الوصف ، الوصف الخارجي والداخلي ... وما الى ذلك من

العنوانات التي تتصل بافrazات البلاغة والنقد الحديث .

٤- العنصر الصوري : كل ما يمكن قوله عن العنصر المذكور هو :

ان العنصر الصوري ينحصر في دائرة البلاغة الموروثة بثلاثة محاور هي [التشبيه ، الاستعارة ، الكناية] .

لكن الباحث من خلال متابعته الدقيقة ووفق تصورات جمالية بحثه يجد ان هناك اشكالات اخرى قد ألمحنا اليها سابقاً ، وهي :

- ١- التقريب . ٢- التمثيل . ٣- الرمز . ٤- الاستدلال . ٥- التضمين .
- ٦- الفرضية . ٧- المبالغة . ٨- الاحالة ... الخ .



ان كلاً من العناصر المتقدمة - الفكري ، الموضوعي ، المعنوي ، الصوري - تختص - حسب وجهة نظر الباحث - بمادة النص خاصة .

اما العناصر الخاصة بهيكله الخارجي ، فهي :

٥- العنصر اللفظي : يبحث فيه عن اللفظ أو الالفاظ بنمطيهما المفرد والمركب ، حيث تطرق في الفصل ذاته الى المفردة ومستوياتها كما تناول [العبارة المركبة] و[الاسلوب اللفظي الحوار والسرد] ولعل موضوع [الحوار] هو أخصب موضوعات العنصر المذكور وبخاصة ما يتصل بتقسيمات الحوار مثل : الداخلي ، الخارجي ، المشترك ، الانفرادي ، المزدوج ، المتكرر ، الفرضي ، الرمزي ، الصامت ... الخ .

حيث تبرز قابلية الباحث في تجليه الفوارق بين حوار وآخر وهي عمليات تتطلب جانباً من الدقة التي لا تتوفر للآخرين .

٦- العنصر الایقاعي : وفيه يتناول الایقاع من حيث البنية ، من حيث الصوت ، من حيث المدى ، من حيث الصياغة ، كما يتطرق الى الایقاع بنمطيه الخارجي والداخلي ، وفي الفصل نفسه يضاعف الباحث من ذكر الامثلة والشواهد التي تجعل

من الدارس على قناعة تامة في ما يذهب اليه .

٧ - **العنصر الشكلي** : يقول الباحث : [المقصود من (العنصر الشكلي) هو : المظهر الخارجي للنص من حيث البنية الجسميّة له ، مثل السورة القرآنية ، والخطبة ، والقصة ، والخاطرة ، والقصيدة ، والمسرحية الى آخره ويُطلق على هذه الاشكال الأدبية مصطلح مثل (الاجناس الأدبية) أو (الفنون الأدبية) أو (الأنواع الأدبية ...)].

والمقصود ان كلاً من الاشكال الأدبية يختص بعمارة معينة تميزه عن الاشكال الاخرى فالقصة تفتقر عن الشعر حيث يعتمد الأخير على الوزن والقافية وتكثيف العنصر الصوري وما الى ذلك . بينما للقصة بنية أو عمارة تتألف من عناصر خاصة بها ، وهكذا بالنسبة للمقال أو المسرحية ... الخ .

من هناك يتعين على الباحث البلاغي أن يلقي مزيداً من الاهتمام الى هذه الزاوية التي يتعهد بموضوعاتها العنصر المشار اليه وبما أن الباحث يلتزم بمفهوم [الاسلمة أو الشرعنة] فان الاشكالات التي يتحدث عنها في هذا الفصل هي اشكالات منتزعة من صميم المأثورات الشرعية ذات الجانب الابداعي مثل : الدعاء ، السورة ، الحديث الفني ، الزيارة ، الذكر ، كما يتطرق الى ما هو مألوف في الوسط العام مثل الخطبة ، الخاطرة ، الأدب القصصي بانماطها المعروفة : القصة القصيرة الرواية ، الحكاية ، المسرحية ، المقالة ، الرسالة .

٨ - **العنصر البنائي** : وهو آخر فصول الكتاب ، وقد تقدم الحديث عنه في غضون هذه الدراسة مما لا مبرر من تناوله مجدداً . لكن ينبغي التنبيه على أن العنصر ذاته قد حفل بنقاط متعددة الأهمية وذلك من الزاوية النظرية ، لذا فمن الضروري الرجوع الى ما ذكره الباحث بغية الوقوف على جوانبه بنحو يزيد من إلمام الدارس لها .

ويلاحظ بعد ذلك كله : ان الكتاب بمادته عامة ، ينتظم وفق تخطيط منهجي محكم ، حاول الباحث أن يستبدل به [كتب البلاغة] التي تتداولها المؤسسات الثقافية بنمطها الحوزة والجامعة ، حيث يغلب على الكتب المشار إليها غموضية المعلومة من جهة وفقدانية التساوق في عرض الموضوعات والمبادئ من جهة أخرى . مضافاً الى الاخطاء التي ألمحنا إليها وتجدد الأدوات البلاغية المعاصرة .

ولا يفوتنا - المثال والشاهد - حيث اعتمد على النماذج الشرعية خاصة حتى بلغ رصيد ما ذكره من النصوص القرآنية فقط [خمسمائة آية قرآنية] .

وهذه من الخطوات الجادة في تعميل الخطوط المعرفية ذات الصيغة الخالصة في عملية استنهاض وبعث المفاعيل الايدلوجية المستقلة .



وبكلمة خاتمة : يمكننا وصف اعماله النقدية - بنمطها التنظيري والتطبيقي - أنها قد تمكنت وبقدرة مدهشة من التمرد على هيمنة الثقافات الأرضية التي سقط في شراكها جملة من رجالات الفكر الاسلامي بدعوى التحررية والتلافح المعرفي ، كما ساهمت في اعطاء تصورات تأسيسية جديدة للدرس النقدي الحديث ، مستفاداً بذلك من نصوص المشرع الاسلامي التي استنبطها الباحث بقبليته الحية وهذه باعتقادي الميزة الهامة في تقويم أعماله عامة ، طالما نعتد - في عملية تحديد ما هو ايجابي أصيل عما هو سلبي مهزوم - على معيارية الاستقلال وعدم التبعية ، مع ملاحظة التوافق أو التعامل مع الاعمال المطبوعة بملامح التصورات الصائبة ، دون تحديد هوياتها الفكرية ، فالاستقلال - كما أكد ذلك أكثر من باحث - لا يعني التحفظ المطلق أو التحجر والانزواء .



موقفه من الشعر

يحتل الشعر من تجربة الدكتور البستاني الثقافية ، ما غطى شهرته على سائر ضروب المعرفة التي سجل بها حضوراً اسلامياً مشرقاً .

وأسباب تلك الشهرة الواسعة ، تعود لعوامل متعددة أهمها :

الشاعرية المبكرة :

ان ولادته الشعرية المبكرة تعدّ احدى النقاط الحساسة في آلية دراسته كشاعر له تجربته الرائدة في تيارات الشعر النجفي . حيث تتكفل الخصوصية ذاتها بفهم حجم كبير من شهرته المشار اليها . وبخاصة ما رافقها من نبوغ حادٍ ، يمثل تفرداً وخروجاً نوعياً عن دائرة المألوف البيئي .

والغريب في مثل هذه البداية المبكرة ان البستاني ، قد امتزج بالشعر ودخل عالمه الرحب ، من دون ان تتدخل (اباد) في تنشئته الشعرية أو ان ترسم له الخطوط التي تبعث في أعماقه الحافز لممارسة هذا اللون بالذات . وكما هو مألوف عند بداية كل تجربة شعرية من قبيل الانماط التي تعمل على تنمية المواهب وتنضيج استعداداتها .

فالملاحظ ان البستاني قد استجاب للشعر فطرياً والفطرة وحدها التي قامت بربط العلائق ومدّ الجسور فيما بينهما .

فليس ثمة ما يشير بمروره عبر قنوات (التلمذة) و (التعليم) . في عملية

التأهيل الشعري .

وقد تصح بعض الاعتبارات الذاهبة الى ان (للمناخ النجفي) دوراً ملحوظاً في منح أبنائه امكانية (التعاطي) الشعري وتوليد الموهبة بواطن نفوسهم من خلال (ظاهرة) تفشي الشعر وانتشاره بشكل مدهش للغاية .

لكن هذا كله : لا ينسحب على تجربة (البستاني) ابداً .

مادامنا نعلم ، بان حداثة سنه تتأبى من أن تنعكس عليها افرازات الآخرين بحيث تجعل منه شاعراً ذا مستوى معروف .

ان المعلومات التي نمتلكها ، تفصح بكونه قد (نظم) الشعر أو (كتبه) وهو في (العقد) الأول من عمره . كما تلمح بأنه قد (نشر) نتاجه الشعري في امهات الصحف العراقية وهو لم يكمل بعد (عقده) الثاني أي في منتصف الخمسينيات بالضبط .

هذه نقطة - أسجلها سريعاً ، لمن يبغى التعمق في دراسة البستاني من خلال تجربته الشعرية - وأما الاخرى ، فهي :

الجنبه التجديدية :

نحاول - قبل بدء الحديث عن اللمسات الابداعية التي توسل بها البستاني في صياغة قصيدته الشعرية ذات البناء المنطوي على عناصر الفن الحديث - ان نتحرى عبر الاضاءة المختزلة لبعض مراحل الشعر وقضاياه ، بغية ان تتضح ملامح التجديد في شعره .

والملاحظ على مسار الشعر العربي بصورة عامة ، أنه قد مرّ بعد سقوط الدولة العباسية بعصور زمنية يطلق عليها مؤرخو الأدب : بـ (القرون المظلمة) أو (عصور الانحطاط) أو باصطلاح البستاني الخاص : (العصر الوسيط) ، افتقد الشعر خلالها مواصلة النمو والنضج والابداع الذي كان عليه قبل انهيار الدولة المذكورة . حيث

انشغل الشعر بعناصر جوفاء حالت دون تطور مضموناته ووظائفه التي يتوخى منها أن تساهم في عملية التغير الاجتماعي ، مما تفرض على الدارس ان يوليها نوعاً من الاهتمام ، مضافاً الى تلكئه الشديد من حيث الشكل واللغة التي انتكست بدرجة مقرفة ... واستمر الحال بالشعر حتى مشارف القرن الحاضر ، حيث شهدت الساحة الادبية والثقافية عامة ، نهضة نوعية ذات نطاق واسع ، ذلك إثر الانفتاح العميق مع معطيات (الوافد) وثقافته التي احدثت تحولاً ملحوظاً في ميادين الادب والشعر بوجه خاص .

والواقع ان الفترة المتحدث عنها افرزت عدداً كبيراً من الشعراء الذين يشكّل البعض منهم وهما - لبنان والمهجر - اصداً صارخة للشعر الادبي الجديد في العالم العربي .

فيما يمثل البعض الآخر اصداً للاصداء المشار اليها مع الاقرار بوجود شريحة من الشعراء المتحفظين ، حيث شكّلت نتاجاتهم ما يمكن تسميته بالشعر (الاحيائي) ذات الطابع المشابه لعصور الازدهار الشعري أبان وجود الدولة العربية ، وكانت النجف في مقدمة الحواضر الأدبية التي انعكست عليها التيارات المذكورة ، فبرز على السطح الادبي شعراء كبار من أمثال : محمد جواد الشبيبي ، محمد باقر الشبيبي ، الجواهري ... وغيرهم أعادوا للشعر صولته القديمة في عصور ازدهاره .

كما انعكس التيار الحديث من حيث اساليبه في صياغة اللغة والصورة الشعرية ، متمثلة في شعراء من أمثال : علي الشرقي ، محمد جواد السوداني ، محمد رضا الشبيبي وسواهم .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، برزت تيارات أكثر جدة وعمقاً من خلال ترجمة الشعر الاوربي وانعكاساتها على مدرسة النجف ، حيث تمخضت الفترة المذكورة - فيما بعد - عن مجموعة من الشباب ، كانت أشدّ لصوقاً ، كانت أشدّ لصوقاً - بالنسبة

الى من تقدم عليها - من حيث تدميج العلاقات مع الثقافات الوافدة بخاصة ما قطعتة [الشعرية] - وقتئذ - من اشواط واسعة .

وكان مشروع المجموعة الجديدة ، يهدف الى نقد [الذات] وابراز الهوية ... ، كما سعت - عبر تدفق نتائجها الملحوظة - الى تقطيع اسلاك الجمود والانحسار وبعث روح التجديد والخلق كيما تفضي الى تغير الواقع وظواهره المنهزمة حضارياً واسلامياً .

والمجموعة المشار اليها ، تتألف من عدة اسماء لامعة ، أمثال : (مصطفى جمال الدين ، صالح الظالمي ، محمد الهجري ، أحمد الوائلي ، محمد حسين فضل الله ، حسين بحر العلوم ، محمود البستاني)^(١) .

يمكننا بعد هذه الجولة الخاطفة ، ان نفتح الحديث مجدداً لنتناول منحنيات (الجنبنة التجديدية) التي ألمحنا اليها سلفاً .

لكن ينبغي - هنا - أن نومي الى بعض الحقائق الهامة . فالملاحظ ، ان تجربته الذاتية قد خضعت لاعتبارات اكتسبها مزيداً من التفرد والذبوع مسجلة بذلك انغلاتاً ملحوظاً عن دائرة المجموعة المذكورة والتي كان الاتجاه الرومانسي يشكل طابعاً بارزاً لتأثراتها الشعرية .

وليس من شك ، ان تجاوزه لاطار المدرسة أو المجموعة المشار اليها ، حدث عبر عمليات مرهقة من التوغل المفرط بافرازات الحداثة واستيعاب تياراتها المختلفة مع ثوب ابداعاته الخاصة في تحريك عناصر الالهام الذاتية .

وللتاريخ نقول : - إن البستاني قد أسدل على ماضيه الشعري ستاراً من التناسي ،

(١) الملاحظ ان الشعر (الحر) في صعيد الشعر العربي قد ظهر في الفترة المذكورة ، إلا أنه لم يجد صدى في مدرسة النجف ، بل كان التجديد منحصرأ في صياغة القصيدة العمودية دون غيرها ... بالرغم من أن البستاني والهجري وفضل الله قد كتبوا في الشعر الحرّ ودلّوا على أمكانيتهم في صياغة النصّ الشعري الحديث.

وهو في الوقت الحاضر، لا يتجاوب مع كل من يحاول ان يذكره به) - ان عدداً كبيراً من النقاد خلعوا عليه ألقاباً، تمثل موضعاً هاماً من العناية، لمن يحاول دراسة الحركة الشعرية الحديثة في العراق.

فلقد نُعت : بـ (الشاعر الرمزي، الشاعر السريالي، شاعر النجف المجدد ... الخ). كما قد تناول أكثر من ناقد نتاجاته الشعرية بالدراسة والاشادة وإذ قد اتيح لنا ان نفث على بعض الحقائق المتعلقة بقضاياها الشعرية، حينئذٍ نعود للحديث عن التجديد في شعره.

وبكلمة مختصرة: ان ملامح التجديد في شعره، تتمثل عبر توفره بما يمكن تسميته بـ (اللغة الحديثة) ذات الخصائص العالية في مقررات الفن الحديث وطرائق الاستجابة السريعة لجماليات الكلمة والاسلوب : « فهو ممن سلك المنهج الحديث في شعره، فاللفظ العذب، والكلمة الموسيقية والاطار الخارجي، كل اولئك مما يستهويه في تصميم القصيدة »^(١).

ان خصوصية لغته الشعرية، تتسم، بتوليد العنصر الصوري وتكثيفه بشكل يمثل ظاهرة مذهشة لنتاجاته.

خذ على سبيل المثال هذه النصوص :

| | |
|-------------------------------------|----------------------------|
| ثم مجدٌ. واستفيق على الاصداء، | .. كالحرف هادراً في اللهات |
| كاختلاج النهار، ... يمشى على ترقيلة | الصحو، .. وانجلاء السبات |
| كانبهار الرمال، باغتها اللّيلُ، | ومسراً، .. بانطلاق الحداة |

| | |
|--------------------------------|--|
| الصدى الراعش الكبير .. فم | التأريخ، يزجيّه، ثم مجدّ الاباة |
| .. ثم مجدّ (الحسين). في ملعب | الاجيال، تياهة رؤاه اللواتي ^(٢) |

(١) فلسطين في الشعر النجفي المعاصر الدكتور محمد حسين الصغير، ص ١٩١.

(٢) الاضواء (مجلة) ص ٥١، العدد ٢، ١٩٦٠م.

فالنصوص المتقدمة تكشف عن تدفق الصورة الفنية بشكل واضح (فاستفاقة الشاعر على وقع الاصداء ، وهدير الحرف ، واختلاج النهار ، وانجلاء السبات ، انبهار الرمال ، مباغته الليل ، انطلاق الحداة ... الخ) .

أقول : ان ذلك كله ، يحكي عن ولادات خاطفة في مجال [استيلاد] الصورة التي تنتشع في ذاكرة المتلقي نكهة هادئة من حيث الالفة والطراوة والجمال ...

ومثل :

أأسكت تطوافي .. واذيع ريشتي؟!

وقد ، غمست ، بالمعطيات ، يدايا

وهاانا ، احيا .. نكهة الأرض ، والسما

اضاجع شطآنأ .. واهتف .. يا .. يا

واشرب انسامأ .. وألهث خضرة ..

وأغزل امواجأ .. تدر عطايا ..

اروح اظلالأ .. أعلّ جدولأ ..

اراشق اطيوارأ .. يعين صدايا

ومذ لم يعد . إلا خيال مجنح

وإلأ .. أغان ، ومضها .. شفتايا

لممت .. خيوط العطر ، أصبحها معي

ومن روعة الذكرئ .. تركت .. بقايا (١) .

هكذا تحتشد الصور في نصوصه بحيث يأتي البيت الشعري وهو محمّل بأكثر من صورة تنوهج بالطرافة والايحاء .

كما يحتل (الرمز) - وهو أبرز اشكال الصورة الحديثة - مساحةً كبرى في قصائده

(١) النجف (مجلة) تصدر عن كلية الفقه بالنجف الأشرف ، ص ٤٣ ، ع (١) ١٩٦٣ م .

عامة ، يقول في إحدى قصائده الخالدة :

في غدير الحياة عبر حكايا المجد لي وقفة وأشياء تروى
أتملى وفي حدائق أعصابي عصافير تملأ الدرب شذوا



يا (غدير) الحياة!! زنبقة الذكرى... لا يحاة الملايين مهوى

انا (طفل الأخرى) فهلاً، تدلي باكفي من (الشفاعة) حلوى؟! (١)

ان مفردة (الغدير) - المتكررة في القصيدة بأكثر من مرة - تكتنز في بواطنها دلالات متعددة يخبرها قطاع واسع من الجمهور المسلم... أنها تأخذ بمشاعرنا نحو أعظم حدث تاريخي، في ذاكرة العقيدة والولاء... الى (منصة) التتويج الالهي... الى الحلقة الثانية في مسلسل سفارة السماء على الأرض .

كما ان مفردته في (طفل الأخرى) المتزاوجة مع مفردة (الشفاعة) في اطار تدلي الأكف بـ (الحلوى) هي الأخرى صور رمزية حية في احياءاتها وتجلياتها الضخمة .

وثمة ما يميز قصيدته بشكل واضح ايضاً، ما كان يضعه في بعض قصائد ، من نص قرآني أو نص لأحد المعصومين ثم يجعل البناء العام حائماً حول مدلول ذلك النص الموضوع في أعلى القصيدة ومن المعروف ان الشعر المعاصر يعتمد أمثلة هذا الاستثمار للوثائق ومن المعروف ان الشعر المعاصر يعتمد أمثلة هذا الاستثمار أو الشخصيات أو النصوص ، إلا أن البستاني بدلاً من الاعتماد على النص الوثائقي أو الأسطوري ، قد اعتمد النص الشرعي في هذا الحقل . وقد تنبه الى هذه الزاوية بعض

(١) الاخاء (مجلة) العدد ، ٢٨ ، السنة الثانية ، ١ / ٧ / ١٩٦٢ م .

النقاد ، حيث ذكرني باب (قرأت العدد الماضي من مجلة الآداب البيروتية) على قصيدة له بعنوان (انتصار شاعر) :

[وأما « انتصار شاعر » ففيها نغم حاوٍ ، وانسيابية عذبة ... الخ . وفي القصيدة احياء بثقافة مباركة واطلاع للشاعر واسع وعليها الى جانب ذلك ، مسحة من اسلوب نواصي ناثر على التقليد داع الى الابتكار والخلق وعمران القصيدة بالحياة وانها بعد ذلك فكر وفكرة في لحن ... الخ]^(١).



من المناسب بعد ذلك ان نعرض لما أورده أحد الكتاب (صلاح الدين جواد) في دراسته الموسومة (الذكريات عند الشاعر الروماني) حيث تناول في دراسته ابرز شعراء العراق المحدثين أمثال : أكرم الوتري ، عبد الوهاب البياتي ، نازك الملائكة ، محمود البستاني ، لما تمتاز به تلك الدراسة من عمق وكشف وجدة في رصد الدلالات وتحليلها وفق أدوات النقد النفسي .

يقول : (لكن هذا لا يعزلنا عن نسائم اخرى بعبير الكفاح والصمود في لهيب النضال والمعركة عند الشاعر (محمود البستاني) وهو يجسد لنا بهذا الموقف ، التفاعل الخلاق بين الادراك والظواهر الخارجية المحفزة المثيرة - إذ أنه يبعث بذكرياته - على لسان (ناثر جزائري) بعثاً خلاقاً ، وهو في رحلة من رحلات التأمل والحضور الداخلي ، أثناء المعركة وعندما تُعرّش أمام اصغائه أفاويق الخطرات ، وهي حالة ميتافيزيقية غير واعية ، يخلع عليها الشاعر حركاته وانفعالاته الوجدانية دون وعي فكري فلسفي خالص) .

جناحان من خطوات الصباح

يطيفان بسي كل حقل وساح

(١) الآداب البيروتية (مجلة) ، العدد الثالث ، آذار - مارس السنة (١١) ، ١٩٦٣ م .

ولنبداً بتفسير وتحليل التجربة فقط!

خبطان من خطوات (الأعماق) يهومان بالمكان الذي يحدد وجود الشاعر الى
أبعد الحدود كحالة لا واعية مولدة ، هذان الخيطان تسدهما أرضية الوعي الفردي
بمراكز التوليد في العالم الخارج و (الغيب) ، ولذا يبرز المثال ، وهو يتملى الأمل
الحالم فيعين عن (الجناح) عندما يفتض (كبريات الرؤى) .

يلوُّحُ لي... والشذئ حاشدُ

تلأوينه في خيوط الصباح

كما لوحت كبريات الرؤى

بأروع ما نسجت من طماح

فإذا ما أردنا أن نفتح الاعماق بدفقات التحسس العنيفة عند الشاعر فانتا لانبارح
طبيعة الذكريات الحمراء ...

من وهج الكفاح وهي تتضمخ بعبير المطلق ، في خلوة من الزمان والمكان
آنذاك ، ومن هنا وعند وقفة المباح المطل تندفع وشوشات علوية ومن شرفات
النجوم .

كما لوحت شرفات النجوم

بما خبأت من رؤاها الصباح

هذه الشوشات كرمز الى الأفكار والآمال المتزاحمة في دنيا النضال من أجل
الحرية . تلوُّح بان تهتم في اقتحام الجدار .

يلوُّح لي ان خلف الجدار

أفاويق من صبوة وانسراح

وما ان افتضت ستائر (الاحتباس) كمرحلة نضالية لابد من تنفيذها ، انفلتت
تجليات الحاضر الجائع ولا شيء؟ الى خبز (الأمن) و (الاستقلال) .

أفاويق ما أفنضهن التملّي

تُملّيك الا غفى واستراح

وبعد نزوج هذه الرحلة الذاتية المتعبة في وحدة (المضمون) والتي اكتشف شاعرنا بواسطتها مجاهل الرؤى والذكريات كعالم يلتذ في مناخه ، بعد هذا نستطيع ان نوصل الى مهمة التجربة (ككل) ومعرفة وظيفة الذات الشعرية وهي تسترسل في املاء المعاناة الداخلية حيث يتم (الركون) على الجناح - كأرض للتحليق في المطلق وفي معبد التلاوين ، وحيث تُعرّش لفئات الرفيق والوميض على أنها بوارق النصر - هذه النظرة الحدسية في فض الاشياء - كعالم قابلة للخلق من جديد ، وممكنة الحركة ، فلم تحدث بفعل الاستغراق فقط ، وانما الكشف عن طبيعة الرموز والظواهر الخفية ، للقضايا الايدلوجية كيما يحدث التمازج الخفي بين العالم الخارجي بمواده القابلة للتفاعل ، وبين الحدوس الداخلية - كفعاليات وجدانية خائفة - داخل عملية التأسيس للتجربة الشعرية ، لذا يبقى (الثائر الجزائري) مواصلاً رحلة الحضور الداخلي^(١).

فمن سدرة المنتهى رفرت ومن ومضات الخلود انفتاح

يُلَوِّح لي شقُّ هذا الجدار وفكٌ مسغاليقه بالكفاح

ومن ثمّ في نشوة الحاملين أطلّ على حقله المستباح



الاسهامات الإصلاحية :

يحتفظ الحقل الصحفي برصيد ضخم من اسهامات البستاني في صعيد الشعر

(المؤدج) الهادف الى الاصلاح الاجتماعي بحيث يترأى لنا - ونحن نرفع غبار أربعين عاماً من القرن الحالي عن الحقل المذكور - اننا أزاء شخصية سياسية مجنحة ، تعيش الوعي السياسي بحظوظ فعال .

فمع بدأ ما يطلق عليه بالوعي السياسي الاسلامي أو معركة الذات والدفاع عن الهوية الذاتية ، تتحدد بوجه الدقة بداياته الشعرية التي أطل بها على الوسط الاعلامي والثقافي معاً - وان كان هناك بعض الجوانب التي برزته لدى المثقفين كشخصية لها دورها المتميز .

غير ان المجال الشعري يظل أوسع نافذة عرف من خلالها البستاني هذا من جانب ومن جانب آخر فانه يضل أيضاً القناة التي مارس عن طريقها (بث) الوعي الاسلامي ، فلقد انصبّ خطابه الشعري على التضامن الحي مع البلدان الاسلامية كما دعا الى التحرر والاستقلال من هيمنة ونفوذ القوى الاستعمارية التي تربعت وقتئذ على قلب العالم الاسلامي .

ومن نماذجه التي يتصاعد بها روحياً مع معطيات الاسلام :

| | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| ما أحبّ (الاسلام) ينتظم الكون | .. بحبات عقده المشتهية |
| تترأى الحياة في ظله الأمثل | .. دنياً .. مخضلة السمات |
| تلفح الانفس الظماء .. | بألوان شذاها ، قدسية النفحات |
| عندها تُهرغ النفوس .. | وتهتز طموحاً الى ذرى الانفلات |
| نحو ماذا!!! نحو الحفاظ على الكنز | المفدى .. نحو الطموح المؤاتي |

ويطوف الشاعر بعدها على مثل هذا النسق المرفّل بتداعيات الوعي الاسلامي ليصل الى المقطع الأخير من قصيدته حيث يفصح عن مقابلة الذات مع المثل المقدّس متجسدةً في ذلك مشاعره المختزلة على لوحة من الانسكاب الغنائي العميق .

يقول :

أُثِّها الثائر الكبير!! ويشجيني
ألف إبحاءٍ.. تطوفُ،، ولن
كنت تدعو :

(الدين إن لم يقم إلّا
أي جدوى؟! ألا نسير على هدي
أترانا،، نشذ عن دربك الواعي،،
أن ديناً،، ترشه شفة الله،،
روعةُ الجدِّ، تستريح بجنيبه،
لست أرضى، إلّا بأشراقه(القرآن)
كل إشعاعه أنامل خير
ها هنا، معبرٌ يسيلُ به العدل،
وهنا موكبُ (المساواة) لم
و(الأخاء) العظيم، مزرعة
لست أرضى إلّا بأفئانها الفن
والذي يستريح في خيمة الظل

قصيدٌ مدمدمٌ،،، بالشكاة
أرضي بمحض الإيحاء والذكريات
بقتلي فيا صوارمُ هات
نجواك،، في صراع الحياة
ونحتث،، عن خطي منكراتٍ!
لدين.. يسمو، على اللهوات
فهلا نعيه! بعد افتئات
تجلو، آفاقنا الداجيات
تزع الضوء، في شتيت الجهات
فلا الحيف باحثٌ عن قناة
يزحف على دربه انحياز السراة
تنبث لو شئت أخلد الحسنات
ونعمي أظلالها الوارفات
أبخش لفتح الهجير العاتي؟^(١)

ولنستمع الى زمجراته وهي تخاطب الرسول الأعظم في ذكرى مولده المبارك :

يانبي الهدى!! معاذُ الهدى، أن
غير أنا - وعربدات الخطايا
نتغذى على أناملك السمحاء
وسنبقى، نعلٌ طهر التعاليم..
لنشق الحياة، جسراً، الى الأخرى

نتخلّ،،، عن (دينك) المرموق
تبارئ وهدهدات المروقي
..، لم تنكمش على التضييق
لرفع التقى، وواد الفروق
.. وكيلاً، نتيه، شأن الغريق^(٢)

(١) الأضواء (مجلة) ص ٥٢، ع ١٩٦٠.

(٢) الأضواء (مجلة) ص ١٩٥، ع ١٩٦٠.

ولنا أن نتملى موقفه الصريح مع الكافر المستعمر وتضامنه العميق مع الشعوب المسلمة..

| | |
|----------------------------|--|
| يا - فرنسا - امعني في الغي | في الفَتْك في البطش . برَبَاتِ الخدورِ |
| بالقوى آمنة ، نام على | صدرها ألف صَغير وصغير |
| حالم باللهو تنساب على | جفنيه . اشراقهُ الحُلُم النضير |
| ولتكن - مجزرة - هائلة | عتقي من دمها . أشهى الخمور |
| وليبيت يقات من اشلائها | من بلاد - السين - من أرض الفجور |

| | |
|---------------------------|--|
| معقل الثوار!! ياركب الضحى | يا صراخاً . يتعالى للنُور |
| مالنا نحن . سوى أن ننحنى | لك اجلالاً لصرعاك البودور |
| واحتجاج صارخ نقذفه | صمماً ملتهباً .. عبر الأثير |
| هذه اكبادنا ... نحملها | لضحايا العز ... والمجد الخطير |
| ألف مرحى للدما زاكية | تحمل العباء على متني العصور |
| والى فجر الخلاص المرتجى | تنقل الخطو وتمحو كل نير ^(١) |

والواقع ، ان خطابه الشعري المذكور ، يقع ضمن تيار عام . كان يقف بوجه المواجهة المصيرية مع المعسكر الالحادي الذي زحف على المنطقة عسكرياً وثقافياً .

وكان من جملة عناصر التيار المجاهد - عن طريق الكلمة والقلم - مدرسة النجف الأدبية ذات الأصالة والصدارة . وصاحبة المواقف الخالدة في تاريخ الجهاد المعاصر .

ويمثل هذه المدرسة الواسعة شخصيات اسلامية ضخمة ، أمثال : الفرطوسي ،

(١) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي عثمان سعيد ، ص ٣٦٣ .

اليعقوبي ، الهاشمي ، جمال الدين ، الوائلي ، وغيرهم . حيث كانت لمشاركاتهم أصداء عميقة في ضمير الشعوب الثائرة وقتئذ .

والحق : ان هذه المشاركات مع أهميتها البالغة ، كان يعوزها الاطار الذي تنتظم داخله ، لتعبّر عن استقلالية الموقف وتميّز الدور ذلك لكونها قد صدرت عن رموز تنتسب الى أعرق حاضرة اسلاميّة .

فللأسف الشديد ، أن كثيراً من النتائج التي تتبعنا تأريخها - لهولاء الأقطاب - قد أخذت طريقها في النشر من خلال قنوات لا تتقيد بالالتزام الاسلامي الكامل ، مما أوقع الكثير في الالتباس والتساؤل!! حيث أنّ هذه الفترة - بالذات - غائمة بعموميّاتها المكثفة وفي تصوّري أنّ أحداً من الباحثين لم يقترّب من دائرتها لحدّ الآن ، بالرغم ممّا تحمله من خطورة تاريخية ، ظهرت بها مدارس وتيارات فكرية مختلفة ، كانت قد ساقّت بالأحداث السياسية - في العراق - إلى منعطفاتٍ من أبرز معالمها ، الوضع المعاصر في العراق ، بل وضع المنطقة الجغرافية عامّة . لذا أنّ مفاهيماً عديدة ، كانت متداخلة فيما بينها ولم تبلور بشكل واضح وصريح إلا بعد برهة من الزمن . فتجد على سبيل المثال : أنّ كثيراً من جوهريات المفهوم الإسلامي كانت تصاغ ضمن سياقات الخطاب القومي العربي والعكس كذلك ، ومن الجانب الآخر كان الخطاب الاشتراكي في بعض الأحيان يعتمد جزئيات المفهوم الإسلامي نفسه ، وهكذا استمرّ التشابك الخطابي مدّة ثلاثة عقود من الزمن من الثلاثينيات وحتى أواخر الخمسينيات ، ممّا أدى إلى تحويل الشارع العراقي إلى حالة من التذبذب الأيديولوجي الخطرة .

من هنا فإن بروز [جماعة العلماء] على السطح الثقافي بمجلته المباركة [الأضواء] يشكل حدثاً هاماً في تاريخ الصحوة الاسلامية في العراق ، حيث وحدّت جميع من ينتمي للاسلام فكراً وعقيدةً ونظاماً . ومعلنةً عن الرؤى الاسلامية الخالصة في زحمة التيارات الوافدة بآلياتها المنحرفة ، ومنذ ذلك الحين بدأت مشاركات البستاني

- بالخصوص - تندفق عبر الاصدار المشار اليه ، متلاحمةً مع عمالقة الفكر الاسلامي المعاصر ، أمثال : الصدر ، زين الدين ، فضل الله ، محمد جواد مغنية ، شمس الدين ، الحلفي ، القرشي ، الأصفي ، آل ياسين ، والصدر أيضاً ^(١) .

عوداً على بدء :

فيما سبق ، حاولنا أن نلمح الى أهم العوامل التي صعّدت من ذبوع شهرته الشعرية .

يبد أن ثمة انتقالة مفاجئة ، حدثت لمساره الشعري ، أدت الى عزله التامة ، وجعلته يقف إزاء الشعر موقفاً سلبياً .

وتحوّله المذكور ، يشكّل منعطفاً كبيراً ، ترك انعكاساته على مجمل حياته الثقافية والرؤيوية عامة ، كما يشكّل أيضاً مصدراً من مصادر الجدل النقدي الذي حرك مفاعيله عددٌ ليس بالقليل من المعنّين بقضايا الشعر والنقد ...

والواقع ان الشرخ الذي أحدثه البستاني - جراء عملية نقده المستمر - يعدّ صدمة حادة في كيان الشعر وفاعليته التي احتفظ بها طوال وجوده على سطح الخارطة العربية .

وان كان هناك من سبق البستاني في عمليّة نقده للشعر أخص بالذكر منهم الباحث الاجتماعي الشهير (الدكتور علي الوردي) حيث حمل على الشعر حملات عنيفة . نكتطف - بهذا الصدد - بعضاً منها :

(الواقع أننا من أكثر الأمم ولعاً بالشعر وأنهماكأ فيه - ان لم تكن أكثرهم على الاطلاق - وهذا في رأيي من عيوبنا الاجتماعية أو هو بالأحرى من مظاهر التناشز الاجتماعي فينا . فنحن نريد ان نسير في مضمار الحضارة الحديثة ولكننا في الوقت

(١) اشارة الى السيد محمد الصدر صاحب موسوعة (الامام المهدي) . وان كانت هناك مشاركة واسعة للسيد موسى الصدر في المجلة ذاتها .

نفسه نصر على المحافظة على تراثنا الشعري الذي هو على طرفي نقيض مع نظم الحضارة ومقتضياتها . ان ولعنا المفرط بالشعر تراث بدوي نشأ فينا منذ أيام الجاهلية حين كانت القبيلة تحتفل بنبوغ الشاعر مثلما تحتفل بنبوغ الفارس الشجاع . فالشاعر يقاتل عن القبيلة بلسانه كما يقاتل الفارس بسيفه ...^(١) .

ويستمر الوردي في بحثه المفصل ، لينتهي ان الشعر حالة غير حضارية ، لكن ذلك . يظل - في تصوري - أخف شدة من موقف البستاني المضاد ، اذ قد توسع الآخر في طرح ملاحظاته عليه ، ومن زوايا متعددة أبرزها : النفسية ، والشرعية وان كانت الأخيرة - الشرعية - أكثر تناولاً من غيرها لكونها مفصلاً هاماً في تحديد الظواهر واضفاء المشروعية عليها ، يقول البستاني في حديث طويل :

(وجاء الاسلام ، فأقر هذا الشكل الفني ... بيد أن الملاحظ ان الاسلام - في الآن ذاته - وقف (متحفظاً) حيال الشعر ، وهذا أمر يستوقف الباحث حقاً ... من الممكن أن يجيب البعض بسهولة بان الطائفة المانعة عنه ناظرة الى الشعر المنحرف مثلاً ... بيد أنه يمكن القول بأنّ قضيتي الالتزام أو الانحراف لا تنحصران في فنّ الشعر فحسب بل تنسحبان على مطلق الفنون (الخطبة ، الخاطرة ، المقالة ... الخ) فلماذا يتجه المنع الى الشعر فحسب ؟

يضاف الى ذلك ، ان هناك طائفة ثالثة من النصوص (تحفظ) حتى حيال الشعر الملتزم اسلامياً حيث تمنع من انشاده في أزمنة وأمكنة خاصة . كما ان تنزّه (النبي ﷺ) عن ذلك (من خلال الآية الكريمة التي تقرر بانه (لا ينبغي له)^(٢) ، يعزز (التحفظ المذكور مما يعني أن هناك (سرّاً) وراء ممارسة الشعر مقترباً بما هو

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الدكتور علي الوردي ، ج ١ ، ص ٣٠٧ - بحث بعنوان الشعر والحضارة - ، ويراجع أيضاً كتابه الموسوم (اسطورة الأدب الرفيع) حيث يلقي بالانارة - عبر الحوار الذي أجراه مع الدكتور عبدالرزاق محيي الدين - على جوانب متعددة من قضايا الشعر .

(٢) اشارة الى قوله تعالى ، (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين) سورة يس ، الآية ٦٩ .

سلبى من السلوك (المصاحب للممارسة المذكورة ...) .

ان المعنيين بشؤون الفن والتفسير والفقه ، يحاولون تقديم أكثر من وجهة نظر في هذا الصدد ...

وفي تصورنا ان هذه الأسباب مجتمعة ساهمت في ظاهرة (التحفظ) الاسلامي حيال الشعر ... بيد أن الأهم من ذلك هو ان ارتكان الشعر أساساً الى كونه استجابة (انفعالية) خارجة عن حدّ الاعتدال هو الأمر الذي يمكن ان نلتمسه تفسيراً للموقف الاسلامي (المتحفظ) حيال الشعر ...)^(١) .

التأسيس في عملية التجربة الشعرية : (انطلاقاً من المقولة الداهية الى ان الانسان ، ينبغي عليه ان يمارس دوره العبادي في الحياة .

حينئذٍ ، ان أي نشاط يصدر منه يتعين عليه ان يكون هادفاً ، وعندما كتب الشعر ... توصلت الى ان الشعر لا ينطوي على فائدة ضخمة بقدر ما تتحقق فائدته في نطاق ضيق جداً .

كما لا يستطيع ان يحقق الهدف الذي يسعى الانسان اليه عبادياً . مضافاً الى ذلك ان الشعر يعدّ تعبيراً عاطفياً عن الحقائق ، والاسلام في الواقع ، يطالبنا بان نتعامل عقلياً مع الحقائق وليس عاطفياً .

صحيح ان العاطفة ضرورة لا مناص منها ، إلا أن منها ينبغي أن تستخدم في نطاق محدود بحيث لا تطغى على العقل) .

ولهذه الأسباب وغيرها ، وجدت أن هناك نشاطاً آخر ، يمكن أن يوظفه الانسان لتحقيق المهمة العبادية في الحياة ألا وهو عملية النقد الأدبي^(٢) .

(١) الاسلام والفن ، الدكتور محمود البستاني ، ص ٣٣ .

(٢) حوار خاص اجريناه مع الدكتور .

في نهاية حديثنا عن الشعر وموقفه منه نذكر بعض الأبيات من آخر قصيدة كان البستاني قد ختم حياته الشعرية فيها . ويلاحظ أن القصيدة المذكورة ينتظمها طابع جديد يختلف عما هو معروف عنه من حيث الغموض والضبابية ، حيث جعلها خطابية لا تعبر عن أسلوبه الفني ، بل جعلها بصورة ساخرة على هذا النحو :

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| عشرون عاماً ان نجع ننهذ إلى | كلماتنا: كلماتنا الجوفاء |
| نصفغ بها وجه الأثير فينثني | شدة الأثير بضحكة استهزاء |
| حتى إذا التحمت معارك أمينا | وتلفعت بالراية السوداء |
| غدنا بنفس قصيدة عصماء | وبنفس قافية ونفس خواء |
| وكان أوتار القصيد تألّثت | عجلاً نقده بكل غباء |
| عجلاً له جسد جميل رائع | وله خوار السادة الشعراء |

ويما أن القصيدة قد ألقيت بمحفل الرابطة الأدبية بالنجف الأشرف وكان يضمّ الحفل جمعاً من الشعراء ، قدموا الى النجف من كافة أنحاء العراق . حينئذ أرتجل الشاعر النجفي المعروف الدكتور محمد حسين الصغير ، قصيدة يردّ بها شيئاً من الاعتبار بالنسبة للشعراء ...

كان مطلع قصيدته التي يلاحظ فيها أنها نفس قصيدة البستاني من حيث الوزن والقافية :

محمود يا وجه السنا الوضاء ياكوكب الشعراء والأدباء

وبعد أن يمضي على نسق هذه الأبيات ... يحاول أن يدفع المسؤولية عن عاتق الشعراء ليخلعها على السياسيين والعسكريين ، حيث جاء منها هذا البيت :

الأمر ليس بكفنا يا سيدي الأمر للزعماء والعقلاء



الفصل الثالث

الحقل التفسيري

والنشاطات القرآنية

الحقل التفسيري والنشاطات القرآنية

يشغل الحقل التفسيري حيزاً واسعاً من اهتمامات المؤسسة الاسلامية قاطبة ، فان نظرة سريعة الى ناحية (الموروث) الفكري ، تكفي باعطاء تصور عام يتكفل بتوضيح نوعية الدور والفاعلية التي يتمتع بها ، كما ان أبسط عملية (رصد) للنتاجات المعاصرة تنتهي بنا الى ان الحقل المذكور لا يزال يحتفظ بحيوية فائقة بحيث تجعل من المعني بقضايا الفكر الاسلامي متحمساً ومتحركاً نحو اسهامات مضافة ، حتى أصبحت الممارسة التفسيرية هدفاً يخطط له كل من يبغي ان يضع اسمه في مصاف الخالدين اسلامياً .

بيد أنّ الجانب المهم أو ما يعنينا من الموضوع ذاته ، ان نتعرف على الأعمال الجادة - مادام الحقل المشار اليه يزدحم بالمشاركات المتعددة - وبكلمة أكثر تركيزاً الوقوف على الأعمال التي أضافت حقاً للحقل التفسيري أبعاداً وعناصر تمّ اكتشافها من خلال التجربة المستقلة ، فان المتتبع لمناهج الحقل المذكور يلاحظ ان خطأ متوازياً يمتدّ منذ الانطلاقة الأولى لعملية التفسير وحتى العقود المتأخرة باختلافات يسيرة من حيث النهج العام ، مما جعل الأعمال التفسيرية متّسمةً بنمطية واضحة يتوكأ فيها المتأخر على المتقدم بحيث يصعب في بعض الأعمال ان نقف على الفوارق التي تميزها عن نظائرها لشدة التطابق والتشابه فيما بينها .

طبيعياً : أننا لا نقصد في حديثنا هذا العموميّة المطلقة ، فثمة أعمال برزت من خلالها القدرات العالية في تطعيم الحقل التفسيري بادوات ثقافية متنوعة بحيث

اتّسمت بالجدة والتنوع مما جعلتها تسهم باضائة النص القرآني وابراز كنوزه المعرفية والجمالية .

ولا تغفل أنّ نهاية النصف الأول من القرن المنصرم وبداية نصفه الثاني قد شهدت ولادات أصيلة تمكّنت من طرق أبواب النصّ القرآني بأدوات ومفاهيم مبتكرة من خلال توفّر أصحابها على ثقافات متنوّعة جعلتها قادرة على إنارة مسالك جديدة في عالم الدراسات القرآنية ممّا ساعد المتأخرين عليهم أن يساهموا في تطوير مشاريعهم التي عبّروا عنها عبر إشارات خاطفة وردت في دراساتهم للقرآن الكريم ، تلمح بمؤشّرات تأسيسية في الدرس القرآني الحديث بخاصة أعمال الشيخ عبد دراز والسيد قطب والشيخ شلتوت ومحمّد الغزالي ومحمّد مبارك^(١).



ان طرائق مفسري النصوص القرآنية الكريمة ، يغلب عليها عامة المنهج (التقطيعي) أو ما يصطلح عليه بـ (التفسير التجزيئي) .

غير ان في العقود المتأخرة من القرن الحالي ، شهدت الساحة التفسيرية محاولة جديدة لتشيّد اتجاه جديد يُدعى بـ [التفسير الموضوعي] قام بها المفكر العظيم السيد محمد باقر الصدر وفيها حاول دراسة الموضوعات والظواهر المتعلقة بالكون والانسان والحياة منطلقاً من ذات الحدث أو الموضوع الى أعماق النصوص التي تحمل اشارات ودلالات تتصل بتنوير الفكرة المطروحة . يلاحظ ان الصدر حيث قدّم نموذجاً لهذا التفسير ، يتمثل في ظاهرة (السنن التاريخية) في القرآن الكريم ، مفسراً من خلالها (ظاهرة الدين) حيث اعتبرها سنة تاريخية في هذا الميدان .

(١) للاستزادة في معرفة تلك النتائج ، يمكن الرجوع للدراسة التي أعدتها مجلة قضايا معاصرة في الملف الخاص عن مناهج المفسرين ، فقد قدّم الباحث (الذي أعد الدراسة) مسحاً شاملاً رصد فيه أبرز الأعمال في هذا الميدان. العدد الرابع ، سنة ١٩٩٨ .

لم ينجز على الصعيد المذكور سوى [محاضرات] توضيحية لبداية مشروعه أي مدخلاً للتفسير والحق ان التفسير الموضوعي وجد انصاراً ومؤيدين بحيث ظهرت الكثير من الأعمال التي تحاول ان تسلك الخطوات التي قدمها [الصدر] في منهجه المتقدم .

اعقب الاتجاه الموضوعي اتجاه مبتكر أحدث انعطافة كبيرة في مسار الحقل التفسيري حيث أخذ بالتفسير القرآني الى آفاق لا عهد لها بها مستخدماً بذلك أنماطاً حديثة تمتاز بأكثر من معطى معرفي .

الاتجاه الجديد يُدعى بـ (المنهج البنائي أو العضوي) وهنا تجدر الإشارة الى ما جاء في مجلة (قضايا اسلامية) في عددها الخاص بمنهج المفسرين حيث عهدت إلى صاحب المنهج المذكور، أن يحدّثها عن المنهج ، ومهّدت لذلك بالقول : « المنهج البنائي في التفسير منهج حديث قائم على دراسة السورة القرآنية من خلال الهيكل الهندسي العام لها ، حيث يتناول السورة في ضوء ترابط آياتها ، واتساق موضوعاتها وعناصرها الفنية بعضها مع الآخر وهذا المنهج اضطلع به الدكتور محمود البستاني في دراساته القرآنية المنشورة ، وطبقه على تمام النص القرآني في تفسيره « عمارة السورة القرآنية »^(١) . كما تجدر الإشارة أيضاً لما جاء في تعريف أحد الادباء المعروفين (للدراسة التي قدمها الباحث كنموذج لمشروعه الكبير : « بعد جهود طويلة في ميدان البحث والدراسات الأدبية يظهر الى المكتبة العربية هذا البحث الأدبي الرفيع الذي يتناول بالدراسة والتحليل الناحية الفنية في النص القرآني - التركيب الفني وبناء الصورة - حيث يستلهم المؤلف تجربته الأدبية كشاعر وناقد من طراز رفيع كان له موقع من مواقع الريادة في مجال التجديد الأدبي بحثاً وابداعاً .

من هنا كانت دراسته (دراسات فنية في التعبير القرآني) حدثاً أدبياً هاماً ومعاينة قرآنية فذة تعلن فرادتها واصالتها رغم كثرة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم من هذا الجانب .

وتتجلى - أكثر - ما تتجلى عناصر الابداع لدى الكاتب عندما يقدم لنا السورة القرآنية كبناء متكامل تتدفق من خلال آياتها شفافية البث القرآني وتكامل الحدث في حركته عبر السورة والآية والامكانات الهائلة التي يزخر فيها التعبير شاقاً بذلك - آفاقاً حيّة وجديدة لكل من يريد ارتياد هذه المعاناة الكبيرة .

في ظل هذه الدراسة يتاح للمثقف المسلم ان يضع يده على كنوز جديدة في قرآنه الخالد .

وأخيراً فان هذه الدراسة تقدم لنا القرآن ... الفن ... القرآن ... التفرد ... القرآن ... المعجزة ... (١) .

قبل ان نبدأ بتعريف المنهج وتوضيح مفاصله الاساسية ، ينبغي ان نتطرق الى اتجاه نقدي عام يُعرف بـ (البنيوية) حيث يُلاحظ ان (التفسير البنائي أو العضوي) يتفق مع (البنيوية) من زاوية المصطلح وبعض الجزئيات المتمثلة بالعناصر والأدوات وان كان الاتفاق المشار اليه لا يشكل انطباقاً شاملاً .

والبنيوية - كما هو معلوم - مدخل من مداخل النقد الأدبي الحديث [ولم يكن الأدب في البداية يقع ضمن اهتمامات (البنيوية) أي أنها في الأساس ليست منهجاً نقدياً ولكن النقاد الأمريكيين جعلوا منها - منذ أواسط السبعينات - منهجاً نقدياً يحمل طابعاً علمياً وعلى ذلك أصبحت أسماء : سوسير ، وستراوس ، وبارت ، وجاكسون ، وجولدمان ... هي الأسماء الأكثر تردداً في مناقشات النقاد ، بل وفي

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني للدكتور محمود البستاني (يلاحظ التعريف الذي أورده صاحب الدار -

اي الأديب المذكور) دار الهادي ، بيروت ، ١٩٨٠ .

مناقشات كل المشتغلين بالدراسات الانسانية في كل من اوربا وأمريكا ثم توالى أجيال النقاد البنيويين ومنهم ... فشرحوا مبادئها وطوروها وذلك عن طريق تطعيمها بفروع نامية اخرى^(١).

وأما من حيث الجوهر الأساس فيمكننا ان نحددها بما يلي (البنية هي : النسيج الجمالي الذي تنظم فيه مفاصل النص في مستوياتها السردية والذهنية ، بعلاقات تشكابكية ومنسجمة ومؤولة ، تركيبياً ودلالياً وتداولياً)^(٢).

ومزيداً من التوضيح نذكر النص الآتي :- (ولا نمانع من أن نأتي بمثال من خارج اللغة ثم نأتي بمثال مواز له من اللغة ولنص مفترض ... وليكن مثالنا المأخوذ من خارج اللغة ثوباً!! فالمعروف ان المواد التي تدخل في نسيج الثوب هي الاقطان ، والأصواف ... الخ وهي المواد الخام ، اما المواد التي تشكل بنية الثوب فهي الخيوط المنسوجة من الاقطان أو الأصواف أو غيرها ... فالمواد الخام توازي (اللغة) عند (سويسر) والمواد التي تشكل بنية الثوب توازي الكلام وعمل النسيج يوازي الابداع في الكلام)^(٣).

فالملاحظ ان أي خلل أو محاولة غير مدروسة سوف تؤدي الى فشل التجربة وزعزعة أهدافها المرسومة . (إذا لم تكن البنية منتظمة فقد لا تشكل بنية وفي أحسن الأحوال تشكل بنية منهارة ، فلور ركب النسيج مواد غير منظم كأن يجمع الأزرار في كلها في اسفل الثوب والأكمام مكان الرقبة .. الخ على الأرجح ستكون بنية الثوب مضحكة كذلك لو طرح المبدع شخصيات النص وازمانه وامكنته وحكايته طرحاً اعتباطياً ستكون بنية النص مخلخلة وغير مقبولة)^(٤).

(١) عالم الفكر (مجلة) العدد الثالث والعشرين العدد الأول والثاني ، ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٣٢ ، بحث بعنوان (بنية النص الكبرى) د . صبحي الطعان .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣٤ ، بحث بعنوان (بنية النص الكبرى) د . صبحي الطعان .

والملاحظة الجديرة بالذكر: أنَّ البستاني لم يقتصر بدراساته القرآنية على الاتجاه المذكور فحسب، بل يلاحظ أنَّ ممارسة كشوفات بينصية النص في أعماله القرآنية تفتح في بعض السياقات على نمط نقد آخر يدعى بـ (اتجاه ما بعد النبوية) أو ما يصطلح عليه أيضاً بـ (التفكيكية) وآلية الاتجاه الاتجاه (التفكيكي)، تتمثل بتفكيك عناصر (النص) وإضاءة دلالاته ورموزه من خلال إدخال المتلقي كعنصر فاعل في العمل الإبداعي، من دون إغلاق النص بدلالات يحددها المبدع الأصلي أو يحددها النقاد من أجل محاولة إثراء النص بأكبر قدر من الإبداع الذي تفرزه نقدية المتلقي الخاصة. لكن الباحث يفتقر عن أصحاب هذا الاتجاه عندما يؤكد منظروهم على مسألة (اللانهاية) المفضية بطبيعة الحالة إلى النتيجة العبثية المشهورة بـ «اللا يقينية» المعرفة حيث تجرد العملية الإبداعية من كل معنى هدفي وهذا ما لا يتوافق مع التوجه الإسلامي أبداً. لذلك تبقى إفادته من معطيات المدرسة المذكورة في حدود تعددية الدلالة التي يكتنزها النص، ولا شك أنَّ في مثل هذا النوع من الإفادة ما لا يمكن أن تطوله الملاحظة السلبية بل على العكس تماماً يمكن أن يدعم بعدة نصوص شرعية كما في تفسير (الظلمات والنور) أو (الخير والشر) وغير ذلك من النصوص، حيث يستطيع المتلقي أن يتوقر على أنواع متعددة من مصاديق كل من الخير والشر أو الظلمات والنور. مع التأكيد على أنَّ هذه العملية النقدية أو الكشفية تتناول من النصوص القرآنية ما هو قابل لهذا النوع من العمل أو من النصوص التي لم تحدد دلالاتها بشكل ثابت وقطعي من قادة التشريع الإسلامي^(١).

منهجه في التفسير :

نعود الى دائرة الموضوع حيث التفسير وادواته وطرائق موضوعاته التي يتألف منها منهجه بشكله المتكامل .

(١) الاسلام والفن ، ص ٦١ ، الدكتور محمود البستاني .

والملاحظ ان (التفسير البنائي أو العضوي) يقع ضمن شبكة واسعة من الآليات المخطط اليها سلفاً بحيث تزدحم الظاهرة (البنائية) بعناصر وادوات مدهشة في جوانب التناغم والاتساق والانتظام الحاصل فيما بينها من تداخل الموضوعات وتواصلها وقابلية نموها المشابه لنمو الكائن الحي الى غير ذلك من الفاعليات الدالة على جاذبية المنهج المطروح وضخامة نوعيته التي سنتوصل اليها في تضاعيف دراستنا للمنهج نفسه .

يشير الباحث الى الدافع أو المحرك الذي يدعو المفسر من تناول البنائي للسورة القرآنية الكريمة بقوله : (فان الحافز الذي يدفع الدارس الى تناول النص القرآني الكريم في ضوء بنائه الهندسي أو العماري أو البنائي هو : ملاحظته بان القرآن الكريم مادام قد (انتظم) في (سور) فيما بلغ عددها (١١٤) حينئذٍ فلا بد من (اسرار) خاصة تكمن وراء ذلك ، وإلا كان من الممكن ان (ينتثر) آياتٍ وليس سوراً ، مما يعني أيضاً ان السّر لا ينحصر مثلاً في مجرد تيسير عملية القراءة بقدر ما يتجاوزها الى اسرار اخرى يكتشفها المتلقي حينما يتاح له ان يدقق النظر في ذلك .. ولا أدل على هذه الحقيقة من ان النبي ﷺ - كما تذكر كتب السيرة - كان يأمر كتاب الوحي بان يضعوا هذه الآية أو تلك في الموقع الفلاني من السورة مما نكتشف من خلاله ان ثمة (اسراراً) وراء ذلك ... وهذا وحده كافٍ بان يدفع الباحث الى دراسة الجانب المشار اليه)^(١) .

ان المؤلف عبر اهتماماته بالمنهج العماري لم يقف عن حدود الجمال الفني بل وظّف الاتجاه المشار اليه من أجل الكشف عن القيم والمبادئ العظيمة التي ينطوي عليها القرآن .

وكذلك يقول : (فهناك مسوغات فنية واخرى نفسية تفرض فاعليتها من خلال

تناول النص القرآني عبر وحدوية نصه . إذ ان النص القرآني يتضمن موضوعاً أو موضوعات متعددة تستبطن هدفاً أو (أهدافاً) وهذه الموضوعات أو الاهداف تشتمل على فروع أو أقسام أو أجزاء تنتظم ضمن مساحة النص) .

هذه الأقسام أو الأجزاء التي تنتظم النص مرتبة وفق تخطيط هندسي بحيث إذا غيرنا مكان واحد منها ووضعناه مكان الآخر ، أو حذفناه أو قدمنا أو أخرنا بعضاً منها عن الآخر ، يحدث (خلل) في موضوع (الحادثة) و (فكرتها)^(١) .

إذن : فالمسألة تعني ان ثمة (وحدة) فكرية ينطوي عليها النص القرآني ، تجتمع من خلالها الأجزاء بشكل متناسق لتصبّ في نهاية المطاف بالحدث الأساس .

كما يعني أيضاً ان ندقق النظر في تلاحم الموضوعات وترابط خيوطها ونزيد من عملية (الكشف) لنلاحظ مدى توفر النص القرآني على عناصر الابداع التي تعمل في تقنيات مذهلة بغية اثراء التجربة الجمالية وتحقيق الاستجابة من خلال الآليات المنفردة .

ويتابع البستاني مسارات منهجه البنائي بقوله : (ان الوحدة المذكورة لا تنحصر في تلاحم موضوعاتها وأجزائها ، بل تتجاوزه الى سائر أدوات النصّ فالنصّ يتضمن (أدوات) يتشكل منها مثل : الابقاع ، كالتجنيس ، والتوازن ... و) ومثل الصورة (كالتشبيه ، والاستعارة والرمز) ... الخ ، كما يتضمن عناصر أخرى كالعنصر القصصي مثلاً....

والمهم هو : ان هذه العناصر والأدوات تُصاغ بنحو يتناسب كل منهما مع طبيعة الموضوع أو الفكرة ، أي يتساوق الابقاع مثلاً مع فكرة النص وتوظف الصورة من أجل انارة الموضوع ، وتسرد القصة لتلقي ظلاً على الموضوع وفكرته وهكذا...^(٢) .
وأما المسوغ النفسي من وراء البناء الهندسي أو العماري للنص . فيأخذ بدوره

مساحة واسعة من الفاعلية والأهتمام عند البستاني : (سرٌ ذلك : ان الغرض الذي تستهدفه النص لن يتحقق بنحوه المطلوب ، طالما نعرف بان أدراكنا للأشياء يعتمد على (النظرة الكلية) لها ، فالكون نفسه خاضع لنظام خاص يتألف من جزئيات يتناغم بعضها مع الآخر ضمن (الكل) أو (الوحدة) التي تنتظم هذه الجزئيات وعملية ادراكنا للأشياء تتم وفق الآلية المذكورة نفسها)^(١).

وليست المسألة بهذه البساطة فحسب لنصرح بقناعتنا حيال الباحث فيما وصل اليه حيث يغوص في أعماق المسوغ المذكور - المسوغ النفسي - وعبر رحلة شاقة من البحث والتنقيب ليصل الى فرز دلالاته وأبعاده التي لا أحسبها بهذه الدرجة من الأصابة والتوفيق ، إذ الأدلة التي يقدمها الباحث لدعم رؤيته تنطلق من زاوية نفسية بحثة وبالخصوص مسألة (اللاوعي) التي يستدل بها ... أقول : ان ذلك جميعاً يشكل احدى الفرضيات التي يكثر حولها النقاش والرفض .

الى جانب ضمور الخيوط الحسية في واقعيتها . يقول :

(بل ان القراءة ذاتها تترك أثرها اللاواعي عليه ، وهذا ما يمكن رصده عندما نلاحظ ان القارئ ما إن ينتهي من التلاوة أو الاستماع لسورة كاملة يحس بان السورة تركت فيه تأثيراً خاصاً بحيث يمكنه ان يتلمس بان شيئاً ، قد سيطر عليه دون ان يعي أسرار ذلك ، وهذا الشيء الغامض المسيطر عليه ناتج من طبيعة البناء الفكري والفني للسورة من حيث بداياتها ونهاياتها ، وما تخللها من تفريع للموضوعات أو تنويع لها وما فيها من توازن وتقابل وتجاور وتداع بين الأجزاء التي يرتبط كل منها بسببية تحكمه)^(٢).

وتوضيح ذلك - حسب رأي الباحث - أننا لو قرأنا على سبيل المثال (سورة

(١) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(الكهف) سنجد ان الوحدة العامة للسورة تدعو الى (نبذ زينة الحياة الدنيا) حيث توزعت هذه الفكرة على مساحة السورة بشكل مدروس ومن خلال توظيف العنصر القصصي المساهم باضاءة وتجسيد المفهوم ذاته حيث (قدمت قصة أهل الكهف لتنتقل القارئ بنحوٍ لا واع الى تجربة (نبذ زينة الحياة الدنيا) في أشد نماذجها وضوحاً: حيث كان ابطال القصة من ابرز موظفي المؤسسة الحكومية آنئذ، ومع ذلك تركوا مواقعهم السياسية الضخمة واتجهوا الى أقصى مستويات النبذ لزينة الحياة وهو (الكهف) ...).

ثم أردفتها بقصة جديدة هي قصة (صاحب الجنتين) الذي بهرته - على عكس أصحاب الكهف تماماً - زينة الحياة الدنيا من خلال تملكه لمزرعتين فيما أفضى ذلك به الى ان يشكك بقيام الساعة ...

ثم طرحت السورة مفهوم (نبذ زينة الحياة الدنيا) للمرة الثالثة عندما عَقَبَتْ قائلة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ وتقدمت بعد ذلك بقصتين: احداهما عن شخصية موسى والعالم والاخرى عن شخصية (ذي القرنين) جسدت احداهما شخصاً مبهماً - بالنسبة الى موسى عليه السلام - منعزلاً عن الحياة تماماً والاخرى جسدت شخصاً بلغ من الشهرة - على عكس صاحبه - موقعاً بحيث ملك شرق الأرض وغربها إلا أنه على العكس من صاحب المزرعتين المتحاذيتين لم تبهره زينة الحياة الدنيا... (١).

والمهم ان نعرض لخطوط المنهج الاخرى فهناك أدوات أخرى يركز عليها المنهج المشار اليه كما توجد عدة مستويات توافر عليها وعرض لنماذجها. بالامكان ان نلخصها بما يلي:

١ - من حيث الموضوعات مثل: السور المتسمة (بوحدة الموضوع ووحدة

الفكرة أو الهدف نحو (سورة الكافرين). وكوحدة الموضوع وتعدد الهدف (أي ان السورة تتضمن موضوعاً واحداً إلا أنها ذات أهداف متنوعة ، وهذا مثل سورة يوسف حيث ان موضوعها هو (حياة يوسف عليه السلام) إلا ان اهدافها متنوعة مثل : فكرة الصبر ، العفة ، الحسد ، الغيرة ... الخ . وتعدد الموضوع ووحدة الهدف مثل : سورة الكهف المتقدم ذكرها) .

٢ - من حيث العرض مثل : التجانس : وهو بناء السورة على تجانس موضوعها .
- والتداعي : وهو بناء السورة على ما يفرضه الموضوع من تداعيات ذهنية .

- الاجمال والتفصيل : وهو ان يقوم بناء السورة على طرح الموضوعات بنحو الاجمال ثم تفصيله لاحقاً مثل : سورة (نوح عليه السلام) التي (أجملت) الانذار في بدايتها ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم (فصلت) مستوياته ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ ، ﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا... ﴾ ، ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ... ﴾ ... الخ .

- النمو : (وهذا النمط من البناء يضلُّ أشدَّ المستويات يروزاً في هندسة السورة الكريمة ، ويقصد به : ان الموضوعات المطروحة في السورة تبدأ بنحو تتنامى أجزاؤها من خلال الرحلة التي يقطعها النص)^(١) .

٣ - من حيث الاشكال وذلك من خلال التركيز على الهيكل الخارجي لها فان ما تقدم يتناول السورة المباركة من حيث بطانتها الداخلية ، وأساسيات هذا الجانب يتضمن الأشكال الآتية :

- البناء الأفقي : (وهو ان تبدأ السورة بطرح ظاهرة خاصة ، وتختتم ذلك بالظاهرة ذاتها ، ومثاله سورة (المزمّل التي استهلّت الحديث عن قيام الليل ... وانتهت بالحديث عن القيام نفسه ...) .

- البناء المقطعي : وهو ان تبدأ السورة بطرح جملة من الموضوعات إلا أنها تستهل أو تختتم كل موضوع بفقرة أو فقرات متماثلة تشكل (وحدة) الهيكل للسورة أو تكون بمثابة محطة تتكرر الرحلات من خلالها ، لنحط بين حين وآخر في الموقف نفسه وهذا مثل سورة (المرسلات) حيث ينتهي كل موضوع منها بفقرة ﴿ وَيُلْ يُؤْمِنُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴾ (١).



بهذا العرض الموجز تمّ لنا أن نعطي تصوراً عاماً عن منهجه التفسيري .

نتقدم الآن للحديث عن نشاطاته القرآنية الأخرى ونبدأ بـ :

دراسات فنية في قصص القرآن :

يرصد البستاني في كتابه الموسوم : (دراسات فنية في قصص القرآن) كل ما تضمّنه الكتاب العزيز من سرديات فنية وبمختلف أنماطها المألوفة في حقل الدراسات الأدبية المعاصرة - حيث كشف من خلال عملية المقارنة بين (القصّ) القرآني و(القصّ) الذي تمخضت عنه التجربة الإنسانية الحديثة - عن العلائق الفنية من جهة وعن التفوّق القرآني من جهة أخرى بخاصة في ما يتعلق بعنصر المحاكمة وإفراز المواقف الإيجابية والإشارات التي تحدّد سلبيات (الشخص) والأحداث ذات الجانب السلبي . وهذا ما لم يخبره الحقل القصصي بعد .

والظاهرة التي تشكل سمة الامتياز في المحاولة المتحدث عنها : ان الباحث قد أودع في كتابه أعلاه تجربته الطويلة كناقد أدبي له مكانته البارزة في مجال البحث والتنظير والدرس النقدي بخاصة توفره الملحوظ بما أفرزته النتاجات المعاصرة على الصعيدين النقدي والأدبي . وسوف نتطرق لذلك تحت عنوان لاحق من هذه الدراسة .

ومما يجدر التأكيد عليه أيضاً ان كتاب (دراسات فنية ...) هو بالواقع خلاصة متابعات ثقافية واسعة بل حصيلة كتابات متعددة قدمها الباحث في حقول المعرفة الانسانية بحيث ينفذ بالقارئ عبر تحليله النقدي وعملية كشفه للنصوص التي تحتشد في داخلها بعناصر الابداع الفني والجمالي ... الى محطات نفسية واخرى اجتماعية وثالثة روحية وبشكل قد نثرت به على مساحة واسعة من النص القصصي بغية التوفر على أضواء مكنناته الابداعية في تعميق القيم والمبادئ الاخلاقية و... الخ ، وبالنحو الذي يلاحظ فيه آليات التأثير بين العناصر كافة لتمتخص عن كل ما يخبره الحس من جمال وابداع ومعرفة ...

ومن ذلك - على سبيل المثال - ما أورده في تناوله لقصة نوح عليه السلام ففي صدد تحليله لظاهرة عدم تقبل الرسالة بالنسبة لقومه وعنادهم العنيف يقول : (لقد بلغ بهم المرض الى الدرجة التي كشفت عن أنهم يحملون في أعماقهم ، كراهية شديدة للأصوات الخيرة .

ان المرضى ، أو العصبيين ، أو المنحرفين يتفاوتون في درجة المرض الذي يعانون منه : فقد يكون المريض كارهاً لذاته ، وللآخرين ، وللقيم الخيرة ... لكنه يختزن هذه الكراهية دون ان يترجمها الى سلوك خارجي لفظي مثلاً أو حركي ، بل يحتفظ بها في أعماقه مكتوباً بلهيبها) .

لكنه حين يترجمها الى سلوك خارجي ، فان هذا يظل (مؤشراً) الى بلوغ المريض درجة خطيرة من المرض . فاذا ترجم كراهية أعماقه الى سلوك لفظي مثلاً كان مؤشراً الى درجة معينة من حجم المرض الذي يعاني منه ، اما اذا ترجم أعماقه المريضة الى سلوك (حركي) مثلاً : وضع الاصابع في الآذان ، ... فان المرض يبلغ قمته التي تستدر الاشفاق .

لقد كشف المستكبرون من قوم نوح عليه السلام ، عن ذروة المرض الداخلي الذي يعانون منه ، حينما ترجموا أعماقهم الكريهة الى سلوك حركي هو [وضع الأصابع في

آذانهم] تعبيراً عن رفضهم الطفولي للرسالة الخيرة التي دعاهم نوح إليها .
ومن الحقائق الثابتة في لغة علم النفس المرضي ، أن (النكوص) الى أساليب
الطفولة : يُعد تعبيراً واضحاً عن درجة المرض الذي يطبع صاحب الحالة . فهو
بعجزه عن التكيف ، وحدة التأزم الداخلي لديه ، وفقدانه لأية وسيلة يُخفّضُ بها
توتراته ، نجده يلتجئ الى أساليب من السلوك تعود عليها في الطفولة حينما كان
يحتج على عدم أشباع حاجاته بانماط شتى من السلوك : يستدر بها عطف الكبار
وكل ذلك بسبب من عدم نضجه .

ويبدو ان المستكبرين الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم حينما دعاهم نوح الى
رسالة السماء وطلب المغفرة ... يبدو أنهم قد ارتدّوا ونكصوا الى أساليب الطفولة ،
يخفون بها حدة توتراتهم وتمزقاتهم الداخلية التي يُعانون منها ، معبرين بذلك عن
عجزهم التام عن التكيف مع الموقف ومعالجته بالنحو السليم^(١) .

عرضنا لهذا النص الطويل من أجل توضيح استخداماته للغة النفسية . وهكذا هي
القصص التي يتناولها فنادرًا ما تخلو من الالماحات النفسية والاجتماعية التي سوف
نعرض لنماذج منها فيما بعد .



وهنا لابدّ من تسجيل بعض الحقائق المتعلقة بالكتاب نفسه حيث حاز على
جائزة الدولة الاسلامية الايرانية . كما قدم سماحة قائد الثورة الايرانية السيد علي
الخامني شهادة شكر وتقدير للباحث نذكر منها :

وكذلك ايضاً فقد تقدم وزير الثقافة والارشاد ببطاقة شكر جاء فيها :
يُضاف الى ذلك : فلقد أذيع الكتاب عبر البث الاذاعي وبشكل منظم كما أعيدت
طبعاته مضافاً الى ترجمته .

(١) دراسات فنية في قصص القرآن للدكتور محمود البستاني ، ص ٦٩١ .

دراسات فنية في التعبير القرآني :

من النشاطات التي قدمها الباحث في الحقل القرآني دراسة معمقة تحت العنوان اعلاه (دراسات فنية في التعبير القرآني) وفيها يحاول عرض خيوطه المنهجية - من حيث التطبيق لتناول النص القرآني : (بعد جهود طويلة في ميدان البحث والدراسات الأدبية يظهر الى المكتبة العربية هذا البحث الأدبي الرفيع الذي يتناول بالدراسة والتحليل الناحية الفنية في النص القرآني - التركيب الفني وبناء الصورة - حيث يستلهم المؤلف تجربته الأدبية الفذة كشاعر وناقد من طراز رفيع كان له موقع الريادة في مجال التجديد الأدبي بحثاً وابداعاً .

من هنا كانت دراسته (دراسات فنية في التعبير القرآني) حدثاً أدبياً هاماً ومعاناة قرآنية فذة تعلن فرادتها واصالتها رغم كثرة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم من هذا الجانب ^(١) .

يلاحظ ان الدراسة أو المحاولة ذاتها يلقها الطابع الاختزالي أو المضرب في أغلب منحنياتها حيث جاءت بـ (خطاب) نخبوي صرف في طرحها للموضوعات وغير ذلك من الجوانب التحليلية والفنية ... بنحو تتكثف أمام القارئ عناصر وأدوات يتوفر عليها الباحث بنحو لا يعطي به فرصة للقارئ المتوسط من عمليات التفاعل والامتناع والواقع ان الباحث تنبه للاشكالية التي جوبه بانعكاساتها الحادة مما جعلت منه يتبنى (خطاباً) آخر له اسلوبه وخصوصيته المتميزة من خلال النتائج المتعددة التي أعقبت الكتاب المذكور .

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني ، كلمة الناشر ...

الفصل الرابع

الحقل الفقهي

الحقل الفقهي

يأتي الحديث عن الجانب الفقهي - لدى البستاني - في سياق الانتهاء أو الوصول الى آخر محطة مهمة في رحلته الطويلة بعالم الفكر والمعرفة . حيث يتم في الحديث عن الجانب المذكور ، رسم إحدى الخصوصيات الدقيقة في صورته الفكرية التي نلاحظها بالوقت الحاضر ، بل تأتي على تحديد (المفصل) الفعّال في بلورة شخصيته واكسابها طابع التأصيل الفكري العامل على حصانة الرؤية وتطويرها بسياسات تقف حاجزاً بوجه الانزلاق مع افرازات الطرف الآخر ، لتؤكد بذلك على استقلالية الهوية وفاعلية الذات .

لا يخفى ، ان في الحديث عن الجانب المشار اليه ، نوعاً من الخطورة التي تفرضها طبيعة (المؤسسة الحوزوية) بما في ذلك ، تشكيلة وسطها ذات الخصوصية المعروفة بنوعية نمطها مزاجياً وتركيبياً .

حيث يشكّل التفقه أو الاجتهاد ، حسب المصطلح الحوزوي أعلى مستويات (الهرم) الدراسي أو البحثي الذي تتمخض كنتيجة طبيعية ، له : الشخصيات القادرة على استنباط الأحكام الفقهية من خلال تجربتها العملية وادائها الخاصة ، في مجالات النشاط الاستدلالي . لذا نجد ان المصطلح - المتحدث عنه - محاط بهالة واسعة من التقديس المبالغ فيه أحياناً ، مما يعني الوقوف بالجدل أو الاستغراب حيال كل من ينعت بلقب (الفقيه) أو (المجتهد) خصوصاً فيمن أكمل مراحل التفقه بمعزل شبه تام عن الانماط المألوفة لدى مناهج المؤسسة الحوزوية ، وبمدة

زمنية قصيرة قياساً مع ما يستغرقه الفقهاء الآخرون ...

كيف ما يكون : مادمننا نحتفظ بوثائق ومؤشرات تدعم ما نذهب اليه ، فحينئذ لا داعي البتة من التوجس أو الشعور بالخطر .

ويجدر بنا قبل ان ندخل أبواب نشاطاته الفقهية كشفاً وتحليلاً ، ان نعرض لأسباب توجهه نحو هذه الزاوية بالذات .

والذي يبدو ان الانطلاقة الفقهية ، قد حدثت إثر موقف وضع أمامه أكثر من علامة استفهام .

يقول : البستاني جواباً على سؤال طُرح عليه :

(الواقع ان الفقه أيضاً له سببٌ دفعني اليه . أتذكر ان الاستاذ المشرف سألني عن مسألة فقهية - عند ما كنت في القاهرة - ولكنني لم استطع أن أجيبه عليها ، وحينئذ شعرت بخجل شديد ، وقلت في نفسي أنني أعرف الآن النظريات الغربية في مجال النقد الأدبي ، ولكنني لا أعرف شيئاً عن أحكام الشريعة أليس هذا عيباً كبيراً لذلك في غمرة هذه الملابس قلتُ من جملة ما قررته في ذلك الوقت أنني سأتفقه أيضاً حتى تكون الكتابات التي أكتبها مرتكنة الى أساس سليم من الناحية الشرعية ، وبالفعل عندما رجعت وجدتُ نفسي راغباً كل الرغبة في أن أتفقه وبالفعل بدأت أتفقه وكنت أصرف احياناً في اليوم تقريباً خمسة عشر أو ثمانية عشر ساعة بدراسة الفقه واصوله وما يتعلق به وبالفعل بدأت أقرأ وأسأل واتصل بالفقهاء ، لأنني وجدت أنني لو انخرطت بالسلك الحوزوي بالشكل التدريجي لاستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، لذلك قررت أن أقرأ بنفسي هذه الكتب المعروفة بالحوزة وان أسأل فيها المختصين عن كل نقطة غامضة واستطعت - والله الحمد - خلال سنة ونصف ان اتوفر على دراسة هذه النصوص وان أكتب دورة فقهية كاملة ليّ بشكل خاص كتبها واحتفظت بها خلال المدة المذكورة)^(١).

(١) حديث خاص أجريناه مع الدكتور البستاني ، بتاريخ ١٤١٦هـ ، شعبان المبارك .

وبالفعل فان هناك من يؤكد هذه الحقائق ، حيث وجدتُ أحد أبرز الكتاب الأخلاقيين بالوقت المعاصر يصرح بكل ما تقدم : (قال لي : رأيتُ عند الاستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الايرواني جزءاً من كتاب الحقائق الناطرة فاستعرتة وقرأت. وهكذا حتى قرأت المجموعة كلها ثم أخذت أقرأ كتب الحديث والفقه مثل : جواهر الكلام وبقية كتب الفقه ولمدة سنة ونص ... الخ ، حتى قالي : بعض الاعلام ، أنت مجتهد ولا يجوز ذلك ان تقلّد .

سافرت معه الى الحج سنة ١٣٩٨هـ ومعه بعض كتبه في الفقه الاستدلالي وسألته : هل استغلقت عليك عبارة أو أشكل عليك مطلب في وقت التحصيل ؟ فقال : نعم وكُنْتُ أرجع بالسؤال والايضاح من بعض الاعلام .

وأعظم من هذا عندي هو تقوى الدكتور وانصرافه عن الدنيا وما يحمله من ولاء لأهل البيت (عليه السلام) ^(١) .

ولا نذهب - بالقارئ - بعيداً ، فان في بحوثه الفقهيّة - التي سوف نعرض لها - ما يكفي للتدليل على رسوخ قدمه في دائرة المعرفة المذكورة .

ان نشاطاته الفقهيّة ، تتمثل في عدة [أوراق] قدمها الباحث ، كدراسات لجملة من الكتب والشخصيات الفقهاء المعروفة بضخامة مستوياتها من أمثال : سآلار ، العلامة ، الشهيد ، الأردبيلي ، الكركي ... الخ .

والأوراق المذكورة تكشف بوضوح عن عمق ممارسته الاستدلالية من جانب وعن جدّة ملاحظاته النقدية في متابعة أعمال الفقهاء من جانب آخر . حيث يغوص الباحث في أدوات الممارسة الفقهيّة مسجلاً ومبرزاً لعناصر في غاية الدقة وبخاصة عمليات تقويمه التي ألمح من خلالها على مستويات الفقهاء وجوانب العمق والريادة عندهم .

(١) النجفيات للاستاذ الفاضل علي محمد علي دخيل ، ص ١٣٥ ، بيروت دار المرتضى .

وبكلمة جديدة : ان الأوراق المذكورة وثائق تنطوي على قيم ملحوظة ، ويمكننا معرفة أهميتها من خلال نقاط متعددة . منها اهتمامات النقاد ببعضها ، حيث أشار أحدهم بان الكتاب الحائز على جائزة الدولة الأيرانية (كتاب السنة) قد نال نجاحه بسبب المقدمة - الدراسة - التي صُدِّر بها .

والجدير بالتنبيه ان الكتاب ذاته قد علق على الدراسة التي صُدِّر بها أحد أساتذة المؤسسة الحوزوية المعروفين حيث جاء في إحدى صفحات الكتاب : [هذه الملاحظة وما يتبعها من الهوامش ، مما تفضل به سماحة آية الله مؤمن حفظه الله على هذه المقدمة لمزيد الفائدة] ^(١) .

وهذا ما يلقي بالانارة العالية على جدّة بحوثه ، بحيث تنفرغ الشخصية المشار اليها للتعليق والاستطراد على ما أورده الباحث في [ورقته] المتقدمة وهو رقم له دلالاته الخاصة في العرف الحوزوي ، كما ان الورقة نفسها قد تضمنت نقداً لبعض مباني صاحب الكتاب الذي يعدّ من أكابر الشخصيات الموروثة ذلك من قبيل ، ما احتج به العلامة الحلي - صاحب الكتاب - باحدى الروايات الضعيفة على اثبات مسألة شرعية من باب الزام المخالفين بما هو معتبر عندهم ، والنصّ الذي نحاول أن نستشهد به قد يطول ، لكن : لا حيلة لنا إلاّ بايراده كاملاً .

يقول الباحث : في معرض ردّه على العلامة الحليّ : [بيد أننا لا نوافق المؤلف على احتجاجه بالرواية الضعيفة في حالة تضمّنها ما هو مضادّ لمبادئ الشرع من جانب ، وما هو متناقض في الاستدلال بها من جانب آخر ... وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في ممارستين للمؤلف ، تحدث في أولاهما عن الكلام متعمداً في الصلاة وتحدّث في أخراهما عن الكلام ممّن ظنّ إتمامها ، حيث رفض في (المسألة الأولى) رواية للجمهور تزعم ... بان النبي ﷺ سلّم في ركعتي الرباعيّة

(١) منتهى المطلب ، ج ١ ، ص ٤٤ ، طبعة مشهد المقدس ايران .

نسياناً ، فيما لفت « ذو الـدين » نظر النبي ﷺ الى ذلك ، وأنه ﷺ قد استفسر عن صحة ما زعمه الشخص المذكور... المؤلف ردّ هذه الرواية بجملة وجوه :

منها : ان الراوي أباهريّة أسلم بعد وفاة الشخص المشار اليه بسنتين .

ومنها : وهذا ما نعتزم التأكيد عليه : ان الرواية تتضمن ما يتنافى مع عصمة النبي ﷺ وهو النسيان ...

أما في (المسألة الثانية) فان المؤلف يقدم الرواية ذاتها للتدليل على جواز التكلم بالنسبة لمن ظنّ الانتماء... فبالرغم من أنه لم يعتد بهذه الرواية ، حيث علّق قائلاً : (ورواية ذي الدين - وان لم تكن لنا حجة - فهي في معرض الالزام) إلا أن سوقها هنا للتدليل على جواز التكلم بالنسبة لمن ظن الانتماء ينطوي على جملة من الملاحظات ، منها استشهادها بها في حكمين مختلفين هما : النسيان والظن مع أنها لا تتضمن إلا حكماً واحداً... وحتى مع صحة الفرضية الأولى لا يمكننا أن نعتمدها مادام المؤلف نفسه قد رفضها بالنسبة للنسيان فيما ينبغي أن يرفضها بالنسبة الى الظن أيضاً ، مادامت متعلقة بفعل واحد .

مضافاً لما تقدم ، فان الرواية المذكورة مادامت تتضمن ما هو يتنافى مع عصمة النبي ﷺ حينئذٍ لم يكن هناك أي مسوغ للاستدلال بها^(١) .

وكذلك ما جاء في مؤاخذته على المؤلف بالتفاتة ذكية : (هنا يتعين علينا أن نشير الى ان المؤلف - في بعض ممارساته - يحمّل النصّ تفسيراً يصعب التسليم به... وهذا من نحو تأويله مثلاً - في صعيد اللغة العرفية - لرواية تحدد الحيض بثمانية أيام « من طرف كثرته » ، حيث علق عليها قائلاً : (الغالب وقوع المتوسط وهو ثمانية أيام أو سبعة أو ستة ، فيكون ذلك اشارة الى بيان أكثر أيامه لا مطلقاً...) ان هذا التأويل لا يمكن التسليم به لبداهة ان الوسط لا يتحدّد في الرقم المذكور

بدليل ان المؤلف نفسه قد ذكر الستة والسبعة أيام أيضاً كما ان « الغالب » لم يتحدد - عرفاً - في الرقم المذكور نظراً لعدم امكان « الاستقراء » في ذلك ... ولو ان المؤلف طرح هذا الخبر لشذوذه مقابل الشهرة الروائية لرقم « العشرة أيام » لكان أجدر ... والمؤلف أقر - في الواقع - بشذوذ الرواية عندما قال في البدء : هذا الخبر لم يذهب اليه أحد من المسلمين ^(١).

ولنا أن نستشهد بنموذج آخر ، مؤكدين عمق الاداة التي توفر عليها الباحث في ميدان النقد الفقهي ، لكي تبين مدى نظراته النقدية التي تتوكل على ثقافة فقهية واسعة ، مع ملاحظة ان النص المستشهد به سوف يضطرنا الى الاطالة أيضاً ، يقول الباحث : - في سياق دراسة فقهية تناول بها منهجية الشهيد الأول - .

ويبدو - كما سنلاحظ ذلك لاحقاً - أن قناعة المؤلف بفتوى الأصحاب ، أو بالشهرة الفتوائية - عملية كانت أو مطلقة - نابغة من قناعته بان المقصود من مصطلح (الشهرة) في الأخبار العلاجية هي : الشهرة الروائية والفتوائية ، ولذلك رتب أثراً عليهما في ممارساته مع تركيز شديد على الأخيرة منهما بل ترجيحها على الشهرة الروائية في حالة تعارضهما ، وهذا ما نلاحظه في مقدمة كتابه الاستدلالي (ذكرى الشيعة) حيث يقول : « ... ولقوة الظن في جانب الشهرة ، سواء كان اشتهاً في الرواية بان يكثر تدوينها أو رويها بلفظ واحد أو ألفاظ متغايرة أو الفتوى ، فلو تعارضا فالترجيح للفتوى إذا علم اطلاعهم على الرواية ، لأن عدو لهم عنها ليس إلا لوجود أقوى ، وكذا لو عارض الشهرة المستندة الى حديث ضعيف حديث حديث قوي ، فالظاهر ترجيح الشهرة ، لأن نسبة القول الى الامام قد تعلم وأن ضعف طريقه ... » ^(٢).

فالملاحظ هنا هو قناعته بأن المقصود من الشهرة في الأخبار العلاجية - وإن لم

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٢) الذكرى ، ص ٥ .

يشر إليها - هما الفتوائية والروائية مع ترجيحه للأولى عند التعارض .

والسؤال هو : هل ان مصطلح (الشهرة) - حينما نضعه في السياق التاريخي أي زمن صدور الأخبار العلاجية - يحمل دلالة الشهرة الفتوائية بمعناها المستخدم لدى الفقهاء في عصر الغيبة؟ ان الفتوى بمنن الرواية - كما هو واضح - تظل هي النشاط المحض الذي يصدر عنه الأصحاب عصرئذ ، فيما لا وجود للعمليات الاجتهادية إلا في اشكالها البسيطة جداً . إن راوياً يسأل المعصوم عليه السلام (هذا أصل ؟) فيقره عليه السلام بذلك ، أو أنه عليه السلام حينما يخاطب راوياً بان هذا وأمثاله يعرف من كتاب الله تعالى ، أو أنه عليه السلام حينما يسمح لراوٍ بان يفتي في المسجد مثلاً ، أو حينما يطلع عليه السلام على كتاب في (مباحث الألفاظ) فيقره ، الى آخره ، ... أمثلة هذه الظواهر لا تكشف عن ان الرواة عصرئذ كانوا يمارسون العمليات الاستدلالية بنحوها المعروف ، يدلنا على ذلك عدم وجود مصنفات استدلالية ، وحتى كتب الفهارس لم تشر الى ذلك ، بقدر ما تشير الى مصنفات حديثة فيما اصطلح عليه بالأصول ، ومنها ما وصل بأيدينا مما هو تدوين للحديث فحسب ... ولعل ما في بعض الأخبار العلاجية المشيرة الى التوقف لحين مقابلة الامام عليه السلام ما يدلنا على ان الاصحاب عصرئذ يفتون بموجب ما يصل من المعصوم عليه السلام ... بل إننا لنجد أن الأصحاب حتى بعد صدور الروايات العلاجية واشتهارها لدى الرواة لم يؤثر عنهم ممارسات استدلالية ، لعدم الحاجة اليها في زمن المعصومين ، وإنما بدأت الممارسات الاستدلالية في زمن الغيبة مع الفقيهين المصطلح عليهما بالقديمين (ابن أبي عقيل وابن الجنيد) كما هو واضح ...

إذن : الأصحاب عصرئذ كانوا يفتون بمنن الرواية ومضمونها ، وحيناً يفتون بمسائل عابرة تتصل بقاعدة اليقين أو الحرج ونحوهما ، وفي هذا السياق قد يطرحون الرواية المشكوك بناقلها أو يتوقفون عن الافتاء أساساً ... خارجاً عن ذلك ، لا وجود للفتاوى المرتكئة الى الاستدلال بمعناه المعروف حتى نحمل

قوله ﷺ مثلاً في المقبولة: « وبترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك ، فإن المجمع عليه لا ريب فيه ^(١) » أو قوله ﷺ في المرفوعة: « خذ ما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر » ^(٢) على الشهرة الفتوائية؟ وحتى مع هذه الفرضية ، فإن التوكؤ على الشهرة القديمة يعطل عملية الاستدلال طيلة العصور ويحصر نشاط الفقهاء في مسائل محدودة أو مستحدثة ، وهو أمر لا يقرّ بمشروعيته الفقهاء كما هو واضح ^(٣) .

وقد يأخذنا الحديث بعيداً فيما لو أردنا أن نستشهد بجميع ممارساته الدراسية للحفل الفقهي الذي تكرّس جهوده فيه من خلال نقد مناهج الشخصيات الفقهية البارزة عند مدرسة أهل البيت ﷺ النقد الذي يهدف إلى توضيح الفوارق المنهجية التي يعتمدها الفقهاء في حقل الممارسة الاستدلالية وإضاءة مواطن الجدة والعمق والابتكار التي يتوفّر عليها كلّ فقيه في تجربته الخاصة ، ومن الممكن أن نتعرّف على هذا الجانب من نشاطاته التي تمثّل إشرقة جديدة في هذا الحقل بالذات من خلال دراسته التي قدّم بها مسحاً شاملاً لنشاط الدرس الفقهي في مؤسسة النجف الدينية ، متناولاً بها رموز الدرس الفقهي مثل : الشيخ الطوسي والكركي والأردبيلي وبحر العلوم وكاشف الغطاء والجواهري والأنصاري والبزدي والحكيم والخوئي والصدر ﷺ .

فقد توهّج أسلوبه في مطاردة أعمال هؤلاء الفقهاء بنحوٍ مدهش من إمكانات رصد كلّ ما يميّز تجربةٍ عن أخرى ومدى تأثر التجارب فيما بينها جميعاً ، من جانب الأدوات واللغة والمنهجية ومن جانب تأثرها بالمناخ الاجتماعي العام . وبثقافات العلوم الأخرى كالفلسفة والعرفان والعلوم الإنسانية الحديثة ، فبعد أن يبرز سمات منهج الشيخ الطوسي ﷺ التي تشكّل علامات مستقلة تحتفظ بها ممارساته الخاصة

(١) الوسائل ١٨ ، ٧٥ ، الباب ٩ من أبواب صفات القاضي الحديث ١ .

(٢) عوالي اللئالي ١٣٣ : ٤ ، الحديث ٢٢٩ .

(٣) الدروس الشرعية في فقه الامامية ، ج ١ ، ص ٢٢ ، مقدمة الدكتور البستاني للكتاب .

كخطوطه المنهجية في تعامله مع الأحاديث الشريفة المتسمة بالإجمال والتضارب الذي يسعى الشيخ الطوسي إلى رفع التباساته الظاهرية (من خلال الجمع العرفي والتبرّع... حيث ينطلق من مقولة خاصّة عُرف بها وهي مقولة: «الجمع أولى من الطرح»)^(١) التي عَقِبَ عليها الباحث بقوله :

« لذلك يتّجه إلى تأويلات ناجحة في استنطاقه للخبر، وأحياناً يجنح إلى تأويلات لا يتحمّلها النصّ.. حرصاً منه على مقولته المشار إليها »^(٢).

وبعد أن يبرز أيضاً ملامح تأثر الشيخ الطوسي بالمتقدّمين عليه كالسيد المرتضى والشيخ المفيد يتابع مناهج المجموعة المشار إليها سلفاً من حيث الالتقاء والافتراء أو التأثير والاستقلال أو التقليد والإضافات ذلك من قبيل ملاحظاته على الشيخ الكركي من جهة تأثره بشخصية الشيخ الطوسي كقوله : « وها هو الكركي وهو يكتب رسالته المعروفة بـ « قاطعة اللجاج » فيما يتحدّث خلالها عن الأرضين وما يتّصل منها من الخراج (خاصّة : الأرض المفتوحة) نجده أولاً يصدّر فتواه بالإشارة إلى وجهة نظر الطوسي حتى أنّه يكتفي حيناً بتقديم ما طرحه الطوسي من أدلة دون أن يشفعها بأي دليل آخر، ممّا يكشف عن مدى هيمنته عليه ، أو لنقل : تقديره لشخصية الطوسي... طبيعياً ، إنّ الاستشهاد بالعلامة الحلّي (بصفته اسماً شامخاً كالطوسي) وكذلك الشهيد (بصفته أستاذاً) ، يحتلّ مساحة كبيرة من بحثه إلّا أنّها لا تصل إلى المساحة التي يحتلّها الطوسي... بل إنّ هيمنته تنسحب على أدوات تعامله أيضاً ، ومنها : تعامله مع السند ، فهو في تعقيبه على خبر المرسل يقول : « وهذا الحديث وإن كان من المراسيل ، إلّا أنّ الأصحاب تلقّوه بالقبول ». وهي عبارة ودلالة طوسية كما هو واضح »^(٣).

(١) و(٢) موسوعة النجف الأشرف ، ص ١٥٥ ، ج ٧ ، طبعة بيروت.

(٣) المصدر السابق ، ١٨٠.

وبنفس الخطوات وغيرها يتناول المقدّس الأردبيلي كقوله : « وإذا كان الكركي يتساهل مع السند إلّا ما ندر ، فإنّ الأردبيلي على عكسه تماماً ، حيث يعنى بالسند بنحو ملحوظ جدّاً ، حتّى إنّّه ليحرص في مداخلاته واستدلالاته على التقيّد الكامل بمصطلح الخبر وتحديد نوعه - ليس في نطاق التوثيق وعدمه - بل حتى في العرض العابر مثل... الخ »^(١).

ويتابع بحثه بالأدوات والخطوات عينها مع شخصية (السيّد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء ، والشيخ محمّد حسن الجواهري ، والشيخ مرتضى الأنصاري ، والسيّد محمّد كاظم اليزدي والسيّد محسن الحكيم والسيّد الخوئي والسيّد محمّد باقر الصدر) ، والفقيه الأخير (السيّد محمّد باقر الصدر) لم يكتفِ الباحث بدراسة منهجه في الممارسة الفقهية ، بل عرّف بشخصيّته وثقافته ليزيد بذلك من قدرة الإضاءة التي سوف يمنحها إتياءه في تحليل منهجيّته ، كقوله :

« إنّ الشخصية المذكورة قد عُرِفَتْ بتجاوزها تخوم العلوم الحوزوية إلى العلوم الإنسانية : كالفلسفة والاقتصاد والاجتماع والنفس والأدب والتاريخ... الخ ، مضافاً إلى درجة ذكائه الذي تجاوزت المنحى المتوسط إلى النبوغ ، وقد انعكس هذان الجانبان على لغته الفقهية والأصولية ولكن في نطاق متفاوت ، حيث يجمع بين اللغتين الحوزوية والإنسانية ، وإن كان المنهج بعامّة يظلّ إلى الحوزة أقرب منه إلى غيره ... ، كما ينطوي على قدرٍ من استخدام المعرفة الإنسانية مثل توكّنه بعض نظريات علم النفس في دراسته الأصولية عن مباحث الألفاظ... الخ »^(٢).

والمهم ، ان نشاطاته الفقهية ، تمتاز بنقاط متنوعة يمكننا أن نلمع إليها بما يلي :

(١) حداثة اللغة :

تتسم ممارساته في ميدان الاستدلال والعرض والمناقشة الفقهية بمواكبة

(١) المصدر السابق : ٢٢.

(٢) المصدر السابق : ٤٧.

متغيرات العصر بالنسبة لآلية التوصيل المعرفي ، حيث يعمل على توظيف أدوات اللغة المحدثة في حقل المعرفة الفقهية ، مساهماً بذلك في عملية احياء المنابع الفكرية التي استدل عليها المعاصرون أو المثقفون ستاراً بسبب لغتها ذات الطابع القديم .

فمثلاً: نجده يستخدم مصطلح : (الادلة الرئيسة والأدلة الثانوية) معبراً بالأولى الرئيسة - عن الأدلة الأربعة المعروفة [الكتاب ، السنة ، الاجماع ، العقل] . وقاصداً بالثانية - أي الأدلة الثانوية حسب مصطلحه بـ (الأصول العملية وغيرها) .

وبوسعنا أن نذكر شواهد على ذلك نحو: قوله - في تحديد منهجية الشهيد الأول - [ما تقدّم ، يمثل (تحقّظ) المؤلف حيال الأدلة التنصيصية والعقلية . أمّا تعامله مع الأدلة الكاشفة عن النصّ كالاجماع (بصفته دليلاً رئيساً أو الشهرة المجهولة في استنادها ، أو السيرة الشرعية بصفتها أدلة ثانوية) ، فإن المؤلف يتعامل حيالها بـ (تحقّظ) أيضاً في كثير من ممارساته^(١) .

وهناك الكثير من الشواهد التي يستشف منها جوانب التحديث الاسلوبي ، والتجديد [المصطلحي] بما يوافق أذواق النخبة المعاصرة .

واجمالاً: فانه قد توفّر على لغة محكمة ، ذلك عبر تجردها من الترهل والاسراف والتراكمات المعقدة التي تطبع أغلبية البحوث الفقهية ، بما في ذلك تداخلات وجهات النظر المتضاربة من ناحية الاستطراد الى جانب التشابك القائم في الاسلوبيات بنحو يفقد البحوث الفقهية جانباً كبيراً من معطياتها الأصلية ، لابتعادها عن آليات المعاصرة وعن خطوط المناهج العلمية وطرائقها المتفق عليها في الاوساط الثقافية عامة .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٢) التركيز العلمي :

ونقصد بذلك ابتعاده عن المنهج [البيوغرافي] الذاهب الى دراسة الشخصية العلمية من خلال الأدوار التي مرّت بها مثل : البيئة والتربية والنشاطات والملابس التي تلفت بخيوطها العامة ، منطلقاً من وجهة نظر مفادها : ان العناصر المذكورة تنعكس على الشخصيات العلمية بنحو أو بآخر ، في بلورة عبقرياتها ومنحها الاطار المساعد على البروز والنهوض .

بديهياً ان المنهج المشار اليه يحمل مسوغاته الخاصة به ، كما أنّ له مجالاته المعلومة عند ذوي الاختصاص ، لكن : اقحام الحقل ذاته بالدراسات الفقهية - كما هو حال الابحاث التي تتدفق بها المؤسسات ودور النشر - ضرورة في غير محلها . وهذه نقطة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار . إذ من المفروض ان تكافئ عناصر المنهج البيوغرافي مع عناصر البحث العلمي بحيث توظف [البيوغرافيات] من أجل اثاره النتائج العلمية التي يدرسها الباحثون . بعكس ما يلاحظ على الكتابات الموجودة حيث تطفئ بها الافرازات المذكورة فتضيع نتيجة ذلك ، الومضات العلمية في دراسة الشخصيات .

لذا تجدنا نضاعف من تهمينا للباحث بسبب ادراكه هذه الحقيقة الهامة حيث عمل في جميع دراساته على استنطاق النصوص واستكناه الظواهر مضافاً لكشوفاته واحكامه النقدية بصدد تقويم المستويات الفقهية بغية تجلية الحقائق والافضاء الى نتائج تسهم بدورها في اثراء الحقل أعلاه .

وكنموذج على ذلك ، نعرض لجانب من دراسته التي تناول فيها منهجية [الشهيد] في كتابه الموسوم : [الدروس الشرعية] حيث جاءت الادوات البيوغرافية على نحو يعزّز من اضاءة الجوانب العلمية لدى الشخصية المذكورة ، وينسق يهب الموضوع طابعاً من الجودة والمتانة ...

يقول الباحث بالصدد ذاته :

(ولد فقيهما الكبير « الشهيد الأول » في قرية جبل عامل ، حيث الطبيعة ومناخها ، يسهمان في إكتساب الشخص صحة عقلية ونفسية وجسمية تفتقر إليها البيئات الأخرى) .

وبعد أن يمرّ سريعاً على ذكر بيئة الفقيه المذكور والاشادة بفضلها كمدينة أنجبت العديد من الفقهاء ، يعود ليقول : (وكان والد فقيهما الكبير واحداً من سلسلة الفقهاء المشار اليهم ، وهو أمر له إسهامه - مضافاً الى المناخ الثقافي العام - في التسريع باستكمال الشخصية لجميع المقومات التي تدفعها الى التوجه العلمي .

ويبدو أن الخصائص الفردية لهذا الفقيه (ونعني بها الذكاء الذي يتجاوز به المستوى المتوسط) قد اسهمت أكثر من العناصر الأخرى في صياغة شخصيته الفقهية .

إلا أن كلاً من البيئة الثقافية العامة والاسرة ، والخصائص الفردية تظلّ عناصر متفاعلة في الصياغة المذكورة : بغض النظر عن تفاوت درجاتها ...) .

وقد انعكست هذه التفاعلات على نشأته العلمية ، وعلى تكوينه الاسري الجديد ، وعلى عطائه العلمي ... اما أثرها على تكوينه الاسري الجديد ، فيتمثل في اقترانه بزوجة فقيهة ، وبإنجابه أولاداً فقهاء ذكوراً وإناثاً .

لقد كانت زوجته - كما يقول المؤرخون - فقيهة عابدة ، حتى أن الشهيد الأول كان يأمر النساء بالرجوع اليها في المسائل .

وأماً أولاده الأربعة ففقهاء جميعاً بما فيهم ابنته التي كان يأمر الشهيد الأول أيضاً نساء البلد بالرجوع اليها .

ويختم البستاني ترجمته الخاطفة بجانب فاعل من الجوانب التي امتازت بها الشخصية المذكورة ، يقول :

(إذا تجاوز النشاط العلمي للشهيد الأول ، واتجهنا الى جهاده الاسلامي بعامه أمكننا ان نفكر شخصيته التي ظفرت بدرجة الشهادة ، حيث غتم حياته بالاستشهاد على يد مرتزقة السلاطين الدنيويين ممن سار في ركبهم من علماء السوء الذين سعوا بالوشاية به لدى الظلمة ، وألصقوا به تهماً تكشف عن تخلف عقلية أولئك الغوغائيين ممن نصبوا العداء لمذهب أهل البيت عليه السلام ...)

وبذلك يكون الشهيد الأول قد جمع بين الفضيلتين مداد العلماء ودماء الشهداء ، حينما سخر مداده من أجل الاسلام وبذل دمه أيضاً للهدف نفسه ^(١) .

لقد تعمداً أن نذكر هذا النص الطويل كي ما يُتاح لنا أن نعطي تصوراً كافياً ، يستشف منه قابلية الباحث على الافادة من المنهج [البيوغرافي] بنحو يتوازن مع هدف الدراسة ، وإلا فمن الممكن جداً ، ان يستغرق الباحث بالتفصيل عند كل محطة قد عرض لها .

(٣) الموضوعية الجادة :

من الظواهر الملفتة ، في تناولاته الفقهيّة ، ظاهرة التجرد والحياد ، أو ما يصطلح عليه بـ (الموضوعيّة العلميّة) حيث تتضح السمة أعلاه مضميّة على خطه المنهجي لوناً بارزاً .

ان شخصيات من قبيل : (سائر ، الكركي ، العلامة الحلي ، المقدّس الأردبيلي ، الشهيد الأول ، ... وغيرهم) ، تعدّ في قمّة المستوى العلمي والريادي وعلى جميع أصعدة النشاط المورثي مما يجعل البعض يعزب عن ملاحقة نتائجها إلا في صعيد الاشادة والتعظيم وكثيراً ما يحاول البعض أيضاً ، عند ملاحظته لنوع من المفارقات التي وقع بها بعض الشخصيات الموروثة أن يلتمس لها مختلف التبريرات ظناً منهم بان كشف ذلك ، يقلّل من خطورة مركزها العلمي .

(١) مقدّمة كتاب الدروس الشرعية للشهيد الأول الذي تولّى طبعه مجمع البحوث الإسلامية في مشهد - ايران .

أقول أن ذلك كله : لا يحتجز البستاني من تسجيل ملاحظاته النقدية حيال الشخصيات المتقدم ذكرهم أعلاه بالنحو الذي عرضنا له في موضوع العلامة الحلي وملاحظاته على كتابه .

أنه يتعامل مع الحقائق بموضوعية تامة ، مسقطاً من حساباته كل ما يقف عائقاً أو حائلاً بوجه الكشف الموضوعي والتقييم الجاد .

٤) السعة والشمول :

تجيء سمة الشمول والاستيعاب في مقدمة السمات والظواهر التي تطبع ممارساته عامة ...

ولا نطيل الوقوف ، فإن في [الورقة] التي قدمها الباحث مؤخراً - لموسوعة النجف الأشرف - ما يكشف بوضوح تام ، على شمولية بحوثه وجدتها الفائقة ، حيث حاول الباحث في ورقته المشار إليها ، استعراض تاريخ المؤسسة المرجعية منذ تأسيس لبنتها الاولى وحتى فترتنا المعاصرة . كما حاول ان يرصد لعناصر التطوير لكل شخصية وما أفادته المتأخرة عن المتقدمة ، فيما حاول أيضاً كشف اللحاحات الريادية عبر وقفات عميقة تثير عند القارئ الدهشة والاعجاب .

وبعامة ، فانه ومن خلال الزاوية نفسها ساهم بتحريك المناخ التراثي وتسخير عمليات الاحياء لذا لا تجدنا مبالغين فيما لو قلنا أنه احدى الشخصيات التي أثبتت عبر نشاطاتها المتعددة ، باستكمالها لأدوات الحقل الفقهي وبنحو لا يدع للآخرين مجالاً للجدل والنقاش .

وفي نهاية مطافنا الفقهي ، أجد من الضروري ذكر بعض الحقائق المتعلقة بالحقل المذكور . فلقد وقفت - شخصياً - على مسودات دورته الفقهية التي تتضمن أغلبية أبواب الفقه باستدلال واضح وبلغة مشرقة حيث تسهل للجميع اليه الممارسة الاستدلالية ولولا ضيق الوقت لعرضت لبعض نماذجها . بغية التوقف على نوعياتها .

الفصل الخامس

الوعي العبادي

الوعي العبادي

من الطبيعي ، أن تتمايز الأساليب أو المناهج فيما بينها ، ومن الطبيعي أيضاً ، أن نجد فوارق بين باحث وآخر في طريقة معالجته للقضايا التي تمتدّ يده إليها فالفارق أو التمايز في اطار البحث والدراسة يحمل مسوغاته الخاصة به .

بيد ان المهم ، ان نلاحظ مدى تمسك الباحث بجوهرية خطوطه الايدلوجية ، ودرجة تفعيلها بممارساته الكتابية اذ المائز المهم يظلّ في مراقبة المبادئ التي يتحرك من خلالها ، مما يقربه نحو دائرة الايجاب أو بالعكس ، فترسم نتيجة ذلك أعماله بصبغة معينة وينمط ذات طابع ملحوظه .

في ضوء هذه الإشارة الخاطفة : يتسنى لنا - ونحن نتابع منحنيات دراستنا هذه - ان نلج باباً تكمن خلفه خصوصية حساسة جداً ، بحيث تلقى مزيداً من الاضاءة على ملامح (الخطاب المعرفي) الذي توفر عليه البستاني .

الخصوصية المشار اليها ، تتمثل في مديات (وعيّه العبادي) وانعكاساتها الواضحة على ما يترشح عقله به من عطاء نفاذ ، بمعنى آخر ان الموقف الفلسفي حيال ظاهرة (الابداع) أو الخلق ، يظلّ امراً متزاجاً ومنعكساً في نفس الوقت مع أي ممارسة علمية ، يخوضها الباحث .

ان المتوفر على قراءة نتاجاته ، يتحسّس بحضور مبادئ السماء في جنب المعرفة التي يتناولها بالدراسة أو التحليل النقدي .

فإن ومضات من قبيل : (حيث تظل (المعرفة الاجتماعية) جزء من المهمة العبادية التي اوكلتها السماء الى الانسان ، لدى الباحث في علم الاجتماع الاسلامي مما يترتب على ذلك ان تتحدد امامه مهمته العلميّة بوضوح وان تتحدد رؤيته للواقع الاجتماعي ومشكلاته بوضوح ايضاً مادام الباحث في الاجتماع الاسلامي ...)^(١).

(لكن دون ان يعي هذا الباحث أو غيره الدلالة العبادية لهذه المعايير - كما قلنا - بسبب عزله عن السماء ، لكنها - أي المعايير الموروثة - تُعدّ مؤشراً الى ان الطرح العبادي للظواهر الاجتماعية لابد ان يكتسب معنى (البديل) الذي نحاول اسلامياً ان نعرض له)^(٢).

ونتابع في حقل آخر : (والسّر في عدم التزامنا بمناهج البحث الأرضي هو : ان البحث الأرضي منفصل عن السماء في تفسيره للعمليات النفسية وتنظيمها ، أنه يتسلم الكائن الآدمي : (بما هو أنه موجود فعلاً) لا بما أنه كائن أبدعته السماء واناظت به مهمة الخلافة في الأرض ... ان مفهوم (الوظيفة العبادية) أو (الخلافة) يظل الأساس الرئيس في تفسير العمليات النفسيّة وتنظيمها مادامت السماء تقرر بوضوح ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهذا يعني ان (الخلافة) أو العبادة متمثلة في (الأحسن من العمل) هو الهدف الذي تنشده السماء في صياغتها للعمليات النفسيّة)^(٣).

وفي صعيد آخر يقول :

(ان الأرضيين (وهم في عزلة عن السماء) لا يعون من الحياة ، إلا كونها مساحة محددة من العمر لا ينبغي ان توظف من أجل اشباع الحاجات العابرة للانسان ... اما

(١) الاسلام وعلم الاجتماع الدكتور محمود البستاني ، ص ١١ ، طبعة بيروت .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٣) الاسلام وعلم النفس ، الدكتور محمود البستاني ، ص ٩ ، طبعة ايران .

لماذا وجد الكائن الآدمي ، وما هي مهمته من الحياة ، وما صلته بالمبدع ، وباليوم الآخر ... فامر بجهله أدباء الأرض تماماً ...

ان ما ينبغي ان نقرره بحسم هو : ليس السؤال عن (توظيف) الفن بل ينبغي استبداله بسؤال آخر هو : ما هي امكانات (الفن) : في تحقيق المهمة العبادية التي خلقتنا السماء من أجلها ...^(١).

أقول : يتضح من الايماءات المتقدمة - وهي كما لاحظنا متناثرة في عدة حقول معرفية - فاعلية الوعي المذكور في صوغ الخطاب الاسلامي بوجه عام تتضح بالخصوص عند باحث اسلامي ، برّغ في بلورة تجربته مما جعلها تزداد ايجابية وتتصاعد معرفة بمبادئ الله ...

كذلك ايضاً فان الاشارات السالفة تقتادنا بوضوح الى فهم عدة مفهومات ، جاءت نتيجة الوعي العبادي .

بكلمة ثانية : ان الالتزام العميق في تقديم ما هو موافق لرغبة السماء ، قد استتلى ارتسام بعض الايجابيات في خطاب الباحث والتي يعدّها الناقدون في الوقت المعاصر ضمن لائحة الابداع والاصالة . نلمح اليها بشيء سريع :

ابتكارية الطرح :

تعدّ ابتكارية الاعمال ، احدى أهم السمات التي ترتفع بالأديب أو المفكر متألفاً في أفق المعرفة الانسانية ، بل تمنحه بطاقة الذيع والحضور المحفوفة بهالة الثمين ، مضافاً الى دخولها في نطاقات التخليد .

ومن الزاوية التحليلية : فان الابتكار يظل في أوسع دلالاته ضرباً استثنائياً ، لا يُتاح إلا لخواص النخبة المتضلعة بقضايا الفكر والأدب ... مما يتطلب من الشخصية

(١) الاسلام والفن الدكتور محمود البستاني ، ص ١٠ / ١٣ (ايران - مشهد) .

المبتكرة ان تبذل جهوداً مكثفة في توليد معمقة بحيث تسجل إثراء نوعياً ، يسهم في تطوير البناء المعرفي وترشيد العقل البشري .

يُضاف الى ذلك : ان الابداعات عامة ، وان كانت حصيلتها تنصب فيما هو ايجابي ، إلا أنها قد تختلف منطلقاتها بين باحث وآخر من حيث كونها تحوم حول اشباع رغبات ذاتية أو منطلقة من الترف الفكري المنعزل عن الحاجات الماسة موضوعياً وجوهرياً .

ومن الحقائق الثابتة اسلامياً - ان ظاهرة الابداع تنصب في كونها هدفاً عبادياً محضاً .

ومثالاً على ذلك : (الباحث الذي حاولنا دراسته) فانه يصدر في ابداعاته من وجهة فلسفية حيال كل ممارسة - سواء كانت ثقافية أو سلوكية - مما يضفي على مضموناتها نمطاً من التحسس بالجدة والخلوص .

والواقع : ان هذه النظرة انسحبت عليه من خلال (الوعي) المشار اليه . إذ الأعمال التي تستحق ان يكتب فيها - في تصويره - ينبغي اتصافها بالجدة وعدم التكرارية فالممارسة المكرورة ، فضلاً عن وصفها بـ (العبث) المنهي عنه عبادياً فهي لا تنطوي على معطى يستحق ان يتلف الانسان أوقاته اذاءه .

وتقويمياً ، نقول : أن الباحث قد التزم بهذا المبدأ بالذات فالملاحظ ان أعماله - كما يوافقنا على ذلك أكثر من باحث - قد جاءت متوسمةً باللمسات الابتكارية والاشعاعات التأسيسية ، ففي حدود ما تمكنا من رصده . وجدنا ان ثمة تبايناً في الحقول التي توفر عليها - البستاني - والآخرين . إذ جاء الأول معبراً في أعماله عن مشروع اسلامي أصيل ، يعتمد على منهجية محكمة في طرح وصياغة التصورات الى جانب توخي الدقة والتركيز في نقد الطرف الآخر مع حرصه الصميمي على ابراز الهوية الاسلامية ناصعة الابعاد في خضم السجال المحموم .

والجدير بالذكر: ان أول محاولة تأسيس قام بها البستاني تلك التي يعود تأريخها الى ما يقارب الربع قرن من الزمن ، ففي بداية عام (١٩٧٠م) وعندما شغل [كرسي] النقد الأدبي في كلية الفقه بالنجف الأشرف ، حينها وجد أن الموقف الشرعي يحتم عليه ان يقدم مادةً تتناسب مع تصورات الاسلام .

فكتب في النقد الأدبي وفي مبادئ البلاغة الجديدة كما كتب في دراسة التاريخ الأدبي ... وكلها وفق المنهج الاسلامي الخالص ...

واستمر بعدها في مشروعه التأسيسية الموسع وكما عرضنا له في حينه ...

اللغة التوصيلية :

تجنباً من الوقوع في جدليات [الاسلوبية] الصاخبة ذات المظهر الأخطبوطي ، وانسجاماً مع الموضوعية في بعض منحنيات النقد الايجابي .

ينبثق السؤال الآتي :

ما هو الهدف الحقيقي في ممارسة النشاط الثقافي ؟!!

والجواب : على حدّ ما اعتقد ، هو : الاسهام في تعديل السلوك الانساني العام ، من خلال تقديم الرؤى الحضارية القادرة على بناء مجتمع يعيش حالة من النضج التطوري .

ونعود لنسأل من جديد : عن ماهية آليات التوصيل ، بمعنى : كيفية تفعيل المبادئ مع الآخرين ؟

وبديهياً : ان ثمة قنوات متعددة بالغرض ذاته ، إلا أننا حينما نحاول قراءة الآلية الثقافية بصفتها العنصر الأساس في تعديل السلوك نصطدم مع واقع معقد تغيب فيه الجدة والواقعية في تحقيق المطمح المذكور .

إذ يلاحظ على النتاج الثقافي والفكري معاً سمة الغموض والتحليق في آفاق

مضبية ، بحيث تتشابه الدلالات على القارئ الممتاز فضلاً عما هو متوسط أو عادي ، بسبب غيمومة السياقات الفاصرة على تقديم الخطاب الفكري بشكل ينسجم مع تفاعل المتلقي .

والسبب يعود مع بدأ الانفتاح الفكري أي الى نقطة الوقوف على نتائج الطرف الآخر وبخاصة مع العقود الثلاثة من القرن الحالي - الستينيات ، السبعينيات ، الثمانينيات - حيث اعتمد الطرف المذكور في خطابه المعرفي على ضبابية اللغة وتناقض الأسلوب ، كما توكأ على الرمز في الاشارة على مفهومات معينة ، فامر حدث نتيجة التلاقح أو بالاحرى : وفود نتائج الطرف الآخر بزخمٍ مذهل عبر الترجمة والتعليم - أن قام جمع من الشخصيات النخبوية ذات الهوية أو الانتماء الاسلامي ، في مثل الخطاب الأنف ومجارة طرائقه في الطرح والتثقيف . لذا برز على السطح الثقافي في أوساطنا بخاصة (خطابان) معرفيان يختلف أحدهما عن الآخر . خطاب تقليدي يمتد مع اسلوبية (الموروث) بتفاوت قليل من جهة اللغة . وخطاب يتعامل مع شريحة محدودة ، إذ اعتمد على نمط خاص في صوغ المعرفة .

ونتيجة لهذين الاتجاهين ... فقد لوحظ ان ثمة انحساراً في متابعة الكتابات المنتمية الى الخطاب الموسوم بالحدائث والتجديد ، كما لوحظ ايضاً انخفاض في تقبل ترشحات انخطاب الموروث الذي تمثل دوره شخصيات متعددة لا يمكن تجاهلها أو التقليل من فاعليتها .

من هنا : فقد انبرى البستاني في معالجة هذه الاشكالية الملحة برسم خطوط تبلور من خلالها معطيات التجريبتين . منطلقاً في ذلك من صميم الوعي العبادي المذكور .

ركز البستاني على مفروغية التوفر الجاد على لغة ذات نسق عصري ، بيد أنه شدّد

من عملية التحفظ خشية الوقوع في شباك التغريب ، ولكي تتضح الرؤية نحاول ان نعرض لنظراته بشيء من التفصيل :

يقول : (سلفاً ينبغي ان نفترض مفروغية الكتابة بلغة العصر مادام العقل يفرض علينا ان نقوم بعملية توصيل المبادئ الاسلامية الى الآخرين . ومن ثم لا بد من مخاطبتهم باللغة التي يفهمونها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ﴾ .

ان التصور العلماني للحياة قد يفرض على كتابه أمثلة هذه اللغة (التغريبية التي تتساق مع طبيعة حياتهم المنعزلة عن مبادئ السماء ... إنهم يمارسون ترفاً فكرياً يتناسب مع عبثية حياتهم ... أو يمارسون [لغة] تتوافق مع تصوراتهم اللامعقولية معقولة الحياة منعكسة على (لا معقولة اللغة) أيضاً أو يمارسون [لغة] تتسق مع الظاهرة المرضية (التأكيد على الذات من خلال بحثهم عن « التقرير الاجتماعي » الخاص بـ (النخبة) المثقفة ...) .

اما نحن - بصفتنا اسلاميين - فيتعين علينا أن لا نسمح لانفسنا بمثل هذه (التبعية الذليلة) لشرائع بشرية منعزلة عن السماء ومبادئها ... بل يتعين علينا أن نكتب بلغة (توصيلية) تتوافق مع مهمتنا العبادية في الحياة مع الأخذ بنظر الاعتبار كلاً من (حداثة اللغة) من جانب وتطبيعها بالسمة (الاستقلالية) من جانب آخر ، بحيث تكون للغة الاسلاميين ، خصوصية تماثل خصوصية الفكر الاسلامي نفسه ، على نسق ما نجده من خصوصية لغة القرآن الكريم ونصوص المعصومين عليه السلام مضافة بطبيعة الحال الى توفر عناصر الفن اللغوي من جانب ثالث ...) .

كما طالب البستاني كذلك ... الكتاب الاسلاميين بالانسلاخ عن عملية استخدام [المصطلح العلماني] ... [وان يتوفروا على صياغة مصطلحات تتناغم مع التصور الاسلامي للحياة ...] ^(١) .

اقتصاديّة اللغة :

لا زلنا في اطار الحديث عن الآليّة اللغويّة - الخطاب من جهة اللغة - حيث تبرز ظاهرة [الاقتصاد اللغوي] مفصّحةً عن الوعي المذكور من جانب ، ومعربة عن فاعلية الممارسة المتوفرة عليها في مجال [التوصيل] من جانب آخر .

بدءً ينبغي التأكيد أو الإشارة إلّا أن الظاهرة المشار إليها ، عرضت البحث لشيء من النقد الذي يفرض النظر والنقاش .

تحوم [اقتصادية اللغة] على القدرات المركزة في توّسل الباحث بالاداة المحفزة على تنشيط عمليّة الاستجابة ، عبر توظيف المفردة في تفاعل المعرفة ، وتهيئة المناخ الفكري المعتدل ...

والملاحظ ، أنّ ذلك يتم من خلال التخطيط الواعي في انتخاب جزئيات الاسلوب المحكم واختزاليّة التركيب المنطوي على المتانة والنفوذ .

إذ ان الاساليب المهلهلة أو المطبوعة بفجاجة التجربة ، تصنع حواجز غليظة ، بين الفكرة ومتلقيها مما يشكل عرقلةً حادة في عملية التفاعل المنشود .

والواقع ، ان الشخصية الاسلامية وهي تعيش في غمرة الممارسة الثقافية ، يتعيّن عليها ان تكون متناغمةً مع ملامح هويتها الفائقة ، بل يُفترض ان تأتي بأكثر من دلالة أو مؤشر ايجابي في نشاطاتها الكتابية ومنها الاتصاف بـ [الاقتصاد] المذكور .

فثمة من يتسائل بالحاح ، عن المسوغ في كتابة صفحات ملأى بالحشو والكلمات الفضفاضة بينا من الممكن ، اختصارها بمساحة أصغر من حيث الحجم والنوع ، شريطة ان يرهق الكاتب [عصبه] لتقديم ما هو أفضل وأجود ...

والملفت ان كثيراً من الكتاب الاسلاميين ، يختل توازنه أثناء عملية الانتاج ، فتتلاعب به السيقان يميناً وشمالاً ، حتى ليخرج عن دائرة الموضوع ، دون ان يرسو على مرفأ الفكرة المراد توصيلها الى المتلقي .

ونقف مع البستاني عند هذه الخصيصة بالذات . لنلاحظ كثافة وعيّه الحاد في تضخيم معطيات الظاهرة اللغوية المشار إليها ، وتجسيدها فعلياً عبر ممارساته ... فهو يصدر في اسلوب خطابه المعرفي ، من حيث البناء الخارجي له ، عن نص اسلامي ذات قيمة فائقة ، يخبرها المعنيون بعلم [اللّسانيات] المعاصر . لذا لا تجدنا بحاجة للدخول مع ممن أسلفنا في ذكرهم ، حيث يطالبون البستاني بالتبسيط والترسل ... الخ .

ان النص الاسلامي المذكور أي النصّ للإمام الصادق عليه السلام يلقي المزيد من الاضاءة الموضوع ذاته إذ يحدد لنا النص ، نجاحية الأعمال عبر توفرها على هذه النقاط الآتية :

١- التقرب من معنى البغية .

٢- الابتعاد عن حشو الكلام .

٣- الدلالة بالقليل على الكثير .

وخاصةً أننا نعلم سلفاً ، ان البلاغة حسب التعريف الاسلامي لها : [التعبير عن الشيء بأقل ما يمكن من العبارات] .

والجدير بالذكر : ان الكلام عن الاقتصاد اللغوي ، لا يعني بالضرورة الغاء لفاعلية [الاسهاب] أو [التبسيط] فليس من شك ان للاسهاب في بعض الموضوعات ، متطلبات ملحوظة ، لا يمكن اغفالها أو الوقوف حيالها بسلبية ، وهذا ما لم يغفل عنه البستاني : [لأن بعض الموضوعات ، تتطلب عدم الاقتصاد ، بل العكس من ذلك تماماً انها تتطلب مزيداً من التوضيح ، ومزيداً من التكرار: لغرض تعميقها في الاذهان وجعلها مؤثرة على المتلقي] ^(١) .

ويضع الباحث باصبعه على نقطة مهمة جداً ، حيث أشار الى ما قد يحصل من

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي ، ص ١١٤ ، الدكتور محمود البستاني .

المفارقات جراء عملية الاقتصاد أو الاسهاب ، فيقول : [ينبغي لفت النظر الى ان لكل من الاقتصاد والاسهاب حداً ، إذا تجاوز حينئذٍ يفتقد بلاغته . فالاقتصاد اذا بلغ حدّه ، تحول الى كلام مخلّ وناقص لا يحقق هدفه المطلوب .

والاسهاب إذا بلغ حدّه ، تحول الى حشو وفضول وزوائد لا فائدة منها] ^(١).

بقي أن نلمح الى أنّ : الخطاب المعرفي الذي افرزته تجربة البستاني كان يقع ضمن تخطيط مدروس تتواشج في نسجه أكثر من أداة ، حاولنا فيما مضى ذكر قسم من نماذجها وتركنا الجزئيات الاخرى لذا فإنه يمثل ، تجربة متكاملة ذا اسلوب ، ينسم باعتماده الدقة والخبرات العلمية في توصيل المعرفة بثتني مستوياتها ومختلف تخومها الى المتلقي ، مما يجعل القارئ أو المتابع يتحسّس بنكهة خاصة وتميز واضح فيما لو حاولنا مقارنتها بأعمال الرموز الاسلامية الأخرى .

وهي بعد ذلك كله : أصداء حيّة لوعيه العبادي المذكور .

التجربة الروحية وانعكاساتها الثقافية :

نضع بأيدينا عبر الموضوع أعلاه [التجربة الروحية] في مركز دائرة الضوء التي ، تضاعدت بشخصية البستاني روحياً وسلوكياً ، فالتهمت نتيجة ذلك أعماله وكلماته ومواقفه ... بعقب المعرفة الالهية ولفح توهجها ... حيث عايش تجلياتها وما تكتنزه من دقائق بعمق وصفاء وكدح سلوكي يتحسّس أبعاده كلّ من تذوق حلالة ذلك الطريق ...

على أية حال : أضفى البستاني على حقول الفكر والمعرفة التي تطرق لموضوعاتها ، زخماً من الرؤى الروحية المعبرة عن خصوبة وفاعلية المعطى الاسلامي ، بنظراته الواسعة ، للكون والانسان والحياة وعلاقة كل ذلك ، بالمبدع العظيم . إذ ألمح من خلال ومضاته التي نشرها باتقان على جميع نشاطاته المتعددة

[كيفية] الانشداد الحي بين الذات ومبدعها أو بالاحرى لقد أعطى بسمته المذكورة ، نموذجاً واقعياً ، للصيغة الثقافية ذات الانتماء الاسلامي الرفيع .

اننا لنجد في قراءة نتاجاته ، حالة من التصعيد الروحي ، شعرنا بمناخ من الخشوع والشفافية التي نجدها أو نحظى بها في لحظات التعبد والانقطاع .

أنه مذهل حقاً ، حيث تتحول عنده الاشياء جميعاً الى مفهومات عرفانية بحثة ، حتى في تناوله لبعض الجوانب العلمية الصرفة فإنها تخضع لرؤيته المشار اليها .

خذ على سبيل المثال : دراسته الفقهية المتعلقة بالمقدس الاردبيلي^(١) حيث أرجع مركزيات الأردبيلي ؛ في ممارساته الفقهية من قبيل : الاحتياط وظاهرة السهولة واليسر في بعض الموضوعات وتعامله مع الاجماع والمشهور والاصول العملية ... الخ الى ما كان يتمتع به المقدس الاردبيلي ، من ملكات روحية وسمات تتناسب وضخامة الشخصية العارفة أو [التقوائية] وهنا - يحسن بنا - أن نعرض لبعض النماذج التي يستشف منها أنفاسه الروحية المنعكسة على نشاطه الثقافي ، علماً بأننا سنقف مع البستاني طويلاً في حوار حول الموضوع بأكمله .

والواقع ، ان عملية تفعيل الجوانب الروحية في ممارساته لا تنحصر في نوع معين أو جانب خاص ، بل تأخذ أشكالاً متنوعة ، بحيث ينفذ نحو أهدافه المخطط لها سلفاً عبر زوايا متعددة ... ، فتارة من زاوية أدبية واخرى فنية وثالثة فكرية محضة ... وبالوقت الذي يتطرق فيه لعناصر الفن ومعطياته في النص الذي يتناوله من الزاوية النقدية ، يطالعنا بنفحات [تقوائية] ، تسهم في جمالية التذوق الفني المنطوي عليه النص ذاته . وكذلك فانه يكشف - أيضاً - في خضم محاكماته للاتجاهات الأراضية ، فيما يتعلق بالحق النفسي عن كنوز روحية غفل عنها الباحث

(١) الدراسة المشار اليها بعنوان ، المقدس الأردبيلي عارفاً وتقياً قدمها الباحث ضمن ورقة المؤتمر الدولي المنعقد من أجل تكريم الأردبيلي في ايران ، صيف ١٩٩٦ م .

الأرضي في حين أكدت عليها السماء .

خذ على سبيل المثال : ما جاء في تناوله للقصة القرآنية الكريمة وبخاصة « قصة مريم عليها السلام » فبعد ان ألمح لعناصر القصة الفنية من حيث تطابقها مع أحداث الاتجاهات في حقل القصة المعاصرة ، يقفز بنا الى سياق يزدهم بالايحاءات والاشارات الروحية ، يقول تحت عنوان بيئة القصة : (البيئة التي تتحرك أحداث القصة من خلالها هي : المحراب والنخلة ... فالمحراب ، أو المكان المهجور ، أو المكان الشرقي : يجسّد مكاناً أبرز ما فيه هو : العزلة عن الآخرين والابتعاد عنهم . بيد أن هذا المكان ، يحفل بإمكانات معطاء ، لا تقاس بالإمكانات التي يفرزها المكان العادي :

فالمكان العادي قد يحقق للشخصية قدراً من الاشباع لكل من الدافعين : الانتماء الاجتماعي والتقدير الاجتماعي . لكنه لا يُقاس بضخامة الاشباع الذي تحقّقه (العزلة) في (المحراب) إنها . أي : العزلة - تعوض الشخصية عن انتمائها الى الآخرين ، انتماء الى الله سبحانه وتعالى .

وتعوضها من التقدير والحبّ اللذين يمنحهما الآخرون ، بتقدير يمنحه الله ... فالآخرون أيّاً كانوا - يظّل تقديرهم وحبّهم محدوداً بقدر محدودية الانسان نفسه من حيث قدراته المحدودة في العطاء .

وهذا على العكس من السماء التي لا حدّ لعطائها .

ان البشر العاديين هم الذين يحسّون بالحاجة الى الانتماء الى مجتمعاتهم . إما الصفوة البشرية فهي التي تنطفأ لديها مثل هذه الحاجة حيث يعوضونها بالحاجة الى الانتماء الى (الله ...) من هنا تحقّق العزلة عن الآخرين والاتجاه نحو الله أشباعاً للشخصية لا حدود له ، من خلال احد رموزه وهو : المحراب ، أو المكان المهجور ، فان المحراب أو المكان المهجور من حيث دلالاته العباديّة يمثل وعاءً يحتشد

بالعطاء والامتلاء على العكس من دلالاته الاجتماعية التي تمثل العزلة والفراغ^(١).
ان أدنى تأمل في منحنيات النص المتقدم ، يقتادنا الى الوثوق بوجود تجربة
فعليّة يحياها الباحث ، بحيث انفجر في تعامله مع النصّ معبراً عمّا تنطوي به
أعماقه ... وما يختزله (اللا شعور) عبر إرهاصات التجربة ... وحضور التجريد
العميق ...

ويقول في تعامله مع قصّة اخرى :

(... والمهم إن إيهام هذه الشخصية أو اخفائها^(٢) عن الآخرين ، يدلنا على انها
لم تُعن بما تُعنى به الشخصية الأرضيّة ... وواضح ان التأكيد على الذات ، والتعريف
بها أمام الآخرين ، ومنه : التقدير أو الثناء أو المكانة الاجتماعية التي تتطلع
الشخوص اليها ، يعدّ من إبرز (مظاهر) الزينة الدنيوية التي يُعنى بها الآدميون . فإذا
ألغت الشخصية هذه الحاجة الى معرفة الآخرين بها .. حينئذٍ نستكشف بوضوح ،
أن هذه الشخصية قد ألغت الحياة وزينتها من الذاكرة تماماً ، وتمحضت في نشاطها
العبادي لله وحده)^(٣).

ننتقل في عرضنا للنماذج الى زاوية اخرى ، ونحدّد بالذات حقل التربية أو النفس
الذي يحتشد بالدلالات المذكورة ، جاء في إحدى السياقات : (... إما إذا نقلنا هذه
الظاهرة الى السماء ، حينئذٍ فان إمكانات السماء التي ابدعت الأرض ومن عليها ، تطلّ
بلا حدود من حيث عملية التقدير المتبادل ، فالشخصية التي تمارس الصلاة عندما
تنتبّه الى أنها واقفة حيال مبدع الأرض ، حينئذٍ فان (الدافع الى المعرفة لديها)

(١) دراسات فنية في قصص القرآن ، ص ٣٤٣ ، الدكتور محمود البستاني .

(٢) المقصود بالشخصية المجهولة أو الخفية ... هي صاحبة موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف ، الآية ٦٥) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١١ .

سينتجه الى السماء بنحوٍ لا يضارعه أي توجه آخر... وبالمقابل ، فان هذه الشخصية حينما تنتبه الى ان (المبدع) متوجه حياها ، وأنه (يثمن) وقوف الشخصية ، والى أنه لا يملّ من محادثتها بصفة ان الشخصية مهما أكثر من ممارسة الصلاة وطالت الوقوف بين يدي الله ، حينئذٍ فان (تقدير) الله (يزداد حياها بعكس الشخصية الأرضية التي تمتلك طاقات محدودة من الاستعداد لمقابلة الشخص الآخر ومحادثته بحيث يدب إليها عنصر الملل بقدر طول المقابلة والمحادثة بينهما^(١) .

ونختم عرضنا للنماذج ، بهذين النصين الدقيقين :

يقول : في تعليقه على أحد النصوص الأدبية - (ان الوصول الى معدن العظمة لا يتأتى إلا لمن محض كل تحركاته لله تعالى وأفنى كل جوارحه تعاطفاً ومعايشةً ووجداً مع الله تعالى)^(٢) .

والنص الأخير : (... ولعل المعطى الدنيوي الذي تفرزه بعض درجات (التقوى) ، تتمثل في إمكانية ان (تخرق أبصار القلوب حجب النور) فتتعامل مع قنوات الغيب)^(٣) .

كانت هذه الاشارات السريعة مجرد اضاءة خفيفة أو اشارة في طريق التحفيز لما هو أشمل وأعمق من حيث البحث والنقاش ... بهذا الجانب خاصة .

جلسة الاثنين :

يعود تأريخ هذه الجلسة ، الى فترة بعيدة ، تتجاوز (الربع قرن) وهي ، في شكلها العام ، نمط تربوي أصيل ، يتكفل بتعديل السلوك واشباع الحاجات الروحية ، كما يشكّل محطة يراجع بها الافراد أنفسهم بالنسبة الى علاقاتهم مع الله والآخرين .

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي ، ج٢ ، ص ٢٩٢ ، طبعة بيروت ، د. محمود البستاني .

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي للباحث ، ص ٢٣٨ .

(٣) دراسة للباحث بعنوان المقدس الأدبي عارفاً وفقياً .

وهي بعد هذا وذاك أحدى مظاهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام حيث يبدأ البستاني جلسته ، بانتخاب النصوص الأخلاقية من الكتب الحديثية المعتبرة في هذا المضمار ، متعرضاً لوجهات نظر الحضور ، ومحدداً لهم ، نقاط العمق التي ينبغي أن يحوم النقاش حولها . وكثيراً ما يحدث جراء ذلك اختلاف في وجهات تذوق (الشخوص) ، ويحتدم الجدل فيما بينهم ، علماً أن الحضور جميعاً ممن لا نتحرج في خلع سمة (النخبة) عليهم ، فهم بين استاذ حوزوي أو كاتب اسلامي ...

فيثب البستاني من بينهم حاسماً الموقف بتفسير صائب للنص المناقش فيه ، وبحذاقة يستجيب لها جميع الجلساء ، فيحدث التوافق ، لتنتلق الجلسة (بنص) آخر .

والجدير بالعرض ، ان البستاني - من خلال عملية قراءة النصوص - يلتقط من الأحاديث ماله مساس عمليّ بسلوك أحد الوافدين لجلسته دون ان يشعره أو يشعر الآخرين بقصده ، بحيث يبدو للجميع بان العملية عفوية ، ليمرّ من خلال النص الذي يطرح أرشاداته وتوجيهاته الى الشخص ذاته ، وبصورة لا تثير حساسية الطرف المقابل أو تعرضه للإحراج والتشهير .

ولشدة حرصه والتزامه بجلسته هذه ، فقد حدثني يوماً ، بأنه أقام برنامجها المعتاد - النصوص الاخلاقية وذكر مصيبة الحسين عليه السلام في قاعة أحد المطارات خشية أن يفوته الوقت .

كما قال : - لي أيضاً - (لقد علمتُ بعد مجيء من لندن ^(١) ، بأن جلستنا الاسبوعية ، قد أصبحت [سنة] بين جمع من أصحابنا هناك ، حيث أسست على اثرها عدت جلسات وبنفس النمط المتبع في جلستنا ...

(١) كان الدكتور قد سافر خريف ١٩٩٥م الى لندن إثر دعوة رسمية وجهتها له : (الجامعة الاسلامية في لندن من أجل تقديم برنامج دراسي على طلابها) .

وبكلمة منصفة : فان الجلسة المتحدث عنها ، اطلالة صادقة على عالم النفس ، ودعوة موفقة نحو التصاعد الروحي بغية تحقيق الهدف العبادي المشود .

وهي بعد ذلك كله ، مزيج من الروحانيّة والتجريد الصوفي ، بتفاعل وجداني عميق ، يستولي بنفوذه على جميع المشاركين .

نأمل تكاثر أمثالها في أوساطنا عامة ، لنعالج جزءاً من استبدادات الخواء الروحي في زمننا الحاضر .

أشياء تربويّة :

توجد في غضون الكتاب ، اشارات عابرة عن ملامح اسهاماته التربويّة ولكن بشكل عام وغير خاص ، لذا وجدت أن أفرد للموضوع ذاته عنواناً مستقلاً . كيما تكتمل لدينا صورة عامة عن الذات وما حققته في تجربتها الاسلامية الحافلة بالرشد والعطاء .

والواقع ، ان أصدقاء البستاني وتلاميذه ، يدركون هذه السمة أو الحقيقة التي هي من أشد سماته العامة ، التصاقاً بسلوكه وحياته .

فلقد أدركت من خلال صحبتي ومعايشي معه ، انه ممن لا يدعون فرصة ، تمرّ دون أن يستثمروا أبعادها ولحظاتها في مجال النصيح والارشاد والموعظة ... وبمختلف جوانب الظاهرة الحياتية - البيت السوق ، الكلية ، الزيارة ، الطعام ... الخ .

ولكن : أن أوضح ممارساته التربوية ، تتركز في فترات وجوده في كلية الفقه كاستاذ لجملة من الدروس . ولمدة عشرة سنوات حيث أسهم في تغير مجرى العديد من حياة الطلاب والطالبات هناك عبر عمليات بثّ المتواصلة للنصوص الاخلاقية والحكايات ذات التأثير العميق في نفوس الطلبة والسامعين وأحياناً كان يتدخل بصورة مباشرة حينما يلاحظ بعض الانحرافات والظواهر السلبيّة ، فينصح ويعظ في سبيل دعم السلوك الايجابي ورشد مسارات الطلاب الاسلامية .

وفي جانب آخر، فقد شارك في إعداد جملة من برامج الاذاعة والتلفزيون - القسم العربي - من قبيل : القصّ القرآني الدعاء ، والحلقات المتواصلة في الحقل النفسي ... وغيرها الكثير مساهماً في توعية الجمهور ورسم الخطوط العامه لتحركاته وثقافته ...

الفصل السادس

حوار متنوع

يتضمن جملة قضايا

حوار متنوّع يتضمّن جملة قضايا*

س: أرى من وجهة نظري الخاصّة إنّ المجتمع الذي تعيش داخله ، قد بخسك حقّك ، وبعبارة أدقّ : لم يمنحك المكانة اللائقة كمفكّر ومرشد عمل على رُفد وتأصيل هويته ، الإسلامية من خلال الكمّ الهائل من البحوث والمؤلّفات المعرفية ، فماذا تقول؟

ج: إنّ الهدف هو أن يؤدّي الإنسان وظيفته ، والإنسان عندما يضع الله سبحانه وتعالى بنظر الاعتبار ، حينئذٍ ينطفئ المجتمع تماماً في ذهنه ، فالمسألة ترتبط بدرجة وعي الإنسان لذلك ، فإنّ أهمّ شيء يحسّ الإنسان بالتوازن هو أن يعمل من أجل الله ، لأنّه إذا عمل من أجل الناس ، فقد يصاب بالخسران أو الإحباط ، أي إنّ الناس لا يثمنونه كلّ الثمنين ، حينئذٍ إذا كان يعمل من أجل الناس فسيصاب بنكسة وبردة فعل قويّة تؤثّر على سلوكه ، وهذا ما نجده لدى الأشخاص الدنيويّين ، حيث أنّ عدم تشجيعهم ، يجعلهم يتلكّثون في مواصلة أعمالهم ، ويصابون بخيبة أمل كبيرة. وهذه خسارة ، لكن الذي يعمل من أجل الله ، حينئذٍ لا يعنيه تشجيع المجتمع أو تثبيطه والسبب في ذلك أو بالأحرى يمكن القول : كيف يمكن الإنسان أن يستحضر هذه الجوانب في ذهنه ، بحيث يستطيع أن يمارس عمله دون أن يضع المجتمع في الحسبان؟
الحلّ هو أن يسلّط وعيه الكامل على المسألة ويستحضر في ذهنه ، أنّ الله

* أجري هذا الحوار عام ١٩٩٦م في بيت الدكتور البستاني ، ويلاحظ فيه أنّه قد تمّ بصورة ارتجالية.

سبحانه وتعالى مطلع عليه تماماً ولا يغيب عنه لحظة واحدة، فحينئذٍ إنَّ التثمين الذي يتسلمه من الله تعالى، يجعله ممثلاً بالغبطة والسرور والإشباع التام، وكما قلت: إذا عرف حينئذٍ، أنَّ الذي فلق الكون والإنسان هو الذي يقدره ويشئنه، حينئذٍ ستنطفأ البشرية في ذهنه تماماً وتتحول إلى شيء لا وجود له في الذهن وهذا ما يطبع - كما قلت - الأشخاص الذين يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى، هذا من جانب، ومن جانب آخر إنَّ الملاحظ من النصوص الشرعية، أنَّ الله سبحانه وتعالى يلمح إلى هذا الجانب، أي أنَّ الإنسان إذا أطاع الله وعمل من أجله، فإنه سيحمل الناس على أن يحترموه ويقدروه ويحتلّ موقعاً خاصاً بحيث يربح الدنيا والآخرة.

لكن السؤال هنا أيضاً: هل إنَّ الإنسان بسبب محبته لتقدير الآخرين عليه أن يتجه إلى الله تعالى ويتعامل مع الله في هذا الإطار بغية أن يظفر بالتقدير الاجتماعي من خلال الله هذا أيضاً من الغفلة بمكان كبير، والمهم أن لا يضع شيئاً غيره في ذهنه. يبقى أنَّ التقدير من المجتمع يترك أثره حينئذٍ فهذا يزيد استبشاراً من الشيء لا مانع منه، ولذلك لا تضاد بين قولنا أنَّ الإنسان لا يضع المجتمع في الحساب وبين أن يستبشر إن ظفر بالتقدير الاجتماعي من الناس لأنَّ الاستبشار هنا كما هو مدلول النصوص الشرعية معناه أنَّ الإنسان يحس ما قدّمه من عمل عبادي قد اقترن بقبول الناس، وهذا يشجعه ليس ذاتياً وأنما يشجعه نوعياً أي بما أنه أراد أن يوصل مبادئ الله تعالى إلى الآخرين حينئذٍ وجدان هذا العمل قد تحقق من خلال تقدير الناس لعمله فهو يستبشر لا لأنه حقق ذاتية أو فردية، بل لأنه حقق هدفاً موضوعياً من أجله تعالى.

س: وددنا أن نستحصل على رأيكم أو بالأحرى تقييمكم بالنسبة إلى ما يكتب في الوقت الحاضر، ومدى تمثيل الكتابة والكتاب الإسلاميين لوظيفة العبادية؟

ج: من المؤسف جداً أنَّ الكتابات لا تستوعب ما يجب أن تكون عليه، وأكرر قولي

- من المؤسف - أن كثيراً من كتابنا لا يُعنون بالكتابة الهادفة ، بل تجدهم يطرحون موضوعات لا تخدم الإسلام البتة ، وهذا في الواقع ضياع للوقت ، إن النصوص الشرعية طالما تشير إلى أن الإنسان في اليوم الآخر يتحسر على ضياع وقته وكيف أنه أضاعه في ما لا فائدة فيه ، فالمفروض أن يلتفت الإنسان - قبل فوات الفرصة - إلى وظيفته في الحياة وأن يوظف كتابته كلها من أجل الله سبحانه وتعالى ومن أجل الإسلام ، أما الكتابة عن أشياء مباحة ، صحيح لا ضرر فيها إلا أنها لا تنطوي على الفائدة وتعتبر تضيقاً للوقت ، وكذلك تعتبر عملاً عابثاً ، إذا لم تنطو على فائدة اجتماعية ، فحينئذٍ ، سيندم الكاتب - دون أدنى شك - عندما يجد أن ما صرفه من ساعات وليال وأيام وسنوات كلها مصروفة .

س : المعروف أنكم لا تكتبون إلا ما هو مبتكر في بابهِ ، فما هي الدواعي التي أدت بكم إلى الكتابة عن تاريخ الأدب العربي وهو موضوع كتب عنه الكثير؟!!

ج : بالنسبة إلى تاريخ الأدب ، الملاحظ أن كل من كتب في هذا التاريخ ، حاول أن يؤرخ للأدب في كل مستوياته سواء أكان الجانب إيجابياً في ذلك أو كان سلبياً ، وبما أن الأدب السلبي يترك أثره على القارئ ، حينئذٍ فإن هذه النظرة الذاهبة إلى أنه ينبغي تسجيل كل شيء ، هذه النظرة أراها لا تتسق مع الهدف الإسلامي .

إن كُتِبَ التاريخ الأدبي ، غالباً ما تكون كتباً دراسية ، أي أن الطالب الجامعي يقرأ هذه الكتب ويحفظ نصوصها الشعرية والنثرية وفي الغالب - كما تعرفون - أن الشعراء وهذا شيء يؤسف له جداً في غالبيتهم غير ملتزمين ، فتراهم يتناولون مسائل محرمة شرعاً أو محظورة كشعر الخمر والجنس والهجاء واللهو... الخ حينئذٍ فإن تسجيل مثل هذه المادة وتحميلها على الطالب سوف تترك أثراً سلبياً عليه ، مضافاً إلى أنه تشجيع إلى نشر كتب الضلال ، فكيف نسمح لأنفسنا كإسلاميين أن نكتب بحثاً أدبياً مليئاً بالظواهر السلبية التي تتنافى مع التشريع الإسلامي وندع الطالب يحفظ هذه النصوص المنحرفة ، ولا شك أن هذه

النصوص تترك أثرها بشكل لا شعوري على الطالب بحيث تبقى محفورة في ذاكرته إلى آخر عمره وهذا ما لحظناه عند الكثير ممّن تخرّج من الجامعات واحتفظ لا شعوره بالمخزونات التي تلقّاها في المرحلة الجامعية أو ما قبلها تُحفظ أشعار الغزل أو الخمرة أو مدح السلاطين الظلمة والطغاة... الخ. لذلك وجدت أنّ الحاجة ماسّة جدّاً - ونحن نسعى إلى أسلمة العلوم الإنسانية - أن نكتب تاريخاً للأدب جديداً، يؤرخ للحياة الأدبية بشكل موضوعي، إلّا أنّه لا يستشهد بالنصوص المنحرفة بقدر ما يشير إليها، فمثلاً نحن نرسم خارطة لكلّ الشعراء والكتّاب الذين عاشوا في هذه الفترة أو تلك، ونشير إلى أنّ هذا الشاعر كان منحرفاً وإلى أنّه عرف بهجائه أو غزله أو بانحرافه... لكننا لا نستشهد بنموذج انحرافي عُرف عنه بقدر ما نعرّف بشخصيّته في هذا المجال، ثمّ نقدّه لأننا إذا لم نلفت نظره إلى الانحراف، فإنّ الطالب الذي سوف يقرأ هذا الكتاب، يخيّل إليه أنّ هذا الأدب مباح ولا غبار عليه، ولكننا إذا نقدناه وقلنا: إنّ هذا الأدب منحرف، حينئذٍ سيفهم الطالب انحراف هذا الجانب وسيترك أثره في تعديل سلوكه، لذلك عندما بدأت الكتابة عن التاريخ الأدبي، كنت اختار النصوص الإيجابية فحسب، وأحياناً اختار النصوص المحايدة [كوصف الطبيعة] مثلاً، وأمّا النصوص المنحرفة فلم استشهد بها البتّة للأسباب التي ذكرتها وأهمّ شيء هو أنّ كتابة هذه النصوص تنقد في ضوء المنهج الإسلامي أي أنّ كلّ نصّ نجده لا يتناسب مع جوهر التشريع، حينئذٍ نشير إليه ونقدّه دون أن نستشهد به - كما قلت - وأمّا النصوص الإيجابية في الغالب نخترها، أمّا تتّصل بتوحيد الله أو بمدح المعصومين (عليه السلام) أو ظواهر أخلاقية... الخ.

هذا من جانب ومن جانب آخر وجدت أنّ غالبية المؤرّخين يُخضعون تاريخ الأدب إلى تقسيم سياسي أيضاً، وهذا التقسيم السياسي - بالواقع - تقسيم مرسوم، مثلاً: الأدب في عصر صدر الإسلام، الأدب في العصر الأموي، العصر العباسي الأوّل، العصر العباسي الثاني، في العصر الأندلسي، في القرون

المظلمة ، وجدت أنّ هذا التقسيم لا يأتلف أيضاً ، مع ما ينبغي أن نخطّه من خطة في تقسيم الأدب ، والملاحظ في السنوات المتأخرة أنّ غالبية النقاد يحتجّون على مطلق التقسيمات التاريخية ويرون أنّ أفضل تقسيم هو تقسيم النصّ الأدبي إلى مسائل فنيّة صرفة ، أي الأشكال الأدبية وتطوّرها والأساليب الأدبية... وليس تقسيمها من خلال العصور ، فإذا أخذنا هذا الجانب بنظر الاعتبار فحينئذٍ ، أنّ تقسيم الأدب إلى عصور سياسية ، لا يأتلف أولاً مع طبيعة الأدب كفنّ ثمّ لا تأتلف مع تصوّرنا الإسلامي ، فنحن كإسلاميين ننتمي إلى الطائفة المحقّقة حينئذٍ ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار ، أنّ العصور في الواقع هي عصور المعصومين عليه السلام : عصر النبي صلى الله عليه وآله ، عصر الإمام عليّ عليه السلام ، عصر الحسين عليه السلام ، عصر السجّاد عليه السلام ، عصر الصادقين عليهم السلام ، عصر الكاظمين عليهم السلام ... الخ عصر الغيبة... لذلك وجدت أنّ تقسيم الأدب وفق تاريخ مذهبي ، يتناسب مع طبيعة إيماننا بمشروعية المعصومين عليهم السلام ، فالعصور هي عصورهم وليست عصور أولئك الأمويين أو العباسيين وغيرهم من المنحرفين.

س : مادام السياق قد وصل بنا إلى أشكالية التقسيم - تقسيم العصور الأدبية - نرجو من جنابكم ، أن تحدّثونا بشيء من الوضوح ، حول الموضوع بخاصة ، عن الأسئلة التي أثارها العديد من النقاد المعنّين؟

ج : الواقع أنّ الانتقادات كانت تصبّ في جانبين :

الجانب الأوّل هو نفس التقسيم الذي ذكرته ، والجانب الآخر هو أنّني لماذا لم استشهد بالأدب المنحرف!!؟

أمّا الاستشهاد بالأدب المنحرف فقد ذكرته قبل لحظات ، وقلت إنّ هذه مسؤولية شرعية على المؤلّف والمدرّس والناشر ، لأننا نسهم في نشر الضلال ، من خلال استشهادنا بالنصوص المنحرفة ، وهذا هو أكبر مسوؤٍ يدفعنا بأن لا نذكر النصوص المنحرفة في تاريخ الأدب.

نعم ، نشير إليها فقط ، نقول : ثمة ديوان لفلان والقارئ بمقدوره أن يقرأ هذا الديوان ، وقد يكون قرأه فعلاً ، نشير إلى أن هذا الديوان - مثلاً - بأجزائه الأربعة ، يمدح به الخلفاء العباسيين ، وهذا الديوان بجزيئه مليء بشعر الخمر والديوان الآخر بكل أجزائه مليء باللهو والجنس وما إلى ذلك. ونشير مجرد إشارة وهذا - كما قلت - هو المسوَّغ لعدم ذكر الأدب المنحرف ، حتّى لا يترك أثره على القارئ أو الطالب.

بالنسبة إلى التقسيم السياسي من المؤسف جداً ، أن هؤلاء النقاد أو هؤلاء الذين أثاروا غباراً حول الكتاب ، هم لا يزالون ضحية لتربيتهم السابقة ، أي إنهم تدرّبوا أو تعودوا على دراسة تاريخ الأدب ، وفق تقسيمه السياسي ونصوصه المنحرفة وتركت هذه الآثار انعكاساتها على أذهانهم بشكل لا شعوري ، لذلك تجدهم مقتنعين بأنّ الأدب ينبغي أن يقسّم تاريخياً ، بتقسيمه المعروف وأن يدرس أدبياً ، بأشكاله المعروفة كشعر الغزل وشعر النسيب والهجاء والمديح... إلخ. وهذا أكبر برهان على أنّ كتابة تاريخ الأدب هي كتابة مغلوطة في السابق ، بدليل أنّها تركت آثارها حتى على كتابنا الإسلاميين الذين نقدوا هذا الكتاب. وكما قلت : فإنّ نقدهم كان منصباً على هذين الجانبين ، وبخاصّة الجانب الأخير وهو التقسيم السياسي.

حتى أنّ بعضهم قال ما المانع أن تقسّم التاريخ وفق التقسيم المألوف ، ثمّ تنقد الأدب المنحرف ، وكان جوابي هو أنّ تقسيم الأدب إلى عصر ما يرتبط بالأيدلوجية التي ينطلق منها المؤلّف ، فالذين قسّموا التاريخ إلى هذه العصور ، ينطلقون من أيدلوجية خاصّة ، هي قناعتهم بمشروعية الخلفاء الأمويّين والعباسيّين ، إلّا أنّنا لا نعتز بمشروعية خلافتهم البتّة ، وإنّما نؤمن بأنّ المشروعية تتمثّل بالمعصومين عليهم السلام ، ولذلك فإنّ تقسيم الأدب وفق عصورهم ، يمثّل واقعاً مقتنعين به تماماً وليس يمثّل مجرد هوس أو رغبة غير مشروعة ، أو غير مستندة إلى واقع.

س : لكن يوجه إليكم أن الدارس أو القارئ لا بد له من الإلمام الكامل بالاتجاهات الأدبية ، وإن كانت منحرفة فكرياً ، ذلك ليكون في داخله رؤية شاملة عن الحياة الاجتماعية وقتئذٍ ، فلماذا تركتم هذا الجانب ؟!!

ج : قلت قبل لحظات أنني عندما كتبت تاريخ الأدب ، لم أتوقف لحظة عن تسجيل كل ما يتصل بهذا التاريخ ، فمثلاً : بالنسبة إلى الأدب الجاهلي ، فلقد ذكرت كل خصائص الأدب الجاهلي فكرياً وفنياً ، من الناحية الفنية ذكرت كل الأساليب أو القيم الجمالية التي انطلق منها الشعراء الجاهليون ، وفي هذا العدد لم يكن ثمة فارق بين ما أكتبه أنا وبين ما يكتبه الآخرون عن تاريخ الأدب ، ولكن فكرياً كنت فقط أنتخب النصوص الإيجابية أو المحايدة ، ومع ذلك أشير : أن الشاعر الجاهلي - فلان - كتب قصيدة هجاء ، كتب قصيدة مدح ، كتب قصيدة في وصف الخمر والجنس ... الخ .

وأبين أن هذا الشاعر كيف مارس الشعر من خلال مختلف اتجاهاته ، كل ما في الأمر الاستشهاد لا يتم إلا بنص إيجابي ، وهذا النص الإيجابي يكشف عن الأسلوب الجمالي لدى الشاعر من جانب ويكشف أيضاً عن اتجاهه الفكري من جانب آخر ، فكل ما في الأمر عندما يقرأ القارئ قصيدة - على سبيل المثال - تدعو إلى الصلح بدلاً من الحرب وتدعو إلى العفة بالنسبة إلى المرأة ، بدلاً من التبرج فهناك نصوص جاهلية مأثورة في هذا الصدد ، أنا استشهد بأمثلة هذه النصوص التي تدعو إلى العفة والتي تدعو إلى المودعة والمهادنة بدلاً عن التفاضل القبلي ؛ لذلك فإن القارئ عندما يقرأ هذا النص يفهم أن في الأدب الجاهلي أدباً سويّاً مضافاً إلى وجود أدب منحرف أيضاً ، فإذا القارئ يكون قد أخذ انطباعاً كاملاً عن هذا الشاعر أو عن الحياة الجاهلية ، كل ما في الأمر ، أن هذا الانطباع عزز مرة بنصوص حفظها ، ومرة لم يعزز بنصوص وإنما عرفها من خلال تعريفني أنا للعصر الجاهلي ، فإذا القارئ يكون قد ألمّ بالجانب الفكري والفني بهذا العصر وأضاف إلى ذلك معطى خاصاً هو : حفظ ما هو أدب سوي وإيجابي .

س : الملاحظ أنكم بنفس الوقت الذي انتقدتم به الشعر ومن خلال زوايا متعددة كـ (النفسية ، الشرعية وغيرها) حاولتم دراسة بعض أنماط الشعر ، عبر قيمه الجمالية والنفسية ، وهذا ما يدع المتابع لتتاجتكم في وضع شبه غامض حيال رؤيتكم للموقف الشعري ، فما هو تفسيركم لهذه الظاهرة؟

ج : أولاً: الأدب لا يختص بالشعر فقط ، فهناك النثر وعندما أرخت للأدب لم أؤرخ للشعر فحسب ، بل أرخت للنثر بمستوياته المتنوعة هذا من جانب ، ومن جانب آخر الإضافة التي أضفتها إلى تاريخ الأدب ، هو التنبّي لأدب المعصومين عليه السلام ومن قبل ذلك ، أدب القرآن الكريم ، فكتب تاريخ الأدب لا تشر إلى أدب القرآن ولا لأدب المعصومين إلا بشكل عام جداً ، بينما أنا وظّفت في كلّ فصل أن أكتب مفصلاً عن الأدب التشريعي قبل أن أتحدث عن الأدب العام ، ففي عصر النبي صلى الله عليه وآله تحدّثت عن كلّ من أدب القرآن والأدب النبوي ، فتحدّثت عن أدب القرآن وبيّنت كثيراً من خصائص النصّ القرآني بشكل لم يذكره المؤرّخون الآخرون ، وكذلك عندما تحدّثت عن الأدب النبوي وقسمته إلى سبعة أشكال من النصوص الفنيّة مثل الخطبة والخطبة والمقالة والحوار... الخ.

وهذا كله نثر ولا علاقة له بالشعر ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر أجد أن غالبية الجمهور يحبّ الشعر والأدب وهذا أمر لا مناص منه ، صحيح أنّ لي تحفظاً حيال الشعر وهو تحفظ مستقي من القرآن الكريم نفسه ، عندما نزه النبي صلى الله عليه وآله عنه ومستقي من الأحاديث التي نزهت أيضاً المعصومين ومن نفس شخوص المعصومين عليه السلام ، حيث لم يؤثر عنهم شعراً ، إلا الاستشهاد في نطاق محدّد وفي ضوء ذلك ، عندما وجدت أنّ الجمهور لا بدّ أن يقرأ . حينئذٍ وجدت أنّ وظيفتي تحملني على أن أكتب تاريخاً للأدب ما دام أمراً لا مناص منه . فبدلاً من أن تدرس الكتب المشحونة بالانحراف ، الأفضل - قطعاً - أن تدرس الكتب التي تشمل ما هو سوي من الأدب ، فإذا الذي حملني على أن أكتب عن الشعر هو وجود الجمهور المتطلّع إلى الشعر ، فإننا أمام أمرين ، أن نترك الجمهور يقرأ

أدباً منحرفاً وأما تُسلكه وهو يقرأ أدباً سويّاً ، ولا شك أن قراءة الأدب السوي هي الأفضل والترجيح هنا له وإلا لو خُلِّينا وذلك لما كتبت عن تاريخ الشعر ولا تحدثت عن خصائصه.

والمسألة لا تختص بالشعر فقط ، حتى بالنثر فهناك كتاب منحرفون ، أو بالأحرى أدباء منحرفون في العصور المنصرمة وفي العصر الحاضر أيضاً ، يؤرّخ لهم مؤرّخ الأدب ويستشهد بنصوصهم في تأييد أو تعزيز قاعدة بلاغية معيّنة ، إلا أنني لم أتوكأ على هؤلاء ، ووجدت أن الأفضل أن أتوكأ على نصوص القرآن الكريم وأدب أهل البيت عليهم السلام لأنها نصوص هادفة ومنطوية على أبعاد عبادية مهمة.

س : هناك كتاب قد صدر مؤخراً لكم يحمل عنوان : (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) وكما تعلمون أن البلاغة وقواعدها تعدّ من الموضوعات الموروثة ، فما الذي دفعكم لاختيار هذا الموضوع ؟

ج : هناك سببان رئيسيان لكتابة القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي :
السبب الأول : سبب فني ، والسبب الآخر سبب فكري.
أما السبب الفني :

أنّ البلاغة الموروثة - كما تعرفون - أُلِّفت قبل ألف عام بشكل يتناسب مع البيئة التي كانت تعيشها تلك القرون ، أما الآن فإنّ البلاغة تطوّرت تطوّراً ملحوظاً ، وظهرت نظريات بلاغية حديثة ، وحينئذٍ إذا كنّا نريد أن نتابع العصر ونكتب بلغته - كما ذكرت - حينئذٍ ينبغي أن نكتب بلاغة حديثة أيضاً ، تتناسب مع العصر واستطيع أن أشبّه البلاغة القديمة بالسلاح القديم كالسيف والرمح ، هذه الأسلحة في وقتها كانت نافعة جداً وضرورية أمّا في العصر الحديث ، عصر الطائرات والصواريخ وما إلى ذلك ، هل نستطيع أن نتكأ على سلاح السيف أو الرمح ونحوهما؟! كلا هذا من جانب ومن جانب آخر ، هناك قواعد بلاغية

مخطئة في الواقع ، وقد ذكرت ذلك في مقدّمة الكتاب ، منها أنّها بلاغة جزئية تتناول حدود الجملة فقط ، ومنها أنّ المعايير نفسها خاطئة ، وهذا كلّه أيضاً ، لا يتناسب مع هدف التأليف البلاغي في ذلك العصر ، فمثلاً : البلاغيون في ذلك العصر ، قالوا : إنّما ألفنا هذه الكتب ، لكي نتبين من خلالها إعجاز القرآن الكريم ، ولكننا إذا دققنا النظر في تلك البلاغة ، وجدنا أنّ قسمًا منها ينطلق من معايير إذا أردنا أن نطبّقها ، حينئذٍ سنخرج بنتيجة وهي : أنّ القرآن الكريم ليس بليغاً لأنّه لا يأتلف مع تلك القواعد التي صيغت ، وهذا هو كفر ببلاغة القرآن . لهذه الأسباب وجدت أنّ الحاجة تدعو بشكل ملحّ إلى أن نؤلف كتاباً بلاغياً جديداً ، تطرح فيه مفهومات البلاغة القديمة في قسم منها ، مضافاً إلى مفهومات البلاغة الحديثة ولهذا قسّمته إلى ثمانية أقسام وفرزت فيه كلّ قسم من الآخر وأسست فيه قواعد أخرى جديدة . والمهمّ هو وجود جانب ثالث بالنسبة إلى النصوص . البلاغة القديمة أيضاً وجدت أنها تستشهد بنصوص منحرفة في سبيل تعزيز أو الاستشهاد بقاعدة ما ، ورأيت أنّ هنا واجباً شرعياً عليّ ، هو أن لا أسمح للنصوص المنحرفة بأن تأخذ طريقها إلى ذهن القارئ ، فاستشهدت أو اكتفيت بأن استشهد فقط بنصوص القرآن الكريم وبأدب أهل البيت عليه السلام وهذا هو - في رأيي - أول عمل بلاغي يتوقّر على دراسة البلاغة الحديثة ، وفق نصوص يستشهد بها القرآن الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام .

س : ما دما في اطار موضوع البلاغة ، نتوخّى منكم توضيح مدى تناسب كتابكم

الجديد مع مناهج البلاغة التي تتعاطاها المؤسسة الحوزوية ؟

ج : الحوزة - بطبيعة الحال - ينحصر اهتمامها بالنصّ الفقهي والنصّ الفقهي قد يؤخذ من القرآن الكريم وقد يؤخذ من الحديث ولا أعتقد أنّ ثمة ضرورة قصوى تدفع الفقيه إلى الاستفادة البلاغية إلّا بشكل ثانوي ، ولا شك أنّ الذي يمتلك ثروة بلاغية جيّدة ، يستطيع أن يفهم النصوص ، بشكل أكثر عمقاً من الشخص

العادي ، وهذا ما وجدته منسحباً على بعض الفقهاء بالفعل ، حيث لاحظت أنهم يستفيدون من الآية الكريمة أو الحديث نمطاً من الاستخلاص يرتبط ولو بشكل غير مباشر بنفس الحكم الشرعي الذي يستنبطونه ، لذلك فإن الثروة البلاغية أو الحس البلاغي الموجود عند الفقيه - قطعاً - يساعده .

أقول : يساعده ولا أقول يتوقف عليه ، يساعده على فهم أفضل للنص - دون أي شك - مضافاً إلى ذلك أن الإعجاز في القرآن الكريم والكمال الأدبي في نصوص المعصومين عليهم السلام أيضاً من الأفضل لكل من يقف على هذه النصوص أو يتعامل معها من خلال الصلاة أو الدعاء أو المناجاة أو الذكر إلى آخره ، عندما يعرف مستوياتها البلاغية يكون - أيضاً - تجاوبه وتفاعله بشكل هو أفضل مما لو كان يجهله .

س : أنكم - كما هو معروف - شاعر ومجدد للشعر ، فما هي الدواعي التي جعلتكم تتخلّى عن الشعر وتّجه إلى مجال النقد الأدبي ؟

ج : انطلاقاً من المقولة الداهية إلى أن الإنسان ينبغي أن يمارس دوره العبادي في الحياة ، حينئذ فإن أي نشاط يقوم به يتعين عليه أن يكون هادفاً ، وعندما كتبت الشعر - مدة عشر سنين أو أكثر - توصلت إلى أن الشعر لا ينطوي على فائدة ضخمة بقدر ما تتحقّق فائدته بنطاق ضيق جدّاً ، لا يستطيع أن يحقّق الهدف الذي يسعى الإنسان عبادياً إليه ، مضافاً إلى ذلك فإن الشعر يعدّ تعبيراً عاطفياً عن الحقائق ، والإسلام - في الواقع - يطالبنا بأن نتعامل عقلياً مع الحقائق وليس عاطفياً . صحيح أن العاطفة ضرورة لا مناص منها ، إلا أنها ينبغي أن تستخدم في نطاق محدود بحيث لا تطفئ على العقل .

بهذه الأسباب وغيرها ، وجدت أن هناك نشاطاً آخر يمكن أن يوظفه الإنسان لتحقيق المهمة العبادية في الحياة ، ألا وهي عملية النقد ، فالنقد أو بالأحرى مطلق النشاط النقدي يستطيع أن يوصل الأفكار العبادية إلى الآخرين .

س : لكن بماذا نواجه الجمهور الكبير الذي يتفاعل مع الشعر ويتجاوب مع معطياته بدرجة لا يمكنه التخلّي عنه؟

ج : صحيح أنّ غالبية الناس تميل إلى الشعر، إلّا أنّ هذا الميل يظلّ - في الواقع - غير مرصود من الناحية العبادية؛ لأنّ الإنسان يمتلك ميولاً متنوّعة، وهذا لا يعني أننا ينبغي أن نملاً أو نشبع هذه الميول كيف ما اتّفق، بل علينا أن نحمل القارئ أو نوجّهه توجيهاً آخر.

فإذا كان القارئ يحيى حياة عاطفية حينئذٍ نستطيع بطريق آخر أن نملاً حياته العاطفية من خلال النثر الأدبي أيضاً، فالنثر الأدبي ينطوي على معطى عاطفي إلّا أنّه معطى نسبي من جانب ويستطيع أن يتجاوز النطاق العاطفي إلى النطاق العقلي من خلال أساليب معيّنة، بحيث يوصل من خلالها الأفكار التي يستهدفها.

من هناك اتّجهت إلى النقد الأدبي، وقلت : استثمر هذا الجانب لكي أوصل الأفكار إلى الآخرين وأساهم في إمكانية تعديل سلوك الآخرين من خلال نقد النصوص الأدبية.

على أيّة حال : اتّجهت إلى النقد الأدبي واستطعت بواسطته أن أحقّق الهدف الذي كنت أنشده، وفي الواقع عندما قرّرت أن أترك الشعر وجدت أنّ في النقد الأدبي نصوصاً متنوّعة : فهناك نصوص منحرفة وهناك نصوص سوية وهناك ما هو أهمّ من هذه النصوص : نصوص التشريع الإسلامي كالقرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام لذلك رأيت أنّ الأفضل هو أن أتوقّف على دراسة النصوص الشرعية ذات الطابع الفنّي، ومن خلال ذلك أستطيع أن أحقّق الهدف. لكن بما أنني كنت معروفاً شاعراً، حينئذٍ قرّرت أن ألّف كتاباً نقدياً محايداً ليس فيه توظيف إسلامي حتى اكتسب سمعة نقدية من خلال الجمهور وبعد أن اكتسب هذه السمعة أن أتوقّف على دراسة النصوص الشرعية واكتبها بالشكل الذي يتناسب مع مستوياتها.

من هنا بدأت وألفت كتاب (في النظرية النقدية) واستطعت من خلال هذا الكتاب أن أرصد الاتجاهات النقدية الأرضية جميعاً وأوضحها بشكل أو بآخر ، لكن دون أن أدلي بوجهة نظر فكرية ، بقدر ما كانت وجهة النظر تنصب على الدلالات الفنية فحسب.

وفي الواقع أنّ الكتاب يمثل نقداً نظرياً ، حيث رسمت خطوطاً للنقد النظري وكيفية تعامل الناقد مع النص من وجهة فنية خالصة.

المهم ، ألفت هذا الكتاب بهذه النية ، بمعنى أنّ الكتاب مقدّمة لنشاط إسلامي خالص ، وصادف أنّ ألفت الكتاب في شهر رمضان المبارك وكان يتألف من أربعة عشر فصلاً وكتبت كلّ فصل في ليلة واحدة تيمناً بأربعة عشر معصوماً عليه السلام وبالفعل استطعت أن أؤلف الكتاب خلال أربعة عشر يوماً فقط ، وصدر إلى الأسواق ونفدت نسخه خلال أيام قليلة ورافقه إعلام عجيب بدرجة أنّ الصحف والمجلات والإذاعة وكلّ وسائل الإعلام كانت تتحدّث عن هذا الكتاب ، وكما أتذكّر أنّ النقاد الذين تناولوا هذا الكتاب بالنقد اعتبروه أفضل كتاب يصدر في ذلك الفصل حتى أنّ نافداً معروفاً في العالم العربي كلّه أجريت معه مقابلة في إحدى المجلات وذكر هذا الكتاب وأوضح : « بأنّه أحد كتب أربعة صدرت في هذا العالم ليس في العالم العربي ، بل حتّى في اوربا ، يمتاز بالجدة في طرح الأفكار والتخطيط لنظرية في النقد الأدبي » ، والذي أعتقده أنّ سبب الاهتمام بهذا الكتاب وتوظيف الإعلام له هو النية التي كنت استهدفها فيه فالنية كانت خالصة...

المهم ، أنّ نجاح الكتاب - كما قلت - عائد إلى النية الخالصة لله سبحانه وتعالى ، وبالفعل عندما واصلت الكتابة النقدية استطعت أن أؤلف عدّة كتب في نطاق القرآن الكريم وفي أحاديث أهل البيت عليه السلام مثل : دراسات فنية في قصص القرآن الكريم ودراسات فنية في عمارة السورة القرآنية الكريمة وتاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ... الخ ، وحتّى في مجال البلاغة ألفت كتاباً

بعنوان (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) وهو في الواقع نقد نظري لأنَّ الفارق بين النقد والبلاغة : أنَّ البلاغة هي مجموعة قواعد نقدية تتناول النصَّ الأدبي ، فهي قواعد تنظيرية وعندما يطبَّقها الإنسان على نصَّ أدبي حينئذٍ يكون مارس عملاً نقدياً.

على أي حال : الشيء الذي أودَّ أن أركِّز عليه ، هو النيَّة الخالصة لله - سبحانه وتعالى - تجعل الإنسان أياً كان نشاطه موفِّقاً في ممارسة نشاطه هذا في النطاق الدنيوي وأمَّا في النطاق الأخروي فالمسألة لها حساب آخر دون أدنى شك.

س : من المعلوم أنَّكم تحملون شهادة في مضمار النقد الأدبي ، فيا حبذا لو كشفتم لنا سبب اختياركم لهذا الفرع من المعرفة دون غيرها؟

ج : الواقع أنَّ اختياري للنقد الأدبي - وقد درست في جامعة القاهرة - كان بسبب أنَّ النقد الأدبي هو من الفروع المعرفية الحديثة في ذلك الوقت والإنسان عندما يريد أن يوصل أفكاره إلى الآخرين عليه أن يتوسَّل بلغة وثقافة العصر ، فاخترت النقد الأدبي الحديث ومن جانب آخر تفتقر عملية النقد بضروب متنوِّعة من المعرفة الإنسانية كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة و... الخ.

س : هل كانت لديكم وجهة نظر حيال النقد القديم؟

ج : النقد الأدبي القديم - في الواقع - نقد جزئي وبسيط ، لا أعتقد أنَّه يتناسب مع ثقافة العصر ومتطلَّبات العصر وما إلى ذلك... بعكس النقد الأدبي الحديث الذي يتوكَّأ على ثقافة العصر بشكل ملحوظ لأنَّ النقد الأدبي الصحيح يتناول الجانب الفني من النص ، إلَّا أنَّ الاضائة الخارجية من النصَّ تصبح ضرورية ولا أعتقد أنَّ هناك ناقد ما يستطيع أن محَّص دراسته للنصَّ جمالياً فقط بقدر ما يضطرُّ - حتى ولو لم يشأ ذلك - إلى أن يطرح خلال نظراته النقدية وجهة نظره في الحياة والإنسان والمجتمع وما إلى ذلك.

س : كيف كانت معاشيتكم للأجواء المصرية أثناء تحضيركم لأطروحتكم ؟
 ج : الواقع أنني كنت كالآخرين عندما كنت في القاهرة لم تكن لي نيّة هادفة بقدر ما كنت أسعى كالآخرين للحصول على شهادة ليس أكثر وهذا النوع من الهدف لا أستسيغه الآن أبداً ، لذلك لو كنت الآن لا أحمل شهادة الدكتوراه من المستحيل أن أذهب إلى القاهرة وأسعى لنيل هذه الدرجة ، لأنّ هذه الدرجة اعتبرها شيئاً دنيوياً يتّصل بالجاه والسمعة وما إلى آخره... ، ولكن في حينه لم يكن لدي هذا الوعي الحالي ، لذلك عندما ذهبت إلى القاهرة ودرست النقد الأدبي وحصلت على شهادة الدكتوراه لم تكن لي نيّة هادفة بقدر ما حصلت هذه النيّة قبل اسبوع أو عشرة أيام قبل الحصول على شهادة الدكتوراه ، حيث أتذكّر أنني كنت ذات ليلة جالساً في الفندق ووجدت أنّ الأمور متشابكة جداً ، من حيث تهيوّ الوقت المناسب لمناقشة الدكتوراه والظفر بالشهادة فالمشرف والمناقش كلّ يتدّرع بوسيلة من الوسائل ، لكي يتخلّص من تحديد الوقت الذي أريده ، وهو وقت محدّد خلال العطلة الصيفيّة فوجدت أنّ التأخير سوف يتسبّب إلى تأجيل هذه الشهادة إلى السنة الثانية عندما واجهت هذه المتاعب - أيضاً - .
 عشت متاعب أخرى كنت أفكر من خلالها في مدينتي وفي وضعي العائلي الخاص حيث يوجد بعض المرضى وقد تركتهم على حالهم واتّجهت إلى مصر ، مضافاً إلى ذلك وجدت نفسي وأنا أحضّر الدكتوراه التي كان عنوانها (المناهج النقدية في نقد المعاصرين) وهذا يعني أنني كنت أبحث عن النقد الأدبي ومناهجه في العصر الحديث ليس على نطاق العالم العربي فحسب بل على نطاق العالم الغربي أيضاً ، فكنت منغمراً في دراسة نصوص تابعة لنقاد من انكلترا وأمريكا وألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي سابقاً... الخ ، في ذلك الوقت هجمت عليّ هذه الأفكار ووجدتني وأنا غارق في البحث عن شخصيات كلّها منحرفة وكافرة بتعبيرنا... فتسائلت مع نفسي ما هي الفائدة التي توخيتها من هذا البحث ؟ إذ قضيت عدّة سنوات وأنا أبحث عن نقاد غربيين وغيرهم في حين أنّ لي مهمّة

في الحياة... لماذا لم أختَر موضوعاً عن التشريع الإسلامي مثلاً؟ لماذا لم أختَر مادة تخدم الإسلام؟... الخ . في خضم هذه الصراعات الفكرية التي عشتها قرّرت أن أترك الدكتوراه وأرجع إلى بلدي وأتجه إلى العمل العبادي الذي ينفعني في الدنيا والآخرة ، ويتناسب مع طبيعة المهمة العبادية التي خلق الله الإنسان من أجلها ، وهذه الفكرة انبثقت في ذهني - رأساً - وعندها قرّرت - كما قلت - أن أترك هذه الشهادة وأن أرجع إلى العراق ، إلا أن مجموعة من الأصدقاء منعوني وقالوا : كيف ترجع ، بعد أن طويت أعواماً طويلة ، وقلت لهم : أن المسألة بهذا الشكل... إلا أنه في تلك اللحظة انبثقت في ذهني فكرة خاطفة هي : لماذا أعود وأنا صفر اليدين من هذه الشهادة وسوف تفسّر بتفسيرات كثيرة ، لا تتناسب وسمعة الإنسان إسلامياً ، لذلك كانت الفكرة المشار إليها تفرض عليّ بعد حصولي على الشهادة أن أوظّف كلّ نشاطي من أجل الله سبحانه وتعالى ، ولذلك نذرت - لله - وقلت إذا أزيلت هذه المصاعب خلال هذين اليومين أو الثلاثة ، حينئذٍ سوف أكرّس كلّ نشاطي من أجل خدمة الإسلام - فعلاً - ما أن قرّرت هذا الجانب ، حتى وجدت في اليوم الثالث أن الأمور حلّت مباشرة وبعد ثلاث أيام ناقشت الرسالة وحصلت على الشهادة بدرجة الشرف الأولى ورجعت إلى العراق ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أكتب : النقد الأدبي وسائر ألوان النشاط الفكري من خلال وجهة النظر الإسلامية وهذا ما وفّقت إليه ، والله الحمد.

س : الملاحظ أن بعد عودتكم من مصر واشتغالكم في عالم النقد الأدبي - تدريساً وبحثاً - أنكم بدأتُم منحىً موازياً للجانب النقدي إلا وهو المجال الفقهي حيث صدر - في ذلك الوقت - كتاب لإحدى الشخصيات الكبيرة عند الطائفة الشيعية - وكنتم قد أشرفتم على تحقيق ذلك الكتاب والتعليق عليه ، وقد تضمّن الكتاب نفسه مقدّمة هي أشبه ما تكون بدراسة نقدية - فقهية - صغيرة ، فما هي الدواعي التي أدّت بكم إلى الدخول في هذا المجال؟

ج : الواقع ، أنّ الفقه - أيضاً - له سبب دفعني إليه . أتذكر عندما كنت في القاهرة - في نفس الأيام التي تحدّث لكم عنها - أتذكر أنّ الأستاذ المشرف سألني عن مسألة فقهية ، لكنني لم أستطع أن أجيبه عليها ، وحينئذٍ شعرت بخجل شديد وقلت في نفسي : أنني أعرف - الآن - النظريات الغربية في مجال النقد الأدبي ولكنني لا أعرف شيئاً عن أحكام الشريعة ، أليس هذا عيباً كبيراً ، لذلك في غمرة تلك الملابس قلت - من جملة ما قرّرت في ذلك الوقت - : أنني سأنفقهُ أيضاً حتى تكون الكتابات التي أكتبها مرتكزة إلى أساس سليم من الناحية الشرعية ، وبالفعل عندما رجعت ، وجدت نفسي راغباً كلّ الرغبة في أن أتفقهُ ، وبالفعل بدأت أتفقهُ وكنت أصرف أحياناً في اليوم تقريباً ثمانية عشر ساعة بدراسة الفقه وأصوله وما يتعلّق به وكذلك بدأت أقرأ واسأل واتّصل بالفقهاء ، لأنني وجدت أنني لو انخرطت بالسلك الحوزوي بالشكل التدريجي لاستغرق ذلك سنبناً طويلة ، لذلك قرّرت أن أقرأ بنفسني هذه الكتب المعروفة بالحوزة وأن أسأل فيها المختصين عن كلّ نقطة غامضة واستطعت - والله الحمد - خلال سنة أن أتوفّر على دراسة هذه النصوص وأن أكتب دورة فقهية كاملة لي بشكل خاص كتبتها واحتفظت بها واستغرقت سنة وأربعة أشهر .

س : ما هو نتاجكم على الصعيد الفقهي ؟

ج : قلت : إنّ السبب في التوجّه إلى الفقه ، ليس هو ممارسة النشاط الفقهي ، بل هو أن أتفقهُ فحسب حتى استطيع أن أكتب المسائل اليومية التي يعيشها مجتمعنا ، فالإنسان إذا لم يمتلك أرضية فقهية لا يستطيع أن يطرح وجهة نظره الإسلامية من خلال المادّة التي يدرسها ، وأنا - كما تعلمون - لم أتوقّف في نشاطاتي على مجال النقد الأدبي فقط ، بل تجاوزته إلى نشاطات أخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع ... الخ .

والمهم أنّ النظرات التي كنت أطرحها إذا لم تكن مستندة إلى تكيّف فقهي لها

حينئذٍ فإنَّ من الصعب أن يستطيع الإنسان أن يخطِّطَ لنظرية معيَّنة تتناسب مع طبيعة التشريع الإسلامي ، لذلك لم أتوقَّر على الكتابة الفقهية لكثرة الفقهاء ولعدم الحاجة إلى ذلك واكتفيت بكتابة المقدمات لكتب مهمَّة للشَّهيد الأوَّل والعلامة الحلِّي وسلَّار وغيرهم ولكن كانت هذه المقدمات ذات طابع نقدي بطبيعة الحال.

س : الملاحظ أنَّ أسلوبكم في الكتابة قد مرَّ بمرحلتين ، المرحلة الأولى كان ذات طابع ضبابيٍّ غامض ، وأمَّا في المرحلة الثانية أصبح أكثر إضاءة ووضوحاً فما هي وجهة نظركم حول هذه النقطة بالذات؟ وما هي رؤيتكم حول كَيْفِيَّة الأسلوب الكتابي بالنسبة إلى الكتاب الإسلاميَّين؟

ج : في الواقع عندما بدأت أكتب ، كنت متأثراً بالتيارات الحديثة في الكتابة والتيارات الحديثة ملفعة بالغموض والضبابية - كما تعرف - إلا أنني عندما وظَّفت الكتابة إسلامياً ، وجدت أنَّ الغموض لا يأتلف البتَّة مع هدف الكاتب الإسلامي ، فالمفروض أن نوصل مبادئ الإسلام إلى الآخرين وإيصال هذه المبادئ إذا لم يكن بنحو مستيسر فحينئذٍ لا فائدة من ذلك ، من هنا فكرت في أن أكتب بوضوح ، بخاصَّة أنَّ أكثر القراء كانوا يشكون من الغموض الذي يلفُّ الكتابة. والواقع ، أنَّ البحث عن الأسلوب الغامض أو الأسلوب الواضح يظلُّ موضع نقاش في الأوساط الثقافية وبعض الكتاب يصرُّ على أن يكتب بأسلوب غامض انطلاقاً من مقولة تذهب : إلى أنَّ القارئ ينبغي أن يرتفع إلى مستوى المؤلِّف بيد أنَّ هذا الكلام لا ينبغي أن نفتن به إسلامياً لأنَّ المفروض هو إيصال المبادئ - كما قلت - والقارئ الخاص من الممكن أن يفهم اللغة الغامضة إلا أننا نخاطب القارئ المتوسط .

طبيعياً القارئ العادي لا نعنى به لأنَّ العناية به تتطلب التدنِّي إلى أسلوب مبتذل وهذا لا يتَّسق مع مهمة الكاتب الإسلامي ، لذلك فإنَّ القارئ المتوسط هو

الذي ينبغي أن نأخذه بنظر الاعتبار والقارئ المتوسط يحتاج إلى لغة مفهومة ليست بالشكل المبتذل ولكن بالشكل الرصين والمتّسم بالوضوح ، وفي الواقع : عانيت صعوبة كبيرة في بداية الأمر عندما تحوّلت من الغموض إلى الوضوح إلّا أنّني بعد محاولات قليلة استطعت أن أبذل لغتي وأن أكتب بالشكل الواضح والكتب الأخيرة كلّها مكتوبة بهذه اللغة الواضحة وصادف أنّ سألت الكثيرين ممّن قرأ هذه الكتب فأجابوني بأنّهم استطاعوا أن يفهموها بشكل واضح وهذه هي المهمة التي وفّقت إليها والله الحمد.

س : إذن كيف تفسّر بعض الكتابات التي يصدرها الإسلاميون المعاصرون وهي مغفّقة بالطابع نفسه من الغموض والتعقير و... الخ ، أو بالأحرى كيف تنصحون هذه الشريحة من الكتاب ؟

ج : قلت - قبل قليل - أنّ الأسلوب الغامض لا يأتلف مع الاتجاه الإسلامي الهادف أبداً . أنّ الغربيّين أو الأرضيّين بشكل عام ، من الممكن أن ينطلقوا من وجهات نظر خاصّة لأنّهم منعزلون تماماً عن مبادئ السماء ، لذلك فإنّهم لا يفكّرون بالوظيفة التي خلقوا من أجلها وإنّما ينطلقون من حياة مليئة بالترف ، ومن هنا نجدهم يتحدّقون في صياغة المبادئ والنظريات في الكتابة وغيرها ، نظراً لعدم تحسّسهم بالمسؤولية التي نتحسّسها نحن كإسلاميّين ومن المؤسف جدّاً أنّ كثيراً من كتابنا الإسلاميين وأخصّ الشعراء منهم والقصصيّين هؤلاء - من المؤسف - أنّهم تأثروا بالأسلوب الغربي أو تأثروا باللغة الحديثة في الشعر وهي لغة ملي بالضبابية والغموض بدرجة أنّ الناقد المتخصّص أيضاً ، قد يعاني صعوبة في فهم المادة المطروحة.

والواقع أنّ هذه المقولة الذاهبة إلى أنّ الشعر الجديد والقصة الجديدة هي لغة مضبّبة بشكل عام... هذه المقولة - كما ذكرت - ينبغي أن لا يؤمن بها الإسلاميون أبداً. فالإسلاميون ماداموا يستهدفون توصيل مبادئ الله - سبحانه وتعالى - إلى

الآخرين فعلیهم أن يتخذوا أسلوباً خاصاً بهم ، طبعياً هذا لا يعني بأن يبقوا مقلّدين أو تقليديّين للسلف حيث يمتاز النصّ السلفي أو الكتابة القديمة بالوضوح أو ما يمكن أن نسمّيه بالأسلوب الكلاسيكي أو التقليدي. هذا أيضاً لا يناسب الكتابة الحديثة ولا الشعر الحديث ولا كذلك القصّة... المفروض بالكتاب الإسلامي والشاعر الإسلامي والقاصّ الإسلامي أن يستقلّ بأسلوب خاصّ له ، فلا يعتمد على الأسلوب البالي الذي لا يتناسب مع العصر وفي الآن نفسه أن لا يتأثر بالموضات الأوربيّة ، عليه أن يتخذ لنفسه أسلوباً خاصاً يستقلّ به كاستقلال هوّيته الإسلامية ومن جانب آخر ينبغي أن يكون هذا الأسلوب متّسماً بالوضوح ، لذلك فإنّ المسألة ليست سهلة وصادف أن طُرحت في إحدى الندوات مسألة تتصل بهذا الجانب وسُئلت وكانت مجموعة من الشعراء حاضرة في تلك الندوة وكلّهم ينتسب إلى الجيل الحديث جدّاً وصارحتهم بأنّ أساليبكم هذه - في الواقع - لا تأتلف مع تصوّر الإسلامي للكتابة والشعر والقصّة ، لذلك ينبغي على الشاعر إذا أراد أن يكون شاعراً حقّاً ، أن يتعب نفسه ويجهدا في سبيل أن يؤسّس لنفسه أسلوباً خاصاً يجمع بين الوضوح من جانب وبين الحداثة من جانب آخر وبين الاستقلالية للشخصية الإسلامية من جانب ثالث وهذا الأمر يتطلّب جهداً كبيراً بمعنى أنّ الشاعر أو القاصّ أو الكاتب وبخاصة الشاعر والقاصّ - بطبيعة الحال - سيعانون أزمة شديدة في هذا الجانب إلّا أنّهم يستطيعون أن يجتازوها بسلام إذا أُتيح لهم أن يتعبوا أنفسهم في نحت وصياغة جديدة تتسمّ بالسّمات الثلاث المشار إليها ، وإلّا فالأفضل لهم أن يتركوا كتابة الشعر أو القصّة لأنّه لا سبيل إلى كتابة غامضة مضيّبة لا تستطيع أن توصل أفكارها إلى الآخرين. من هنا ، أكرّر بأنّ الشعراء أو القصصيّين أو المسرحيّين الإسلاميين أمّا أن يستقلّوا بأسلوبهم وأمّا أن يتركوا ذلك ، فهذا أجدي للإسلام من أن يواجه أدباء سائرين في ركاب الغرب أو أدباء متخلّفين وحينئذٍ فهذا لا يتناسب مع سمعة الإسلام.

س : لكن تبقى أشكالية التأثير بالطرف الآخر ضرورة لا مناص منها؟

ج : قلت - قبل قليل - أننا في الواقع نتأثر في التيار الاوربي ، فالتيار الاوربي يند قبل عشر سنوات - على سبيل المثال - ثم يترجم إلى اللغة العربية ويتأثر العرب بهذا التيار، ثم يأتي الإسلاميون بعد ذلك - مع الأسف - فيتأثروا أيضاً بهذا التيار ، وهذا التأثير ينبغي أن نميز فيه بين نمطين : نمط نستفيد فيه بشكل عام من الأسلوب أو من اللغة الحديثة ، ومن طرف آخر - كما قلت - ينبغي أن نتعب أنفسنا لكي نصوغ لغة خاصة بنا وهذا أمر صعب دون أدنى شك ولكن لا مناص منه ، أمّا أن نكتب بأسلوب ببغائي كما يكتب الأرضيون فهذا لا يتناسب مع سمعة الإسلام أبداً.

س : الحداثة أو التجديد موضوعة كثرت حولها الجدليات والكتابات.. فما هي كلمة الفصل عندكم؟

ج : سأحدّث عن هذا الجانب من زاوية التصوّر الإسلامي وليس التصوّر العلماني له ، الحداثة مرّة تكون في المادة ومرّة تكون في اللغة ومرّة تكون في المنهج ، المنهج لا مانع منه ، وأمّا المادة فهي نمطان : كمادة علم النفس وعلم الاجتماع و... الخ ، فنحن كإسلاميين ينبغي أن نستفيد من أي تراث كان ومن أي ثقافة كانت نأخذ منها الإيجابيات ونترك سلبياتها ، فلو لم نتأثر بالتيارات الحديثة حينئذٍ لانستطيع أن نوصل أفكارنا الإسلامية إلى الآخرين على سبيل المثال : عندما أتناول نصّاً قرآنياً أو حديثاً لأحد المعصومين عليه السلام عند ذلك عندما أتوسّل بالمعرفة الحديثة كعلم النفس والاجتماع والتربية وأستفيد من هذه النظريات المطروحة هناك واستخدمها كإضاءة لتوضيح الآية القرآنية أو النصّ الوارد عن المعصومين عليهم السلام في هذا الإطار ينبغي أن نفيد من التيارات الحديثة ، وهو ما أسمّيه بالعلوم المحايّدة ولكنّ هناك علوم منحرفة ، فنفس هذه النظريات في النفس والاجتماع والتربية تنطوي على نظرات وآراء منحرفة - دون أدنى شك -

لذلك ينبغي على الكاتب الإسلامي أن يكون حذراً في هذا الجانب فيتخذ من الآراء والنظريات ما لا يصطدم مع وجهة النظر الإسلامية ويترك ما يصطدم معها وهذا يحتاج - في الواقع - أن يكون للكاتب أو الشاعر أو القاص أرضية فقهية أو ثقافية إسلامية بشكل عام ، حيث يستطيع أن يميز المنحرف من السوي من الأفكار.

هذا ما يتصل بالجانب المعرفي من التيار الحديث ، أما ما يتصل باللغة والمنهج ، بالنسبة إلى المنهج فلا مانع أبداً من أن نتأثر بالمناهج الحديثة ونطبّقها في ممارساتنا الثقافية ولكن مع ذلك هناك بعض المناهج التي لا تأتلف مع تصوّرنا الإسلامي أيضاً ، ينبغي على الكاتب أن يكون حذراً في هذا الجانب وأن يكون على إحاطة تامة بالتصوّر الإسلامي للظواهر حتى يستطيع أن يتخذ من المناهج ما يتناسب مع التصوّر المذكور وأما اللغة وهي أهم شيء الآن عندنا وهي كذلك ذات جانبين : جانب إيجابي ، وجانب سلبي.

الجانب الايجابي : هو أن نكتب وفقاً للمفردات والعبارات والتراكيب التي نستخدم حديثاً ولكن ينبغي أن نكون على حذر من أن نستخدم الأساليب المغرقة في الترف أو المغرقة في الضبابية والغموض ، فعلينا أن نأخذ ما هو مشرق من العبارة وما هو محكم من التركيب وأن ندع ما هو ملتوٍ وما هو معقّد وما هو غامض ثم إذا استطعنا من خلال التدريب على الكتابة انتخاب هذه الأساليب حينئذٍ يمكن للكاتب الإسلامي أن يستقلّ بأسلوب خاص له في ضوء ما تتوفّر لديه من درجة وتجربة في الكتابة.

س : مسألة أسلمة العلوم مشروع كبير تناولتم فيه عدّة ضروب من المعرفة الإنسانية كيف بدأت هذه الفكرة ، ومتى مارستم العمل بها؟

ج : عندما اتّجهت إلى الكتابة الإسلامية وجدت أنّ الزمن الذي نعيش فيه يتطلب أن نواكبه من جانب وأن نحقق فيه هويّتنا الإسلامية من جانب آخر. وتجيئ العلوم

الإنسانية في مقدّمة ضروب المعرفة التي يحتاج إليها الإسلام لتوصيل مبادئه إلى الآخرين ، ومن هذه العلوم علم النفس والتربية والاجتماع.

طبيعياً ، ثمة تساؤل يُثار: أنّ الإسلام لم يقدّم نظرية علمية لأحد ضروب المعرفة ، فكيف ينتخب عنوان علمي لهذه المعارف؟

وجواباً على هذا السؤال أقول: الواقع أنّ الإسلام هو مجموعة توصيات متناثرة ، تُقال في سياق خاصّ ، فالقرآن الكريم - على سبيل المثال - يطرح مئات الظواهر إلا أنّ كلّ ظاهرة أو أكثر يطرحها في سياق خاصّ قد يتطلّبها الظرف الذي أُلقي فيه الوحي وقد يتطلّبها وضع الإسلام بشكل عام وكذلك أحاديث المعصومين (عليه السلام) فثمة مناسبة تستدعي الإمام (عليه السلام) أن يلقي كلمة أو حديثاً... ووظيفتنا نحن الإسلاميين أن نلتقط هذه الأحاديث وأن نبرمجها ونصنّفها ونبوّها على نحو ما نجده في الفقه مثلاً. فهذه الأبواب التي نجدها كالطهارة والصلاة والصوم والخمس والحج... الخ ، لم تطرح إسلامياً بهذه الصياغة بل طرحت بشكل أحاديث متناثرة ، فجاء الفقهاء فبرمجوها وبوّوها ومنهجوها بالشكل الذي نراه الآن ، وهكذا بالنسبة إلى العلوم الإنسانية ، فالإسلام لم يقدّم نظرية خاصّة في علم الاجتماع أو في التربية ، وإنّما هي مجموعة أحاديث ولذلك فإنّ وظيفتنا نحن الإسلاميين أن نلتقط هذه الأحاديث ونحلّلها ونفسرها ونضع لها برنامجاً خاصّاً ثمّ نبرمجها على ما نجده في العلوم الحديثة التي تخضع لمنهج خاصّ ولتبويب خاصّ ولحقول خاصّة وهكذا... من هنا وجدت أنّ الحاجة ملحة لهذا النوع من المعرفة لأنّ الفقه وأصوله وما يتّصل بالدروس الحوزوية - والله الحمد - قد توفّر عليها الآلاف من فقهاءنا ، إلّا أنّ البحث النفسي والاجتماعي... الخ ، لم يتح لكتّابنا الإسلاميين أن يتوفروا عليه إلّا في السنوات الأخيرة ، ووجدت أنّ الحاجة لعلم النفس خاصّة وعلم الاجتماع ملحة لأسلمتها ، لأنّ المادة النفسية هي أساس السلوك البشري على شتى مستوياته ، وكذلك علم الاجتماع هو أساس السلوك الاجتماعي للبشر ، وهذان النمطان من المعرفة

يتخللان عصب الحياة جميعاً ، لذلك فإنَّ التأكيد عليها يظلُّ من أهمِّ العلوم الإنسانية التي ينبغي أن تؤسِّم ، وهذا ما دفعني إلى أن أكتب عن هذين العلمين بالشكل الذي رأيتموه.

س : قبل أن ندخل معكم في حوار حول نمط منهجيتكم في هذين العلمين ، نوِّد معرفة مدى درجة اعتمادكم على تجارب الآخرين من الإسلاميين في هذين الحقلين ؟

ج : قلت : إنَّ الكتابَ الإسلاميَّ لم يتوقَّفوا على هذين الجانبين إلَّا في السنوات المتأخِّرة. بيِّد أنَّ الذي لاحظته هو أنَّ غالبية الكتاب الإسلاميين - وقد بدأوا منذ الخمسينيات من هذا القرن يكتبون في هذا المجال - وجدتهم يغيبون عن تراث ضخم لأهل البيت عليه السلام فهذا النمط من الكتاب نظراً لعدم وقوفه على تراث أهل البيت عليه السلام نجده يقدِّم بحثاً شاحباً في هذين الجانبين ؛ لأنَّ الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله أو الآيات القرآنية الكريمة آيات محدودة في الواقع ، وكذلك الأحاديث محدودة إلَّا أنَّ أهل البيت عليه السلام لديهم تراث ضخم في هذا المجال حيث ألَّفوا الأضواء على مئات المسائل النفسية والاجتماعية لذلك فإنَّ الكاتب الإسلامي إذا لم يتح له أن يقف على تراث أهل البيت لا يستطيع أن يقدِّم نظرية متكاملة في علم النفس أو الاجتماع من زاوية تصوُّر الإسلامي لأنَّ الأحاديث والآيات محدودة لديه فكيف يستطيع أن يخطِّط لنظرية كاملة أو حتى شبه كاملة.

من هنا يجيئ البحث الاجتماعي أو النفسي متكلِّفاً بحيث يحمِّل الآية أو الحديث أكثر من واقعه فيضطرُّ من هنا وهناك أن يتشبَّث بوجهات نظر أخرى وقد يستطرد في بحثه بحيث يبتعد عن الخطَّ الإسلامي فيطرح وجهات نظر أرضية ثمَّ يعود ثانية ليربطها بشكل أو بآخر بالخطَّ الإسلامي ، فيجيئ البحث في نهاية المطاف شاحباً لا يُسمن ولا يغني ، لذلك عندما كتبت عن البحث النفسي والاجتماعي وجدت أنَّ هناك المئات - ولم أقل العشرات - من النصوص التي تستطيع أن تؤلِّف منهجاً أو نظرية شاملة في هذا الميدان وهذا ما توقَّرت عليه

- كما قلت - بحيث لاقي الكتابين وبخاصة علم النفس صدى واسعاً في مختلف الأوساط ودُرِّس في أكثر من جامعة واستفيد منه في أكثر من مؤسسة وطُبِّقت تعاليمه - أيضاً - في بعض المؤسسات؛ إذ أنه ينطوي على دقائق وتفصيلات - هي في الواقع - صدى لكثير من المشكلات التي يعانونها علماء النفس والتي طرحوها وتفاوتوا في وجهات النظر حيالها حيث جاء الإسلام وطرح تصوُّراً خاصاً بها وحسم كل هذه المشكلات، لذلك عندما يجيئ النص الإسلامي ويحسم المشكلة الاجتماعية أو النفسية، حينئذٍ فإنَّ الإفادة من هذا الجانب ستكون كبيرة دون أدنى شك.

س: نستشف من كلامكم بأنكم لم تستفيدوا من الكتاب الإسلاميين في هذين الحقلين؟
ج: ذكرت أنَّ الكتاب الإسلاميين الذين كتبوا في هذا المضمار كانت كتاباتهم جزئية وغير شاملة لذلك لم أستطع أن أستفيد منها شيئاً إلا الوقوف عليها، أمَّا الإفادة منها مادياً أو منهجياً أو لغة... الخ أستطيع أن أقول: إنني لم أستفد منها إلا بقدر ضئيل جداً، وكل ما لدينا - والله الحمد - هو من عطاء أهل البيت عليهم السلام لأنَّ أحاديثهم بها الكفاية ويستطيع الإنسان يتوكأ عليها ويخطِّط لنظرية في هذه المعرفة أو تلك.

س: هناك مؤتمر عُقد في مصر وكانت تدور محاوره حول قضايا علم النفس الإسلامي وقد نشرت بعض تلك الدراسات المقدمة في المؤتمر أو الندوة في إحدى المجلات الإسلامية وكان من بينها بحث لأحد الباحثين وقد وجَّه لكم به نقداً، حيث اعتبركم تحاولون أن تؤسِّسوا علم نفس إسلامي على أساس شيعي - كما يزعم - فما هو جوابكم على ذلك؟

ج: الملاحظ أنَّ الباحث المذكور أخذ على هذا الاتجاه - أي الاتجاه الشيعي - أنه يعتمد فقط على المصادر الشيعية وقد قرأت ما كتبه في تلك المجلة وكان

ملخصها أنني أعتمد على أقوال الإماميين علي بن أبي طالب عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام وهذا ما لفت نظره ، حيث طالب بأن أتجاوز هذا الجانب وأنقل عن جميع قادة التشريع الإسلامي وهذا السؤال - في الواقع - يرتبط بالإجابة السابقة التي قدّمتها قبل قليل ، وقلت فيها : أنّ المصادر التي يطالب بها هذا الباحث لا تنطوي على أية مادة نستفيد منها في هذا الجانب بينما وجدت تراث أهل البيت عليهم السلام مليئاً بمئات الأحاديث التي أستطعت من خلالها ، وكما قال الباحث نفسه : أنّ النظريات التي قدّمتها في علم النفس تعتمد فقط على هذا الجانب والسبب يعود إلى شحّة المصادر الأخرى ، فليس ثمة مصادر استطيع أن أفيد منها ، مثلاً : تحدّثت عن مراحل الطفولة الأولى والثانية وتحدّثت عن مراحل المراهقة وفي كلّ مرحلة هناك منحنيات من النمو في السنة الثالثة من العمر فالرابعة فالخامسة فالسادسة وهكذا في الثامنة والعاشر... الخ.

هذه التفصيلات فيما يتّصل بمنحنيات النمو عند الطفل في مرحلته الأولى أو الثانية لا أثر لها في غير مصادرنا نحن الشيعة.

لذلك لا يمكنني أن اعتمد إلا على هذه المصادر ، فالذنب ليس ذنب الكاتب بقدر ما هو ذنب شحّة المصادر الموجودة لدى غير الطائفة الشيعية.

وأما أسباب ذلك الهجوم أو النقد فأمر لا أستطيع أن أتحدّث عنه لأنني أجهل أسباب ذلك الهجوم ، قد تكون ناتجة عن التعصّب أو لعدم اطلاعه على تلك المصادر... المهم أنّنا عندما طرحنا وجهة النظر الإسلامية طرحناه بشكل إسلامي والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام هم باعتراف الجميع قادة التشريع الإسلامي ولا حرج في ذلك أبداً.

س : الملاحظ أنّ ثمة علاقة وثيقة كانت تربطكم - خلال مسيرتكم الحياتية - بجملة من الرجال المصلحة والمعروفة بضخامة وعيها العبادي وكان تأثير تلك العلائق واضحاً على مجمل نشاطاتكم حيث انعكس التأثير المذكور عليكم سلوكياً وكتابياً.

فالمطلوب هو توضيح طبيعة تلك العلاقة وكيفية نشوؤها وامتداداتها؟

ج : منذ الطفولة كان يتردد على والدي جملة من الأشخاص ، وكنت أتحمس أن لهؤلاء الأشخاص ميزة خاصة تختلف عن غيرهم ، حتى أنني أتذكر - وأنا ابن الخامسة أو السادسة من العمر - أن أحد الأشخاص - وهو يرتدي الكوفية والعقال - كان يتحدث عن الله سبحانه وتعالى وعن المحبة والعلاقة بالله تعالى وكان له أثر خاص وأنا طفل أتحمس نمطاً خاصاً من العلاقة بين الله تعالى والإنسان بشكل مؤثر وجذاب لا أستطيع لحد الآن أن أفسر سببه بقدر ما أستطيع أن أقول : إن أسلوب الشخص وهو رجل عرفاني معروف وصدقه في التعامل مع الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل كلامه يؤثر في النفس حتى بالنسبة للأطفال الذين لم يبلغوا السادسة من العمر ، منذ ذلك الحين كنت ألتقي هؤلاء الأشخاص وفي بداية شبابي وقفت والله الحمد على التعرف على أكثر من شخص من هذا القبيل وكان يترددون على محلنا - بيع العطور - عن طريق والدي إلا أنني كنت أيضاً استفيد منهم وبدأوا يترددون عليّ ، بعضهم يتردد كل يوم ، وبعضهم بين مدة وأخرى ، ومن خلال هذا التردد اكتسبت مجموعة من الأشخاص المعروفين في هذا الجانب.

واستفدت منهم - في الواقع - كثيراً من خلال القنوات الخاصة التي كانوا يتعاملون معها. هذه القنوات هي - في الواقع - ليست بالأمر الهين الذي يمكن أن يقتنع به كل شخص إلا إذا مارس عدة تجارب أو بالأحرى عندما يشاهد تجارب من حصيلة هؤلاء الأشخاص حينئذ يستطيع أن يوقر له فناعة بمثل هذا السلوك.

س : ينسب إلى تلك الشخصيات أمور من قبيل الكشف ومعرفة السرائر وهذه قضايا قد

لا يقرها العقل ، فما هو تفسيركم العلمي لتلك القضايا؟

ج : الواقع أن في النصوص الشرعية مؤشرات إلى هذا النمط ولا شك أن القوانين الطبيعية هي التي تأخذ مسارها في السلوك... سلوك الناس أو في تعاملهم مع

الظواهر إلا أنّ هناك حالات استثنائية وفي هذه الحالات الاستثنائية يمكن أن يتجاوز ما هو مألوف إلى ما هو غير مألوف وكما قلت أنّ في النصوص مؤشرات إلى ذلك ، فالقرآن الكريم نفسه وهو يحدثنا عن القوانين الطبيعية يؤشّر بشكل أو بآخر إلى حدوث أمثلة يتجاوز بها قانون الطبيعة مثلاً - بالنسبة إلى أهل الكهف : جرى لهم وضع خاص خارج قانون الطبيعة مع أنّهم ليسوا أنبياء حتى يقال : إنّ الإعجاز أو خرق قوانين الطبيعة لا يتم إلا للنبيّ لكي يثبت بذلك رسالته ، كذلك هناك اشارات قرائنيّة تدلّ على خرق قوانين الطبيعة ، مثل إماتة أحد الأشخاص وإحيائه بعد مائة سنة وغير ذلك... أمّا بالنسبة للأحاديث فهناك عشرات الأحاديث التي تقول ما مؤداه : أنّ للمؤمن أربعة أعين ، اثنان ينظر بها أمور دنياه واثنان ينظر بها أمور غيبه... وأتذكّر من الأحاديث أنّ جماعة قالوا للنبيّ ﷺ بما مؤداه أنّنا عندما نجلس عندك ننسى الأهل والأولاد والدنيا كلّها ولكنّا عندما نغادرك تعود لنا الحياة كما هي ، فأجابهم النبيّ ﷺ بما معناه لو بقيتكم على تلك الحالة لمشيتم على الماء. ونستخلص من تلك الحادثة أنّ الإنسان إذا تعامل مع الله سبحانه وتعالى تعاملًا خاصًا ونفض يده من أوساخ الدنيا حينئذٍ فإنّ الله سوف يفتح له مجالات للنظر من خلال قنوات الغيب كذلك نقرأ في بعض الأدعية ومنها المناجات الشعبانية ونحن الآن في شهر شعبان.

لو قرأنا هذه المناجات الشعبانية لوجدنا إشارة إلى ذلك على سبيل المثال - يقول النصّ - (وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك... » أمثلة هذه النصوص تؤشّر بدورها أيضاً إلى أنّ الإنسان إذا نفّض عنه غبار الحياة الدنيا حينئذٍ تفتح له قنوات غيبية خاصّة في إطار معيّن يستطيع أن يفصل بها أمور تخفى على الآخرين وهذا الجانب - في الواقع - مدعم بتجرب عشرات الأشخاص الذين التقيناهم ورأينا منهم هذه المكاشفات والتي تدلّ على تزكية النفس وتجليّتها وتصفيّتها من التعامل مع ما هو مادي صرف.

على أية حال : أنَّ المسألة إذا كانت من الجانب العلمي ، فإنَّ النصوص الشرعية هي السند في ذلك ، وقد أشرت إلى بعضها. وإذا كانت من الجانب العقلي ، فالعقل لا يستبعد ذلك ، ما دمنا نرى ليس في نطاق الشخصيات الإسلامية ، بل أننا قرأنا عشرات المقالات والكتب التي جرت حتى بالنسبة إلى الأشخاص غير الإسلاميين ، ممَّن تميَّزوا بروح خاصَّة وبمزاج خاصَّ خال من الأدران ، فهناك كثير من الأشخاص يتَّسمون بسلامة النفس وبساطتها على الرغم من أنَّهم ليسوا إسلاميين حتَّى في هذا الإطار نقرأ في الكتب الغربية تجارب حدثت لعشرات الأشخاص من هذا القبيل ، والذي أودَّ أن أركِّز عليه أنَّ أمثلة هذه القضايا ليست ضرورية للإنسان أن يؤمن بها أو لا يؤمن بها فهي ليست وظيفة شرعية لكي يقتنع بها أحد الأشخاص ، كلُّ ما في الأمر أنَّها تمثِّل حجة على الآخرين فكما أنَّ الإنسان في زمن المعصومين عليهم السلام يستطيع أن يستفيد منهم تجارب كثيرة ، حينئذٍ فإنَّ هؤلاء الأشخاص في زمن الغيبة يمكن أن يكون حجة على الشخص بالنسبة إلى تعامله مع الله سبحانه وتعالى ، فالمهمُّ أن نتعامل بإخلاص مع الله سبحانه وتعالى وليس المهمُّ أن نترقَّب على أنماط هذا التعامل كرامات أو مكاشفات أو ما شابه ذلك... فالكرامة أو المكاشفة - هي في الواقع - أثر من آثار تصفية النفس ليست إلّا... فلذلك إذا كان هدف الإنسان هو مجرد الوصول إلى هذه المرحلة فهذا ممَّا يتناقض مع روح الكرامة أو المكاشفة لأنَّ المكاشفة لا تتمُّ إلّا من خلال التعامل المخلص الذي يثد الذات والأشخاص الذين رأيتهم والتقيتهم كانوا لا يرون لذاتهم أي وجود أنَّهم مندكَّون بهذا الوجود بشكل لا يرون لهم أي قيمة بالقياس لعظمة الكون أنَّهم يرون أنفسهم ذرَّة سابحة ولذلك فإنَّ التطلُّع إلى مرحلة معيَّنة هو تأكيد على الذات وليس محوًّا للذات.

من هنا فإنَّ الشخصية الإسلامية ينبغي أن لا تطمع للوصول إلى هذه الدرجة إلّا إذا وئدت ذاتها وأخفت كرامتها ومكاشفتها أمام الآخرين وإلّا إذا كان الهدف الوصول إلى هذه المرحلة وعرض العضلات حيالها حينئذٍ فإنَّ المسألة تظلُّ

متناقضة تماماً مع هذا الاتجاه العرفاني.

س : الملاحظ أنَّ هناك مسارين للعرفان ، مسار يعتمد على الرياضة الدينية السوية والمسار الآخر تمتزج فيه القنوات الرحمانية والغير رحمانية ممَّا يفرز نتائج خطيرة؟ كيف تتمكّن من معرفة المسارين وما هي رؤية الإسلام حيالها؟

ج : بالنسبة للعرفان هو كما قلت : ثمة خط واضح يتمثّل في أنَّ يسلك الإنسان مع الله سبحانه وتعالى سلوكاً خالصاً ويتعامل مع الله تعالى بشكل لا يغفل عن إدراك وظيفته العبادية في الحياة فعندما يعيش الإنسان كلّ لحظاته مع الله سبحانه وتعالى حينئذٍ تتكشف له تنابها معيّنة يستفيد منها ويفيد الآخرين بها أيضاً هذا هو الخطّ المعروف ، يبقى أنَّ هناك خطوطاً انحرافية وخطوطاً مرضية فمن الممكن لمن أُصيب بخلل في جهازه العقلي أو جهازه النفسي قد تظهر له هلوسات خاصّة يخيل إليه أنّها واقع بينما هي مجرد أوهام تفرضها طبيعة الخلل الموجود في جهازه النفسي أو العقلي وعلماء النفس يطرحون أمثلة كثيرة لهذا النمط لذلك فإنّ التميّز بين ما هو سوي وما هو عصابي أو ذهاني إذا صحّ التعبير... التميّز يعود إلى ملاحظة نمط السلوك الذي يخطّه الشخص فإذا كان الشخص يتمتّع بجهاز عقلي سوي وذو تعامل واضح مخلص مع الله سبحانه وتعالى حينئذٍ فإنّ ما يترأى له من قنوات غيبية حينئذٍ ستكون صحيّة دون أدنى شك ، أمّا من يستطيع أن يلحظ في سلوكه خلل أو في نمط عبادته خلل... فهناك نمط من النّسّاك يطعمهم الجهل دون أدنى شكّ ولا يدركون الطريقة الصائبة التي ينبغي أن تسلك للتعامل مع الله سبحانه وتعالى ، أمثلة هؤلاء أيضاً من الممكن أن يميّزهم الإنسان ومن ثمة فإنّ تمييز ما هو صائب ممّا هو خطأ يعود إلى ذكاء الشخص الذي يتعامل مع هؤلاء الأشخاص ولذلك يمكن التمييز بسهولة بين أشخاص مؤمنين حقّاً وأشخاص جهلة وأشخاص أيضاً غير أسوياء يعانون من خلل في جهازهم العقلي والنفسي لذلك ينبغي أن لا تخلط بين هذه المستويات والمسألة

تحتاج إلى تمييز ليس إلا فإذا قلنا إنَّ الهدف من السلوك العرفاني هو أنَّ الإنسان يستطيع أن يستفيد من تجارب الآخرين حينئذٍ فإنَّ هؤلاء يشكِّلون حجةً مثلاً: بالنسبة للنصوص الشرعية طالما تشير إلى أنَّ من عمل فلان عمل أنَّ الله سبحانه وتعالى سوف يبشِّره بمقام خاصَّ كأن يرى مكانه في الجنة... أو إذا أراد الله بعبده خيراً أراه في منامه رؤياً تدلُّه على هذا الفعل أو ذاك... الآية القرآنية الكريمة تشير إلى البشارة بالنسبة إلى المؤمن... أمثلة هؤلاء الأشخاص في الواقع يستطيعون أن يدفعوا إلى الإنسان إلى ملاحظة سلوكه فإذا رأوا من خلال مكاشفاتهم سلوكاً سلبياً لديه ينبَّهوه إلى أن يسلك هذا السلوك أو ذاك فالهدف إذاً من أمثلة هذا السلوك هو الاستفادة منها لتعديل سلوك الإنسان ليس إلا خارجاً عن هذا يظلُّ البحث عن هذه المسألة مجرد إحساس بالحاجة إلى إشباع نزعة الاستطلاع ونزعة الاستطلاع إسلامياً لا قيمة لها بل تعدَّ عملاً عابثاً كما هو واضح ، فالمهم ليس أن يكون للإنسان فضول لمعرفة هذا الشيء أو ذاك المفروض أن يعدل نفسه وأن يستفيد من أمثلة هذه القنوات التي تكشف له جانباً من عيوبه أو تخطُّط له جانباً ممَّا ينبغي أن يمارسه من سلوك هذا هو الهدف الأوحد لمثل هذه المسألة وما عداه كما قلت يضلُّ أمراً لا قيمة له.

س : من الغريب أن نجد ثمة صورة ترسم في ذهنيَّة شريحة واسعة من المثقِّفين عن الشخصية العرفانية حيث يعتقد هؤلاء المثقِّفون بأنَّ العرفاني يؤثر العزلة والانكفاء على النفس ولا يسمح لنفسه بأن يحتكَّ بالمجتمع خشية أن يتأخَّر في سيره وسلوكه نحو الله... ١٩

ج : طبعي ثمة تفاوت في سلوك الناس ، فالشخصية المنعزلة أو الشخصية المتكيِّفة اجتماعياً لا تنحصر في هذه الأنماط ، بل كلُّ الشرائح الاجتماعية نجد فيهم من يميل إلى العزلة ومن يميل إلى الألفة الاجتماعية ، وهذه المسألة تتصل من جانب بطبيعة تركيبة الشخصية وسلامتها من الأمراض النفسية أو وقوعها في هذه

الأمراض ، من جانب آخر فإنّ المسألة نسبية فترى شخصاً ينعزل اجتماعياً لظروف خاصّة تفرضها عليه ، وهناك من ينعزل لسبب مَرَضِيّ ، فينبغي أن نميّز بين هذين النمطين ، من ينعزل لأنّ الظروف تدفعه إلى ذلك ، ومن ينعزل لأنّ واقعه النفسي المريض يدفعه إلى ذلك ، وهؤلاء العرفانيّون - في الواقع - نظراً لتعاملهم مع الله سبحانه وتعالى وأنسهم به حينئذٍ لا يجدون الحاجة ملحة بأن يتعاملوا مع الناس في سلوكهم الذي لا صلة له بالله فهم مقيّدون بأن لا يحضروا مجلساً إلّا به ذكر الله سبحانه وتعالى وهم مقيّدون بأن لا يطرحوا حديثاً إلّا به فائدة ، حينئذٍ لا يجدون ثمة ضرورة بل يجدون حرجاً في ذلك إذا أرادوا أن يتكيّفوا اجتماعياً مع كلّ الطبقات لأنّ في ذلك ضياعاً للوقت. ولكن في الوقت نفسه - من خلال تجربتي مع هؤلاء - وجدت أنّ كثيراً منهم يتكبّف اجتماعياً بشكل غريب ويخفي نفسه بشكل غريب أيضاً بحيث لا يعرفه إلّا أفراد قلائل فهو يتعامل مع الناس إلّا أنّ ذهنه مشغول بالله سبحانه وتعالى وهو يتحدث إليهم إلّا أنّه بشكل أو بآخر يحملهم على أن يدخلوا أحاديث ذات فائدة فهو يتعامل اجتماعياً كالآخرين إلّا أنّه في الحين ذاته لا يعزل نفسه عن الله سبحانه وتعالى وهناك من لا يجد الظروف تسمح له بذلك فيضطرب بأن يعتزل اجتماعياً. إذن ليس هؤلاء جميعاً على خطّ واحد ، بل كما قلت بعضهم يتكفّف اجتماعياً وبعضهم يعتزل اجتماعياً وبعضهم بين بين ، كلّ واحد منهم يعرف وظيفته فهناك من الأشخاص ما يحقّق نفعاً اجتماعياً حينما يتّصل بالآخرين وهناك من يجد أنّ النفع يفرض عليه أن ينعزل ، إذن المسألة نسبية وليس هناك خطّ معيّن ثابت يحدّد بأن هؤلاء تميّزوا بسمة انعزالية أو سمة مشابهة لها.

س : هناك من الشخصيات المنتسبة إلى العرفان تجعل من الناس ينفرون منها بسبب طريقة تعاملهم المتّسمة بالخشونة وعدم التسامح... إلى درجة تجد جملة من الناس يخلعون على هؤلاء الأشخاص سمات من قبيل العقدة والتكبّر... الخ؟

ج : قلت : إنَّ الشخص ينبغي أن يميّز بين عدّة أنماط فهناك شخص هو بالفعل معقّد إلاّ أنّ تعقيده ليس ناتجاً عن انخراطه في هذا الخطّ وإنّما بناءً على نمط تركيبته التربوية ونمط آخر يتسم بالجهل أي أنّه لا يعرف كيف يسلك مع الآخرين السلوك الصائب فالذنب ليس ذنب الخط نفسه ، بل ذنب الشخص الذي يتعامل مع هذا الخط ، فالشخص إذا لم يكن ملماً بمبادئ التشريع الإسلامي وجوهر هذا التشريع حينئذٍ قد يخطأ في سلوكه كما وجدنا - فعلاً - أشخاصاً يتسمون باصفرار الوجه وبالعزلة والعقدة... الخ وهؤلاء دون أدنى شكّ جهلة لأنّ الواعي عبادياً يستحيل أن يسلك مثل هذا السلوك.

أنا أعرف أشخاصاً كانت الابتسامة لا تفارق شفاههم البتّة هؤلاء منذ أن يستيقظون صباحاً وحتى الليل لا يشغلون بغير ذكر الله ولكنهم في الوقت نفسه تحسّهم معك أين ما ذهب أتهم في السوق والشارع والمسجد والاجتماعات يتعامل معك أحدهم بهذا الأسلوب : هُشّ ، بشّ ، ضاحك ، خلوق ، لين الجانب ، تتمثّل فيه كلّ الأخلاق الحسنة هذا هو النمط الذي يتناسب مع الخط المذكور أمّا النمط الآخر الذي أشرت إليه فهو - في الواقع - أمّا أن ينسب إلى النمط الجاهل أو النمط الغير مكتمل أي النمط الذي تسيطر عليه تركيبته النفسية أكثر ما تسيطر عليه تركيبته الأخلاقية أو العبادية أو العرفانية ولذلك فإنّ التمييز بين هؤلاء ينبغي أن يتمّ ليس على حساب شجب هذا الخط بل من خلال الذهاب إلى القول : بأنّ نمط الواعي وحجمه ومقداره هو الذي سيحدّد هذه الشخصية العرفانية أو تلك والمسألة لا تتصل بالشخصية العرفانية فقط بل بمطلق الشخصية العرفانية فالإسلاميون أنفسهم - بعيداً عن هذا الخط - نجد من يتسم بأخلاق حسنة ومن يتسم بأخلاق سيئة ومن هو بين بين فالمسألة تتصل بمقدار الوعي العبادي الذي يمتلكه الشخص فبقدر ما يتضخّم وعيه نجد سلوكه يتصاعد إلى ذروة الأخلاق الحسنة لأنّ الشخصية الإسلامية والنبيّ ﷺ... نموذجاً لنا وصفه القرآن الكريم بحسن الخلق.

س : هناك جمع من أصحاب الفكر والمعرفة يرغب في توظيف اختصاصه إسلامياً ولكن لا يعرف كيفية انجاز ذلك؟ فكيف توجهون مثل هذه الطاقات؟

ج : طبعي ثمة معارف متنوعة ، فبعض العلوم تتسم بالحياد مثل العلوم البحتة والعلوم الطبيعية ، بيد أن كل شخص ينبغي أن يوظف ما هو محايد للإسلام وإلا فإذا افترضنا أن أحد الكتاب سوف يتناول موضوعاً يتعلق بالطبيعة ، قد يصف لك هذه الطبيعة من خلال خاطرة فنية وقد يحللها علمياً ولكن فائدة هذا التحليل العلمي من جانب أو فائدة تلك الخطرات الفنية من جانب آخر ما هي؟ وكيف توظف إسلامياً ، المفروض يمثل هذه الحالة : أن الباحث الذي يتحدث عن القوانين العلمية للطبيعة حينئذٍ يستطيع أن يستثمر هذا الجانب ، ويربط بينها وبين إبداعه سبحانه وتعالى للطبيعة وتسخيرها للإنسان وبهذا يكون قد وظف عمله العلمي من أجل الله ، وهكذا عندما يصف الطبيعة من خلال خاطرة فنية على سبيل المثال : حينئذٍ فإن مجرد الوصف لا يحقق هدفاً ذا بال ولكنه يستطيع أن يربط أيضاً بين الطبيعة وبين إبداعها من خلال الله سبحانه وتعالى وبذلك يكون قد استثمر هذا الجانب ووظفه من أجل الله تعالى .

المهم أن كل نقطة يجب أن يوظفها الإنسان ويربطها بالله سبحانه وتعالى لحقيقة واضحة معروفة وهي : كل شيء ما خلا الله باطل ، وكل شيء هو بفاعلية من الله سبحانه وتعالى ، الإنسان ، الطبيعة ، مطلق المخلوقات الأخرى ما هي إلا فيض من الله سبحانه وتعالى ، فلو سحب الله لحظة رعايته للكون لتهدم دون أدنى شك ، فلذلك فإن النظر للكون بكل ما يدب فيه من خلال الله سبحانه وتعالى وربطه بإبداعه حينئذٍ يكون مثل هذا العمل عملاً واقعياً من جانب وعبادياً من جانب آخر...

س : الملاحظ عليكم أنكم غالباً تهملون الإشارة إلى ذكر المصادر التي تنقلون عنها بعض النظريات أو وجهات النظر!!

ج : يستخدم المصدر على عدة مستويات ، مرة يستخدم المصدر كبحث أكاديمي موثق وهذا ما يتوفر في الجامعات كتحضير رسائل الماجستير والدكتوراه أو حتى في مطلق النشاط العلمي الذي يتطلب توثيقاً للفكرة المطروحة هناك ، فعليه ينبغي أن نميز بين نمط البحث المطروح الملاحظ أن المنهج الأكاديمي أصبح منهاجاً جافاً لدرجة أن الباحث يتكلف كثيراً في الرجوع إلى المصدر حتى لو لم تكن الحاجة داعية إلى ذلك وهذا ما نلاحظه في عشرات البحوث المطروحة ، وحتى أنا شخصياً أتذكر منها إلا أنني انسياقاً مع التقليد العلمي الأجوف وهو أن أذكر المصادر كنت أتكلف ذكر المصادر التي لا ضرورة لها أبداً وبالفعل كانت هذه البادرة تقابل بالاستحسان من قبل الهيئات العلمية في حيث أنني كنت أضحك في أعماقي من هذا الزيف العلمي ، هناك - على سبيل المثال - عندما أنقل نصاً شعرياً حينئذ اضطرّ لذكر المصدر أو حينما أريد أن أذكر نصاً إسلامياً حينئذ من الأفضل أن أشير للمصدر ولكن هناك أبحاثاً عامة تنطوي معطياتها على دلالات الأحاديث المعروفة عند الجميع حينها فما هي الضرورة إلى ذكر المصدر؟

على سبيل المثال : لو أردت أن أتحدث عن فضيلة الصبر ألا يكفي أن أشير إلى أن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأحاديث المعصومين عليهم السلام كلها تؤكد على أن الصبر فضيلة.. الخ حينئذ لا أحتاج إلى ذكر الآيات واحدة واحدة.. السورة الفلانية... الآية رقم كذا.. المصدر الفلاني للأحاديث.. هذا كله لا ضرورة له أبداً لأنني أتحدث عن مفهوم الصبر بشكل عام وعن مرتكزات موجودة في أذهان المتلقين جميعاً وهكذا عندما استعرض النظريات على سبيل المثال : وأنا أكتب عن نظريات علم النفس والموقف الإسلامي منها حينما أذكر : نظرات رواد معروفين ، وأفكارهم مطروحة ومعروفة لدى الملايين هنا لا أجد حاجة إلى أن أذكر المصدر الذي يوجد فيه رأي المفكر الفلاني أو رأي المفكر الآخر لأن هؤلاء المفكرين معروفين في وجهات نظرهم يعرفها القارئ تماماً ، حينئذ استشهادي في الكتاب ونوع طبعته وصفحته

ورقمه... الخ أعدّه عملاً عابثاً لا فائدة فيه أبداً أو لا ضرورة له على الأقلّ. فلذلك أنّ استخدامي للمصدر أو عدم استخدامي يعود إلى نمط البحث المطروح فبعض الأبحاث يتطلب ذكر المصدر، مثلاً: عندما كتبت تاريخ الأدب العربي شحنته بمئات المصادر لأنّه مشحون بمئات النصوص المأثورة عن المعصوم عليه السلام في هذا الجانب أو ذاك وحينئذ يكون المصدر ضرورياً لأنّ القارئ سوف يعود إلى هذه المصادر ويفهم ما تنطوي عليها من أحداث ذات معطى فنيّ تتوفّر فيه الخاصية الفنيّة وما إلى ذلك... أمّا عندما اتحدّث عن جانب آخر بالنحو الذي أشرت إليه سابقاً حينئذ لا أجد ضرورة لذكر المصادر. إذن ذكر المصادر وعدمها يخضع للسياق الذي يتطلب حيناً ذكره وحيناً لا يتطلب ذلك، وليس لشيء آخر أبداً، والعملية سهلة جداً لا تكلف الإنسان شيئاً سوى أن يعود إلى رقم الصفحة وطبعة الكتاب وهذا قد يستطيع أن يتوفّر عليه تلميذ في السنة العاشرة من العمر ولا يحتاج إلى موهبة علمية أو تتبّع... الخ.

س: المتنبّع في سيرتكم الحياتية، يلاحظ بأنكم قد قضيتم شطراً كبيراً من الحياة في حانوتكم المعروف في مدينة النجف الأشرف، فما هي ذكرياتكم عن ذلك الحانوت؟

ج: الواقع أنّ هذا المحل محل مبارك، نظراً لنطوائه على عدّة فوائد فالكسب أساساً هو عمل فيه ثواب وأحاديث أهل البيت عليه السلام كلّها تنصّ على أن يأكل الإنسان من كدّ يده ومجرّد أن يحترف هذه المهنة أو تلك فهو عمل ثواب يكتسب من خلاله العيش الذي طالبنا الله سبحانه وتعالى توفيره، النقطة الثانية الذي استفدت منها هي: الإخلاص في المعاملة فالملاحظ أنّ كثيراً من الكسبة والتجارة وغيرهم من خلال حرصهم على المادة يمارسون الكسب بشكل غير مشروع حرصاً على توفير المادة، ولذلك نجد أنّ النصوص الإسلامية طالما تطالب المتبحّر أن يتفقه أولاً حتى لا يرتطم بما هو محرّم نظراً لما ينطوي عليه العمل التجاري من مسائل

يستغلها الإنسان في صالحه المادي وكان والدي رحمه الله... معروفاً بتدينه وإخلاصه في العمل بحيث كان محلناً على صغره ناجحاً في هذا المجال للسمعة الطيبة التي اكتسبها والدي من خلال بيعه العطور وقد تعلمت -بطبيعة الحال - منذ طفولتي منه الإخلاص في العمل والإجمال في الطلب أيضاً. طبيعياً في البداية لم أكن واعياً إلى هذا الجانب فربما كنت أتأخر إلى وقت من الليل طمعاً بالحصول على مشتري جديد وأحياناً كنت أبكر في الذهاب إلى السوق للسبب نفسه إلا أنني بعد أن قرأت الأحاديث التي تحمل على الداخلين إلى السوق في أوله والخارجين في آخره حينئذٍ استفدت من هذه التوصيات بأن العملية ينبغي بأن لا تقترن بالحرص على المادة بل بالإجمال في الطلب وأن الله هو الرازق... وأيضاً مما استفدت منه بالنسبة إلى مسألة الصلاة كنّا في المواسم المزدحمة قد نتأخر أيضاً عندما يحين وقت صلاة الظهر أو المغرب فكنا مشغولين بالمشتريين إلا أنني بعد أن وعيت أنّ المسألة تتصل بالله سبحانه وتعالى وليس بذكاء الإنسان أو نشاطه حينئذٍ كنّا نترك العمل وقت الصلاة مهما كان الزحام وبالفعل كنّا نجد أن الطلب على الشراء يزداد بل نجد أن كثيراً من الأفراد ينتظروننا لحين عودتنا من الصلاة لهذا الغرض وهذا كله يؤكد ما تقوله النصوص الشرعية : أنّ الإنسان عندما يتجه إلى الله سبحانه وتعالى حينئذٍ فإنّ الرزق هو على الله وليس على ذكائه أو نشاطه... الخ ومن المسائل التي استفدتها هي كثرة الآتين والمتعاملين فالمحلّ كان - في الواقع - محطاً لكافة الشخصيات من الشخصيات الغنية إلى الشخصيات الفقيرة ومن الشخصيات التي تحتلّ موقعاً اجتماعياً إلى الشخصيات التي لا موقع اجتماعي لها أيضاً من حيث الاتجاهات والمذاهب والمستويات كنّا نواجه أشكالا من البشر وهذه كلّها تفيد إثراء تجاربنا في الحياة والاستخلاص لعضات كثيرة من خلال هذا الحشد الاجتماعي الذي نواجهه يومياً. والأهم من ذلك كله : أنّ الذي وجدته هو أنّ العمل إذا كان من كسب اليد ومقروناً بالإخلاص من جانب ومقروناً بالتوكّل على الله من جانب آخر فإنّ هذا لا يحتجز الإنسان من

أن يمارس سائر أعماله الأخرى فمثلاً: كنت أنفقه وأنا جالس في المحلّ وأقرأ أو أتلو ما أجده متوقفاً من الأدعية والأذكار والأوراد.. الخ في المحلّ نفسه وأؤلف وأكتب في المحلّ نفسه ولذلك لم يكن العمل حاجزاً عن ممارسة سائر الأدوار الثقافية التي كنت معنياً بها منذ الطفولة فالجمع بين الكسب من جانب وبين التفقه بالدين من جانب ثاني وبين التوقّف على الكتابة من جانب ثالث كلّ هذه لم تكن حاجزاً عن تحقيق هذه المستويات من الممارسة العلمية وهذا - في الواقع - ما كنت أجده منعكساً على كثير من الأفراد الذين كانوا يمتنعون عن ممارسة العمل الحرّ بحجة أنّ العمل الثقافي يمنعهم من ذلك وأنّ الذي اكتسبته من خلال التجربة أنّ العكس هو الصحيح تماماً. فالإنسان يستطيع أن يوفق بين كسب يده وبين عمله الثقافي بدلاً من أن يتجّه إلى منعطفات أخرى قد تكون بها شبهة وقد يفتقر بها إلى النية العبادية الخالصة بخاصة إذا اقترن العمل العبادي بالحصول على المادة فكثير من الأفراد نجدهم ينخرط في هذه المؤسسة أو تلك ليس من أجل أن يكتب من أجل الله سبحانه وتعالى بل لأنّ الوضع المعيشي يتطلب ذلك إذا كان الإنسان مستغنياً عن هذا الجانب من خلال عمل يده حينئذٍ فإنّ العمل الثقافي الذي يتوقّف عليه سيكون مقروناً بمروضة الله سبحانه وتعالى.

س : المعروف أنكم كنتم تذهبون صباحاً إلى الكلية من أجل التدريس وبعدها تكملون عملكم في المحلّ نفسه فكيف كنتم تواجهون بعض الانتقادات التي يفرضها العرف الاجتماعي.. بالنسبة إلى دكتور في الكلية لا يتحرّك من بيع العطور في السوق؟!

ج : في الواقع عندما كنت أذهب إلى المحلّ كنت أذهب بنية هي مساعدة الوالد ، وهذا عمل يترتب عليه الثواب لأنّ الوالد رجل كبير السن ومتعبّد وحينئذٍ عندما أكون قد ساعدته في المحلّ أكون قد مارست عملاً مرضياً إن شاء الله ، أمّا بالنسبة للنظرة الاجتماعية الواقع أنّ نفس المحلّ هو محلّ بيع العطور وبيع العطور شيء

فيه من الأناقة والذوق و... الخ فنفس ممارسة هذه المهنة هي لا غبار عليها اجتماعياً كل ما في الأمر أن كثيراً من الأشخاص وهو ينقصه الوعي العبادي ويبحث عن السمعة والجاه وما إلى ذلك قد لا يرتضي ذلك. وبالفعل أتذكر بعض الطلاب كانوا يستنكفون من ذلك فكان أولياء الطلاب يطالبونني بأن أنصح أبناءهم في أن يساعدوهم في أعمالهم التجارية وهم طلاب فكانوا يطالبونني بأن أوضح لهم بأنني أنا أستاذهم لا أستنكف من مساعدة الوالد في عملي التجاري فكيف هم طلاب ويستنكفون من مساعدة آبائهم في أعمالهم.. هذه النظرة في الواقع هي من مخلفات الوضع الاجتماعي الذي يعني بالزخرف والسمعة الزائفة وما إلى ذلك... أما الشخص الذي ينطلق من تصوّر عبادي للمسائل حينئذ لا يقيم وزناً لهذه المسائل ومن ثمّة تصبح المسألة طبيعية جداً، أتذكر أن أحد المحاضرين الذي كان يأتي من مكان بعيد ليحاضر في نفس الكلية زارني في المحلّ ووجه لي هذا السؤال: ما هو إحساسك وأنت تجلس على منصّة التدريس ثمّ تجيئ إلى هذا الحانوت الصغير تباع به العطور؟

طبيعياً، كنت أفهم الدوافع التي تدفع هذا الأستاذ الجامعي المعروف ولا أذكر اسمه لإثارة مثل هذا السؤال، لأنه يستنكف مائة بالمائة بأن يقوم في مثل هذا العمل وربما خيّل إليه أن يريد أن يخجلني بذلك. ولكنني أجبتّه بإجابة هي لا فرق أبداً بين أن أحاضر هناك وأن أجلس هنا العملية واحدة لأنها ممارسة عبادية في الحالتين، هنا أساعد الوالد وهناك أوجه الطلاب ولا تعارض بين المسألتين.

س: سألت أكثر من شخص - كان قد تتلمذ على أيديكم في الكلية - عن طريق تدريسكم وكلّ أجاب بأن أسلوبكم في التدريس كان يختلف عن كافّة الأساتذة حيث يتمثّل أسلوبكم بكلمات محدودة لا تتجاوز بعض الدقائق في المحاضرة الواحدة فما هي الدواعي التي جعلتكم تتخذون هذا المنهج؟

ج : عندما عيّنت في السنوات الأولى كنت أمارس التدريس بالشكل الاعتيادي وهو إلقاء محاضرة باللغة العربية الفصحى ولكن النتيجة التي انتهت إليها هي أنني وجدت أنّ المحاضرة تدخل من الأذن اليمنى وتخرج من اليسرى بدون أي فائدة مترتبة على أمثلة هذه المحاضرة لذلك وجدت أنّ الفائدة العلمية أو العبادية منتفية في مثل هذا الأسلوب من هنا اتخذت أسلوباً آخر وهو أسلوب السؤال والجواب وهو كنت أطلب الطلاب بأن يقرأوا المادة سلفاً ثمّ أوجه إليهم أسئلة ومن خلال هذه الأسئلة التي قد تكون مصيبة وبعضها مخطئة فكنت اعتمد على طالب بإثارة سؤال معيّن وإذا أخفق بالإجابة أكلف طالباً آخر وهكذا أدع الطلاب جميعاً متهيئين لأن يجيبوا على هذه الأسئلة وفي نهاية المطاف أتدخل فأكمل النقص الموجود في الأسئلة وفي هذا الأسلوب كان الطلاب جميعاً يستفيدون من المادة وأنا شخصياً أحسّ بأنني استطعت في إدخالها إلى أذهانهم. طبعياً، الشكلايون بشكل عام قد لا تعجبهم مثل هذه الأساليب وسمعت من بعضهم يتهمونني بالكسل ولا مزاج لي بالتدريس وكذا وكذا.. وكلّها تُهم تستثير السخرية دون أدنى شكّ. والمهم ، هو ملاحظة هذه النقطة علماء النفس والتربية عندما وضعوا أساليب في التدريس إنّما وصفوا هذه الأساليب لمصلحة الطلاب ولمصلحة توصيل المادة إلى الأذهان لذلك أنّ الجمود على طريقة معينة بشكل آلي وميكانيكي يكشف عن عطل الذهن الموجود لدى الأستاذ والطالب أيضاً المفروض أنّ نوصل المادة إلى ذهن الطلاب وحينئذ أي أسلوب نتبع في هذا المجال فهو الأفضل دون أدنى شكّ بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ هدفنا من التدريس ليس اىصال المادة العلمية منعزلة عن المعنى العبادي لها فعندما كنّا ندرّس مادة النقد الأدبي أو البلاغة أو أية مادة أخرى حينئذ كنّا - في الواقع - نوظّفها إسلامياً وننتخب نقاطاً معينة في هذا الجانب لإدخالها في أذهان الطلاب. من هنا كنت أطرح مسائل معينة وأشير سلفاً إلى أنّ الأسئلة ستركّز على هذا الجانب وهدفني من ذلك أن يتّجه الطالب إلى هذه المادة دون غيرها لأنّها تنطوي

على هدف عبادي خاص قد لا يعيه الطالب أبداً إلا أنني أسلك سلوكاً خاصاً أحمله على أن يتجه إلى هذه المادة المعينة دون غيرها وأوفر له وقتاً دون أدنى شك إلا أن الهدف من ذلك هو عندما يركّز على المادة الفلانية فحينئذٍ بشكل لا واع ستختمر هذه الفكرة في ذهنه وستنعكس على سلوكه لاحقاً دون أن أشعر الطالب بذلك. وبالفعل فإن كثيراً من الطلاب وهم يسخرون من هذا الأسلوب الذي كنت أتبعه إلا أنهم عندما كانوا يتخرجون حينئذٍ بدأ الكثير منهم يستوعب المغزى الذي كنت استهدفه في حينه وكثير منهم صرّح لي بأنه الآن بدأ يفهم أهمية الأسلوب المشار إليه والذي كان يقترن في وقته بعدم قناعة الطلاب وحتى الأساتذة.

الفصل السابع

البستاني

في دائرة الضوء

الشيخ محمّد مهدي الآصفي

«... فقد عرفت هذا العبد الصالح منذ أربعين سنة، وكانت بداية تعارفنا في الأوساط الفكرية والثقافية للنجف الأشرف، وكان حفظه الله يومئذ شاباً طموحاً متطلّعا نشطاً في هذه الأوساط.

وقد تحوّل ذلك الطموح خلال أربعين سنة من عمره المبارك إلى أعمال فكرية وثقافية إسلامية وقرآنية قيّمة وجليلة في أسلمة المعرفة الإنسانية في حقول النفس والاجتماع والفنّ...

وقد وفقه الله تعالى خلال هذه الفترة من عمره المبارك لخدمات علمية جليلة في حقول عديدة من المعرفة الإسلامية، ولا سيّما في حقول البيان والنقد والدراسات الأدبية.

أسأل الله تعالى أن يمدّ في عمره، وينعم علينا بالمزيد من علمه وفكره الخصب...».

محمّد مهدي الآصفي

٩ ذي القعدة ١٤١٧هـ

السيد الدكتور زهير الأعرجي

لا شك أنّ الأدب لون من ألوان الفنون الإنسانية الذي يمنحنا شعوراً بالافتخار بهويّتنا الثقافية والاجتماعية والدينية. فهو ليس تجميع عشوائي لكلمات متفرّقة على

قطعة من الورق، بل هو بناء معرفي إنساني على لوح الواقع. والدخول إلى عالم الكلمة من نثر وشعر ونقد وتفسير، يجعلنا نحس بقيمة الجهد الذي يبذله الكاتب ويصنعه مثمراً يانعاً بين ثنايا السطور والفقرات. فالكاتب المبدع يصنع الحقائق على صحائفه البيضاء، ثم يقارن الغث بالسمين، ويمحص الخرافة عن الحقيقة، وينظر إلى التقاليد والأعراف ثم بعدها يضع نظريته الأدبية على طبق من فضة إلى الأمة المتعطشة وإلى الأجيال المتلاحقة بعدها من أجل استيعابها واستلهاهم دروسها العلمية والأخلاقية.

ومن الطبيعي فإن الكاتب الإسلامي الملتزم بتعاليم الشريعة لا يشبع عقل القارئ وينمي فكره فحسب، بل يحرك في روحه دوافع الإيمان بالغيب والاعتقاد برسالات السماء. فذلك الكاتب، وبسبب قدرته الخارقة على الابداع، يفهم ما يريده المكلف المثقف من حاجة فكرية وزاد ثقافي يعينه على شق طريقه الصاخب في هذا البحر الاجتماعي المتلاطم. وهذا لا يتم إلا عن طريق صعب وهو أن يتسلق الكاتب جدار نفسه ويهرب عنها لينظر بعين القارئ في المجتمع الكبير أطروحات الفكر والمعرفة التي طرحها في كتابه. ومن هذا الفكر الذي نحن بصده هو فكر الدكتور محمود البستاني، الذي لمسنا فيه كل عناصر الجمال والخير والابداع.

فقد عشنا مع الدكتور البستاني، في كتبه وأفكاره وشخصه، أجمل اللحظات. ورأينا من خلال أفكاره طبيعة الفن والنفس والاجتماع في الإسلام؛ بل جعلنا ننظر إلى مباني العمارة الفنية القرآنية وكأنها حقيقة أمام أعيننا، وجعلنا ننظر إلى التاريخ الأدبي من زاوية العين الرشيدة المعصومة لأئمة أهل البيت عليهم السلام لا من زاوية عيون الطغاة والظالمين، ووضع لنا صورة الإنسان المثقف بإطارها الفكري البعيد عن الحواجز العرقية الضيقة. وبكلمة، فقد كان الهدف الفكري للأستاذ البستاني ثابتاً واضحاً ومتلخساً بكلمتين: (الوعي) و(الأصالة) في طرح المفاهيم الإسلامية. وعن طريق فن ربط الكلمات وصياغة الأفكار الجديدة، جعل البستاني للثقافة الأدبية الشيعية مقعداً متميزاً في قاعة الثقافة الإنسانية.

فقد أضاف الأستاذ البستاني إلى العلوم التجريبية طعماً أدبياً رائقاً، وعطراً شديداً

ندياً. بل أنّه حاول بناء المفاهيم العلمية لعلوم النفس والاجتماع والقيم بناءً فكرياً أدبياً مسبوكاً فيه الكثير من الإيجاز والعمق والبلاغة. ولا شك أنّ جسراً من هذا القبيل يربط بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية ليس من السهولة تأسيسه أو تشييده ما لم يتسلّح ذلك المؤسّس بعمق فكري وطبيعة استدلالية وذوق أدبي جمالي. وقد كان الدكتور البستاني جامعاً ومتسلّحاً بكلّ تلك الأدوات الإبداعية في عمله الفكري الرائع الذي أتحفنا به. فأعماله الفكرية المتعدّدة مثل (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي) و(في النظرية النقدية)، ودراساته القرآنية المتعدّدة قد أثرت كلّها الفكر الأدبي الملتزم عند الطائفة، ووضعت المصنّف في مصاف كبار أدباء العرب المعاصرين. فأصبح الأستاذ البستاني يمثل مدرسة فكرية لها خصائص متميّزة منها: جمالية الذوق، وإسلامية المنهج، وإبداعية المحتوى.

والحمد لله ربّ العالمين

زهير الأعرجي

١ رمضان المبارك ١٤١٧ هـ

الكاتب الأديب ضياء موسى وردة من حديقة البستاني

(١)

أجئ إليك، أرى أصابعك تختزل الحروف إلى نغمات خالدة، أشاهد الكلمات مصبوغة عندك بلون أخضر، تتلألأ مثل ندى الفجر، سيرتك الذاتية سرب من سنونو، ترفرف بأجنحة الإبداع الأدبي، تحلق في سماء مثالية، ترجع في المساء إلى أعشاشها الربيعية، تحكي للأجيال قصّة شاعر، شاعر صاغ من عطر الزهور قصائد، قصائد تشعّ بالسمو الروحي، تحت الإنسانية على التمسك بالأخلاق، تدعو البشرية إلى السير نحو المبادئ الإلهية، تدعوها إلى الالتزام بتعاليم الرسول الأعظم،

الرسول الذي حطّم أصنام قريش، أمر الإمام علي أن يكتب على جدران الكعبة: الفدائي شجرة مزروعة في رياض الجنان، المجاهد تندلع الفتوحات من بين يديه، الشاعر الثائر يسهر على ضفاف المدافع، يدنو من أبطال التاريخ، يصيغ لون الثورات بلون الدم، دم الإمام الحسين ما زال مانحاً رمال الصحارى ربيعاً دائماً، اليد المقطوعة الاصبع تمنح السحاب مياه الجراح صباح مساء، أبعدت عن المسلمين الزمان الأسود، الزمان الذي يعبد فيه أمية، الزمان الذي يدمر فيه معاوية الذات الإنسانية الصافية، الزمان الذي يقذف فيه يزيد مستقبل الكون نحو الوديان المنبوذة، الشاعر الثائر يقاتل على مرّ العصور أفاعي الظلم والاستبداد، يرفع فوق المدن رايات الحرية والعدالة الاجتماعية.

(٢)

محمود البستاني شاعر موهوب، أديب يتدفق بالنور، سرّ نجاحه تعامله مع مستويات متعدّدة الأشكال فنياً، يرسم بقصائده لوحات رائعة، قصائده بالغة الجمال، عميقة الدلالة، مخضوضرة بالفنّ العالي، منذ الخمسينات من هذا القرن وموسيقاه الشعرية لا يمكن تقليدها، صاغها بفرادته الابداعية، قوافيه تزهو بالجديد، الجديد الذي يحارب آفات الأفعاعيل، الجديد الذي يعادي مهرجانات الأحسن الرسمية، محمود البستاني واصل حياته شاعراً، ناقداً، مفكراً، أستاذاً جامعياً، مفسراً لكتاب الرحمن الرحيم، متهجّداً في محراب العبادة، كلّ مؤلفاته متوهّجة بجمرات الابداع، مُنح وسام الغربة، الغربة المحفورة على جبينه، آهات المنفى أنبتت الشيوخوخة في جسده، من يبتعد عن الوطن تنهال عليه الرماح، من يبتعد عن النجف تتقاذفه أمواج الحزن، النجف بحر يموج بالشعر الفصيح، النجف مدرسة صفوفها الفقه والأصول، النجف جامعة للتاريخ والنقد الأدبي، محمود البستاني الابن الوفي لجامعة النجف، الابن الذي ساهم في تجديد قوافي شعرها البالية، ستبقى الأجيال ترتوي من شلالات فكره، الفكر المشحون بالعمق وبالديناميكية، المفعم بالقيم الأخلاقية.

بعض ما ورد في ترجمته في جملة من الكتب والدوريات

«لم أستطع الحصول على معلومات لترجمة الشاعر، له قصيدتان عموديتان بقافية موحدة تعتبران من أجمل ما ضمت هذه المجموعة، وخاصة قصيدته «ألف مرحى للدماء الزاكية» التي استعرض فيها بطولات الجزائريين وجرائم فرنسا».

الثورة الجزائرية في الشعر العراقي

عثمان سعدي

ص ٣٦٢، القسم الثاني

«ولد سنة ١٩٣٧م، وحصل على الماجستير سنة ١٩٦٩، وفي سنة ١٩٧٠ عين أستاذاً في كلية الفقه ثم حصل على دكتوراه في النقد الأدبي عام ١٩٧٣ من جامعة القاهرة.»

«دكتوراه في النقد الأدبي وأستاذ في كلية الفقه، ومؤلف كتاب علم النفس الإسلامي الذي يدرس في الجامعات، ويعتد عالماً من علماء الفقه الإسلامي، حيث كتب دورة فقهية كاملة بالإضافة إلى نشاطاته الثقافية والفكرية، ويعتد من كبار مفكري النجف والعالم الإسلامي.»

موسوعة النجف الأشرف: المجلد الثاني

«وأستعيد سوق النجف الكبير: فأقف عند دكان صغير فيه لبيع العطور، لا تشكّل مجموع مساحته عمقاً سوى ٧٥ خمسة وسبعين سنتماً مربعاً، تسأل عن اسم البائع الوقور الهادئ الذي يجلس فيه يبيع قنينة العطر بـ (٢٠) عشرين فلساً عراقياً، وتُفاجأ بالجواب: إنه الدكتور: (محمود البستاني)، صاحب النظريات النقدية الجريئة في ما يتصل بالشعر والأدب».

كتاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف للكاتب علي البهادلي

«شاعر مبدع وأديب جليل، وكاتب فاضل ومن خريجي كلية الفقه، ذا أدب وخلق كريم، وإباء وشهامة وأريحية ونفسية عالية، لم يدع ساعة من نهاره تذهب سدى، لذلك تجده في مواصلة مستمرة في إطار النظم والتأليف. وقد نشرت له الصحافة العراقية قصائد رائعة، وشعراً منسجماً عذباً ظهرت فيه خفة روح قائله، وطيب سريره وسلامة ضميره. انتقل إلى القاهرة وواصل دراسته وحصل على شهادة الدكتوراه. وهاجر إلى إيران وسكن مدينة قم، ومن ثم انتقل إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام ولم يزل به. ورحم الله أباه فقد كان من أخلص أصدقاء الشيخ الأكبر العلامة الأميني.. مؤلف الغدير.. انتقل إلى مدينة قم وانصرف إلى التهجد والعبادة والزيارة إلى أن وافاه الأجل في ١٤٠٦هـ.

مؤلفاته المطبوعة: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي. الإسلام وعلم النفس، الإسلام والفن، دراسات فنية في قصص القرآن، دراسات فنية في التعبير القرآني، في النظرية النقدية، المراسم لسائر (ت)، البلاغة الإسلامية، الإسلام وعلم الاجتماع، دراسات في عمارة السورة القرآنية».

كتاب معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام

للشيخ محمد هادي الأمين، المجلد الأول

البستاني*

«البستاني ممتن غنى فلسطين بشعره، ولا يكاد أن يفهم منه اتجاه معين في معالجة القضية بشكل نهائي كحقيقة يبت فيها، فهو ممتن سلك المنهج الحديث في شعره، فاللفظ العذب، والكلمة الموسيقية، والاطرار الخارجي، كل أولئك مما يستهويه في تصميم القصيدة، لذلك نجد طغيان الألفاظ على المعاني في شعره يكاد أن يأخذ طريقه إلى الحقائق الثابتة الملموسة، بيد أن قصيدته «همسات في ليل الصمت في فلسطين»، التي نظمها عام ١٩٦٣م، تقارب في ألفاظها وأفكارها ومعانيها الاتجاه الإسلامي في مؤداه، فالتعابير الدينية، والهمسات الإسلامية، تتجلى بارزة بين سطورها، لذلك أدخلته في هذا الاتجاه تجوزاً باعتباره لم يفصح عن حل أو معالجة على هذا الصعيد، وإنما حام حوله، وسار بخطوطه جانبياً، فهو يقول:

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| هجسة الله من نهور عطايه | الغوالي لألف صدر خفوق** |
| بوركت هجسة يسلسلها الله | وبوركت يا عطاء الشفيق |
| وتعلبت أشعل الليل بالخصب | وفي خاطري عطاء الشروق |
| ابتخطى مسارب الفكر البيض | أفريقي مع الزحام أفريقي |
| خطوات، وما تراءت أطلي | (بفلسطين) بالتراث الصديق |
| عبق الأنبياء يهدر في الساح | وكنم أشتهيه في أن تذوقي |
| أشتهي لو تصل نجواك عطر | الله ملأى بزاده الموثوق |

تباركت هجسة الله، وبورك عطاؤها، متملياً الشاعر الليل بالخصب، يتخطى مسارب الفكر، داعياً إلى الإفاقة، مطلاً بالتراث الحبيب إلى قلبه في

* محمود ابن الاج عبدالحسين البستاني، ولد في النجف الأشرف عام ١٩٣٧م. شاعر مبدع، وأديب لامع، طاهر الضمير، طيب النفس، تخرج في كلية الفقه في النجف، نشر شعره في أمهات الصحف والمجلات العربية، يعمل الآن بائعاً للعلطور في النجف.

** البستاني، محمود، مجلة الكتاب، السنة الثانية، العدد الأول (بغداد ١٩٦٣م)، ص ٦٨ (تصدرها جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين).

فلسطين، فهناك عبق الأنبياء وتراثهم، وعطر الله ملاّن يهزّه للتطواف في مسجده الأقصى، ليعلّ عطر الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم)، يتصباه سنن الأسراء، وهج الذكرى، وهجس البريق، وإيماء النصر ملوّحة، وانجلاء خيال الرعب، وامتداد حبال النور، بنجوم البشرية، مشدودة للتصديق برسالة النبي الكريم (صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم)، وذلك قوله:

| | |
|-------------------------------|---------------------------|
| ثم طوفي بجزّك (المسجد الأقصى) | لمنى طوافه المرموق |
| ستعين عطر (أحمد) ينهل | وبحراك فيه لمح الفريق |
| يتصبك من سني (ليلة الإسراء) | وهج الذكرى وهجس البريق |
| كلّ إيماء تلوح بالنصر | وتجلو خيال رعب وضيق |
| ونجوم البشرية تمدّ حبال | النور، مشدودة إلى التصديق |

ثم يستمر الشاعر في المسير على هذا الدرب المروح بظلال الله، الذي لا يضيره المارق عنه، يستفيق منه على واقع البلاد في فلسطين، وهجير مأساتها، هذه الهمسة التي سمّرت قواه، فلا العار برانٍ، ولا الخنا بمطاق، ولا النسيم بطليق، ولا الأغاريد بمشّعة، تبدو وكأنّها تتلاشى ويغتهاها جحيم الأذى حينما عطّلت أفراحه، أعاصير مجده، في مطاف دام، لواقع فلسطين... من خيام اللاجئين، وصمت النازحين، وعراء البائسين، في صحارى التشريد، ومن بقايا الجياع، وفي ضيعة الحقوق تلك الصور التي تدع الحياة قفراء جرداء، والأحياء لا يفقهون المثل الإنسانية...».

كتاب فلسطين في شعر النجف المعاصر ١٩٦٨/١٩٢٨

الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير

وأما «انتصار شاعر» ففيها نغم حاو، وإنسيابية عذبة، أمد الشاعر بهما بحر الرمل وفي القصيدة إحياء شفاقة مباركة وإطلاع للشاعر واسع وعليها إلى

جانب ذلك، مسحة من أسلوب نواسي ثائر على التقليد داع إلى الابتكار والخلق وعمران القصيدة بالحياة وأنها بعد ذلك فكر وفكرة في لحن ولكن اللحن ما يزال ينم عن فجاجة التجربة*.

مجلة الآداب، العدد الثالث (آذار - مارس) ١٩٦٣، السنة ١١

«تخرج من كلية الفقه، وذهب إلى القاهرة لتحصيل الماجستير ثم الدكتوراد. وهناك أقبل على الله بالمزيد من العبادة وأقبل عليه سبحانه بألطافه. فبعد رجوعه عين أستاذاً في كلية الفقه. قال لي: رأيت عند الأستاذ العلامة الشيخ محمّد تقى الايرواني جزءاً من كتاب الحقائق الناطرة فاستعرتة فقرأته، وهكذا حتى قرأت المجموعة كلّها، ثم أخذت أقرأ كتب الحديث وجواهر الكلام وبقية كتب الفقه ولمدة سنة ونصف أقرأ في كلّ يوم أربع عشر ساعة حتى قال لي بعض الأعلام أنت مجتهد ولا يجوز لك أن تقلّد، سافرت معه إلى الحجّ سنة ١٣٩٨ هـ ومعه بعض كتبه في الفقه الاستدلالي.

وسألته: هل استغلقت عليك عبارة أو أشكل عليك مطلب في وقت التحصيل؟

فقال: نعم، وكنت أرجع بالسؤال والايضاح من بعض الأعلام. وأعظم من هذا عندي هو تقوى الدكتور وانصرافه عن الدنيا وما يحمله من ولاء لأهل البيت (عليه السلام).

كتاب نجفيات - علي محمّد علي دخیل: ص ١٣٥ - ١٣٦

«الدكتور محمود عبدالحسين البستاني الأديب الكبير، والشاعر المجدد، والكاتب المبدع، ولد في النجف الأشرف عام (١٩٣٧م)، تخرج من كلية الفقه وحصل على الماجستير عام (١٩٦٩م)، ثم حصل على الدكتوراه في النقد الأدبي سنة (١٩٧٣م) من جامعة القاهرة، عمل أستاذاً في كلية الفقه للأدب العربي، والنقد الأدبي، ولجملة من العلوم. هاجر إلى الجمهورية الإسلامية وسكن في قم، ومشهد ويعمل الآن في مؤسساتها العلمية... ينطوي البستاني على خلق كريم وإباء وشهامة. وهو متعبد زاهد منقطع إلى الله تعالى معرضاً عن الدنيا.

ويعدّ البستاني على رأس قائمة الباحثين الإسلاميين يكتب في الأدب والنقد وعلم الاجتماع وعلم النفس والتفسير والبلاغة والفقه الاستدلالي وله مؤلفات كثيرة في كل ذلك، وهو يسعى لأسلمة العلوم وإخضاعها للمناهج الإسلامية».

تاريخ الأدب العربي

تأليف لجنة الأدب العربي في وحدة تأليف الكتب الدراسية

الناشر: المنظمة العالمية للحوزات

في حقل الشعر

في ذكرى الزهراء *

دمع أذيل!! فيا كواكب، سامريه، و يا نجوم
ذريه في الأبعاد، عبر مجاهل النجوى، يحوم
ذريه في هديك، . يطرر من حواشيه الوجوم
أو سمرية على المدى قطرات... لألاء.. عظيم
تنسل، عن قدسية بيضاء..، في الليل البهيم
حتى كأن المأتم العلوي، يغتال النسيم
فيها - ويهوي كالقناء، على محياها الوسيم
لا همس ضوء.. لا شذى يهفو.. ولا شجراً بهيم
عجنته مأساة الحياة.. وأطبقت فيها الغيوم
والنكبة السوداء.. تذروها بقايا من هشيم



يا غرسة الهادي تمور، تمور، بالعبق الكريم
أولست من عبق السماء.. ومن تفتحها العظيم
حسب الرسالة. أن ظهرك.. بعض مجراها السليم
وسنى الإمامة من نثارك يستطيل ويستديم

ليظل . ينسج في الحياة . ضفائر الدين القويم
ويظل يرفد، واحة الأجيال.. بالخير العميم
كالنبي.. لم يسكت عن الجريان . للرمل العقيم
ليمدّه .. بالمعطيات.. وبالخصوبة، والنعيم
كالشمس .. لم تسكت، عن المدّ الشعاعي الرحيم
تتمسّح الدنيا.. بها، بيداً أفوايقاً تخوم
قسماً.. ودين الله، عبر المعطيات . فم بسيم
نستلّ منه الضحكة السحاء.. تهزأ بالهموم
سنظلّ نفتح من مساكبه،.. حياة تستقيم
وعلى دروب هديرها العلوي .. لألاء عظيم



يا غرسة الهادي!! ويغسل راحتي هدير خطبة
تنسلّ من رشح العصور.. وفي دمي، مطر، وتربة
غمست فيها! ماتت به، هضاب الروح!! خصبه
ولهي!! تحلق في العصور، وتستشّف روى الأحبة
وتلم مجد الخطبة الملأى!! شذى قدس، ورهبة
(الله) في هدراتها ألمحت، موكبه، ودربه؟!
ومحمّد يهتزّ، يسفح في ضمير القوم عتبة
والجرح لما يندمل إنّي أكاد، أحسّ ندبه
وهدرت شامخة البلاغة، والخناجر مشرّبة
حرف يسيل، وألف معذرة!! وأقوى أن أصبه؟!
حرف البلاغة، من سماء الله، واستجمعت شهبه
لترنّجه على سماع القوم ملحمة وخطبة



قسماً!! وأودية الحياة.. ملاعب سمحاء، رحيه
 سنظل ننسج من خطى الزهراء ألف رؤى محبه
 بيضاء تنثر جيل أنثى يحضن التاريخ ركه
 جيل يموسق من هدى الزهراء مشعله، ودريه
 لا وحلة الفوضى، تشل خطى الحقوق المستتبه
 لترجته معنى يغيم صدهاء في عتمات رغبه
 صرعت بأبواب الشراك وسمرتها ألف عتبه
 البهرج المسحور طاووس، يجر، يجر، ثوبه
 وهج على مستنقع، والأعين الحولاء شربه
 لا، لن نعل بهارج العقم البليد - ولن نعبه
 شيئاً إباحي الهوى شيئاً إباحي المغبه



محمود البستاني

التجف الأشرف

مع القرآن *

طالعت ركبتي، أَسْتَشْفُ ماذا، وراء الملح، يغفو
ألف من المتع الحبيبة، تزرع الدنيا، وألف
سبحان، من وهب الرؤى، بالعطر، والنجوى، ترف
بيضاء، بسمنها، نهار الله، نعماء، ولطف
الله يكتب حرفه،... ومحمد شيئاً، يزف
الله، ينثر باقة الدستور.. والأجيال، تهفو
أبداء.. تطلع، تلثم القرآن؛ كنزاً، تستشف
.. مرعى، لرؤاد الجنى، هنأ، وهنأ، أن قطف
.. مرعى، لمزرعة السناء،... وأنامل الباري، تحف
يا راحة اليد، لملمي،... ولتثر، بالنعماء، كف
خسرت أياد، لا تلم، وراحة، عنها تكف
شربت أحاسيس الضباب،... وراح موكبها، يلف
لتظل تستسقى؛ لغى الشيطان.. يقعى منه حرف
وتعاف زاد الله،.. كيف يعافه الطاوى.. ويخفو
وإذا ألقى، سرق البصيرة.. واسترقّ النور، لف
هيئات.. أن يلج الشعاع.. إلى مساريها، ويصفو

يا أمة القرآن.. ركبك هاهنا.. فليسر، زحف
الدين عند الله، إسلام^١ على الدنيا... يرف
النبي ثر.. هل يفض عن النمر الثر، طرف؟!
ماذا؛ على شفة السراب... عواءه الخاوي.. ياف
إلا متاهاً، لا حدود له، على أرض، تصف
هيا.. ترقك أظلة القرآن.. عن وهج تشف
تर्फك أفياء الجلال وهيمناات الله، تضيفو
إنني لألمح، موجة الابداع.. والآيات، تطفو
الشمس تجري^٢ في الحياة لمستقر - لست أقف -
- أنراً؛ لها - لكن، تقدير العزيز.. هدى ولطف
ويموج زخ المعصرات^٣ وماءها الشجاج، رشف
للحب أنا، والنبات^٤ وكل ما في الأرض، يشفو
والأرض في الدنيا، ذلول^٥ في مناكبها.. نحف
يحتتنا من رزقه.. كتل، وأكداس، ورصف
رب المشارق والمغارب.. ألف إيماء، بهف
ويظل يومي.. لو ترامى البحر.. في مجراه وصف
مجرى إلى كلمات ربي^٦ أو مداد.. لا يجف
لم تنفذ الكلمات!!، إن تستجلي حرفاً، يزه حرف!
بوركت يا حرف الإله، على هداك السمع، نغفو

١ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

٢ - ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٣ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾.

٤ - ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً﴾.

٥ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾.

٦ - ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

أمطر جوانحننا، شذى، وأسله، يهدر، منك عطف
 أنا في نشيدك هادر، ما، مال عنك، وحاد، عزف
 .. أبداً.. وصفو سريرتي.. لم تمحه، كلم تخف
 لثرود أفقاً.. ظنّه الرائي به.. قلبي، يسف
 أبداً.. جناح عقيدتي.. لم ينكمش، لم يعش طرف
 لكنّها.. كلم تقال.. بها صفاء النفس، يخفو
 تطوافها أبداً .. إليك.. وإن، جرت شيئاً، تزف
 أنا لو أسىء - وفي دمي هذا الصفاء - فأنت، تعفو

محمود البستاني

النجف الأشرف

وتدلّت من السماء، عناقيدك ياوحي، بالعطاء تبوح

يا مطاف الحياة!! زنبقة الذكرى، على ساحل الحياة، فتوح
باركت عطرها السماء.. كما بارك إيماءة النسور الظموح
.. وتمليت... أرقب الموكب الأبيض... يجتثّ أصغري الجنوح
كالعصافير، شدّها ألق الصحو، إلى حيث رهوة، وسفوح
عربات النسيم، إذ، تنصباها، وإشراقه المدى، إذ تلوح
كالفرشات.. والرحيق تهامي جدولاً في خيالها، يستريح
فاجأتها من العطاءآت، ما يغري، ومن هزّ ذاتها.. ما يبيع
لا تسلني عن العطاءآت، والاسراء يكتظّ مجده، ويسوح
أغرقتنا طيوبها.. يا مسافات!! تداني، ولملمي يا جروح
بوركت دفقة النبيّ على الكون، تهامي غديرها المسفوح
وتدلّت من السماء، عناقيدك، يا وحي.. بالعطاء، تبوح
يلقح الكون، روعة المبعث المشهود.. إيماءها الجميل الصبيح
كسقاء الأقمار.. يثري بها الأفق.. فيسنى قلب، ويفتن، روح
لا تسلني عن العطاء.. عطاء الله، هذا الذي.. بدري، يفوح
في انفلات الطيوب، من شفة الغار بوشي نثارها التسبيح
في تلاوينها.. وعاء من التاريخ، ما فضّ لغزه التصريح
طالما الأربعون لم يترنّج لدنى العالمين منه الوضوح
غير نجوى.. رحيقها، يعبد الله... وإيماءها، الثنا، والمديح

فإذا الغار!! جنة من خشوع ورياحينها الدعاء الربيع
والحجار العتاق.. مبتلة بالطف، مما يغدو، بها و يروح
ولسان الجدران، يحفظ ممّا هل فيه، وناله الترشيح
والنسيم الذي احتواه كأنّي بمباهاته، أوان يسبح
يتهادى، على اللدات، - وإيماءاته الكبرياء، والتلويح
في مجاليه، في زحام المباهاة، وحقاً لو لم يرقه النزوح!!
والعظيم!! الذي، يزاحمه الكون، وتكتظّ، في، لقاء السوح
- أبداً، تشرّب، لو أنّ مغناها، بنعمى أذياله ممسوح
لاستطارت تيهاً،... وغلف دنياها، فخار زاه، وجاه فسيح



وتلفت!! والحياة، تمطى عن مغاليقها، لسان فصيح
ينشهى جناء، جوع الليالي والحضارات، والمنى، والطموح
صادع بالرسالة البكر، يا شرك، تهدم، ولا تني، يا صروح
وترامت، ببادر الصحوّة السمحاء، يسقي الدني، جناها الصريح
وضحي البشريات، ذراته البيضاء، عدل بان، وزحف صحيح
لم تكشّر، على مسافات الأهواء، أنّى ينالهنّ الفحيح!!
صحوّة صاغها الإله، فسيروا في مجالاتها الكبار، وسيحوا
والذي يستريح، في خيمة الإسلام،... هيهات.. لم تجد له، ربح
وهدير الطوفان لن يبلغ الصحوّة، والملتقى سفين ونوح

محمود البستاني

النجف الأشرف

لَا تُخْزِي

| | |
|---|--------------|
| ٧ | تقديم |
| ٩ | المدخل |

الفصل الأول

| | |
|----|----------------------------|
| ٢١ | الجدور الأولى |
| ٢٣ | وسطه الاجتماعي |
| ٢٦ | وعيه وتفاعله الثقافي |

الفصل الثاني

| | |
|----|---|
| ٣١ | مشروع أسلمة العلوم الإنسانية |
| ٤١ | ١ - الحقل النفسي |
| ٤٣ | منهج في البحث النفسي |
| ٥١ | ٢ - الحقل الاجتماعي |
| ٥٦ | ٣ - الحقل الأدبي |
| ٥٦ | النظرية الأدبية |
| ٦٩ | ملاحظات حول كتاب تاريخ الأدب العربي |
| ٧٣ | النقد الأدبي |
| ٧٥ | «في النظرية النقدية» |
| ٧٨ | القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي |

| | |
|-----|--------------------------|
| ٨٨ | موقفه من الشعر..... |
| ٨٨ | الشاعرية المبكرة..... |
| ٨٩ | الجنبة التجديدية..... |
| ٩٧ | الاسهامات الإصلاحية..... |
| ١٠٢ | عوداً على بدء..... |

الفصل الثالث

| | |
|-----|--|
| ١٠٩ | الحقل التفسيري والنشاطات القرآنية..... |
| ١١٤ | منهجه في التفسير..... |
| ١٢٠ | دراسات فنية في قصص القرآن..... |
| ١٢٣ | دراسات فنية في التعبير القرآني..... |

الفصل الرابع

| | |
|-----|---------------------------|
| ١٢٧ | الحقل الفقهي..... |
| ١٣٦ | (١) حداثة اللغة..... |
| ١٣٨ | (٢) التركيز العلمي..... |
| ١٤٠ | (٣) الموضوعية الجادة..... |
| ١٤١ | (٤) السعة والشمول..... |

الفصل الخامس

| | |
|-----|----------------------|
| ١٤٥ | الوعي العبادي..... |
| ١٤٧ | ابتكارية الطرح..... |
| ١٤٩ | اللغة التوصيلية..... |

- اقتصادية اللغة ١٥٢
- التجربة الروحية وانعكاساتها الثقافية ١٥٤
- جلسة الاثنين ١٥٨
- أشياء تربوية ١٦٠

الفصل السادس

- حوار متنوع يتضمن جملة قضايا ١٦٥

الفصل السابع

- البستاني في دائرة الضوء ٢٠٧
- الشيخ محمد مهدي الآصفي ٢٠٩
- السيد الدكتور زهير الأعرجي ٢٠٩
- الكاتب الأديب ضياء موسى ٢١١
- بعض ما ورد في ترجمته في جملة من الكتب والدوريات ٢١٣
- الثورة الجزائرية في الشعر العراقي ٢١٣
- عثمان سعدي
- موسوعة النجف الأشرف / ج ٢ ٢١٣
- كتاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف ٢١٤
- الكاتب علي البهادلي
- كتاب معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام / ج ١ ٢١٤
- الشيخ محمد هادي الأمين
- كتاب فلسطين في شعر النجف المعاصر ١٩٢٨/١٩٦٨ ٢١٥
- الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير
- مجلة الآداب، العدد الثالث (آذار - مارس) ١٩٦٣، السنة ١١ ٢١٧

- ٢١٧ كتاب نجفیات / ص ١٣٥ - ١٣٦
- علي محمد علي دخیل
- ٢١٨ تاریخ الأدب العربی
- تألیف لجنة الأدب العربی فی وحدة تألیف الكتب المدرسیة.
- الناشر: المنظمة العالمیة للحوزات
- ٢١٩ فی حقل الشعر
- ٢١٩ فی ذکرى الزهراء
- ٢٢٢ مع القرآن
- ٢٢٥ وتدلّت من السماء، عناقیدك...
- ٢٢٩ المحتویات

